روايات الهلال

حمدى البطران



خريف الجنرال

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

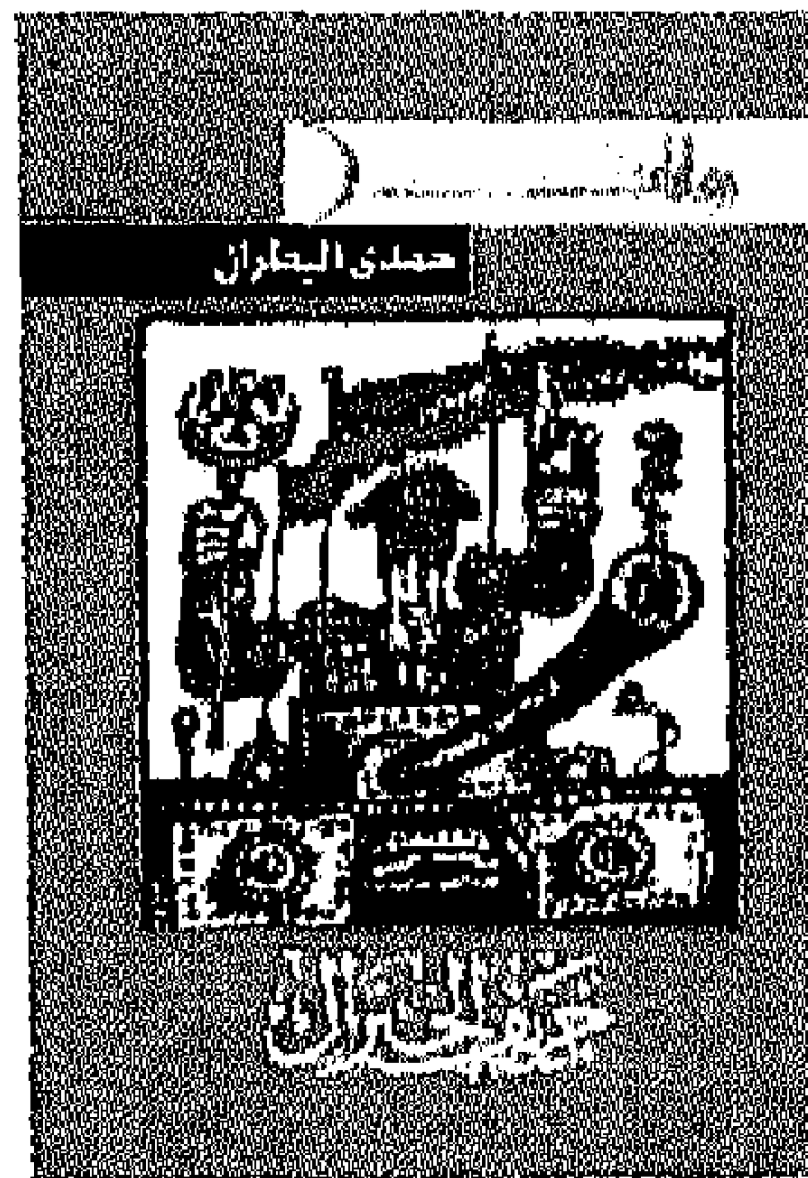
سكرتير التحرير
محمد رضوان

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دارالهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)، المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 3625469



الإصدار الأول
يناير ١٩٤٩

العدد ٦٧٩ - يوليو ٢٠٠٥ - جماد آخر ١٤٢٦

ثمن النسخة

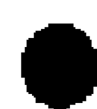
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

البريد الإلكترونى:
darhilal @ idsc. gov. eg

خريف الچنرال

بقلم

حمدى البطران



دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد حجى

(١)

طلبت إجازة قبل صدور الحركة بأربعة أيام .

اعترض رئيسى اللواء المدير العام ، أخبرته أننى أحتاجها حتى لايفاجئنى قرار الإحالة للمعاش وأنا منهمك فى العمل ، قال :

– أنت متأكد من إحالتك للمعاش ؟

قلت له :

– أنا أتمنى أن أستمر فى العمل ، ولكن الأمر كما تعلم ليس بيدى ، ولابيدك .

جادل كثيرا ، كنت أعرف أنه يجاملنى ويريد أن يؤكد لى أنه كان يريدنى أن أستمر معه فى العمل ، وبالفعل أخبرنى أنه كتب عنى ما يجعل الوزير يمد خدمتى فى العمل مدى الحياة .

فى الواقع كنت أعرف أنه يكذب ويحاول أن يبدو مجاملا ، لأنه أثناء الكلام كان يحول عينيه بعيدا عنى ، وكان يطرق إلى الأرض ليتجنبنى .

وقد عرفت أنه قال للجنة التى قابلتنا قبل ذلك أنه لايريدنى أنا ومعى خمسة من زملائى ممن حل عليهم الدور للترقية ، لأجل هذا لا أريد أن أراه، ومع هذا أخبرته أننى لا أريد أن أرى الشماتة ولا الرثاء فى وجوه زملائى ومرءوسى وأنا خارج من مكتبى آخر مرة .

فى النهاية وافق على الإجازة .

جمعت أوراقى الخاصة من فوق المكتب والأدراج .

مقلمة على هيئة ساعة ، إطار صغير للصور فيه صورة لأسرتى . تليفون على شكل حذاء امرأة . مجموعة متنوعة من الأقلام ، مبراة ضخمة ألمانية الصنع ، مصحف له غلاف جلدى سميك مدون على هوامشه تفسير للقرآن الكريم وشرح للكلمات . طاقم مكتب جلدى ، ساعة مكتب فى ظهرها بوصلة

تشير إلى اتجاه القبلة ، راديو صغير وأچندة تليفونات دونت فيها أرقام تليفونات كل أصدقائي ومعارفي .

فتحت أدراج المكتب .

أچندات كثيرة ودفاتر صغيرة تعود لسنوات بعيدة ، كنت أدون فيها ذكريات خاصة ، وتواريخ تخص العمل وتخصني ، كما هي عادتي ، فأنا أكتب كل شيء مهما كان تافها وصغيرا .

المجلات التي اشتريتها على مدى أكثر من ثلاثين عاما هي كل خدمتي ، بعض تلك المجلات كانت تتحدث عن مناسبات مرت بها البلاد ، نسيناها ، منها مجلة تتحدث عن أحداث سبتمبر ١٩٨١ وما جرى فيها والفترة التي أعقبتها ، وصورة للرئيس السادات وهو في منتهى الغضب ، وفيها أيضا صور لعملية اغتياله . مجلة أخرى فيها تسجيل كامل لمضبطة مجلس الشعب في الجلسة التي خصصها المجلس لوزير الداخلية وهو يرد على استجواب قدمه أحد الأعضاء عن عمليات التعذيب ، وقتها أحضر الوزير شريط فيديو ظهر فيه أحد الصحفيين وهو يشرح - الصحفي - كيفية إعداد الصور التي ظهرت في الجرائد والمجلات التي تتحدث عن التعذيب . أصبح الآن معارضا سياسيا . في المضبطة أيضا واقعة دخول شيخ جليل على خط التليفون الذي كان يراقبه الوزير وهو يسأل الصحفي عن سعر الدولار ، وقتها اتهم الوزير الشيخ بأنه يتاجر في العملة ، لقد أصبحت تلك المجلات تاريخا يقرأ . ومجلة ثالثة تتحدث عن فضيحة تليفونات سجلها أحد الهواة وكانت لوزير معروف مع امرأة جميلة ، سيدة مجتمع ، كانت تعاشر عددا كبيرا من المسئولين ، ووصل الأمر إلى مجلس الشعب ، وقتها تعجب رئيس الوزراء من الأعضاء الذين أثاروا الموضوع تحت قبة المجلس وقال قولته الشهيرة : كيف تتدخل الحكومة وتمنع رجلا من تقبيل عشيقته في بئر السلم؟

جمعت الاجندات والمجلات ووضعتها فى كرتونة ، وطلبت من شعبان عسكرى المكتب أن يحملها إلى السيارة .

استدعيت أمين المخازن . سلمته سلاحى الشخصى . طبنجة . لم استخدمها قط إلا فى تدريبات ضرب النار، كان هذا السلاح هاجسى الأكبر طوال مدة خدمتى ، كنت حريصا عليه حتى لايضيع منى أو أنساه فى مكان ما ، كما حدث مع أحد الزملاء ، نسى سلاحه الشخصى فى دورة مياه أحد المساجد ، وقتها أوقفوه عن العمل ، وحولوه إلى مجلس تأديب ، ثم ضبطت الطبنجة بعد ذلك ، وكان عامل المسجد الذى عثر عليها يحاول بيعها . وعندما تدخل المرشد لشرائها قبضوا على عامل المسجد ، وأعيدت الطبنجة إلى الحكومة ، ولكن زميلنا دفع ثمنها وعوقب .

ربطتنى بطبنجتى علاقة حميمة ، فقد لازمتنى فى المكتب والبيت ثلاثين سنة كاملة . لم تخذلنى ولم تتخل عنى قط ، وضعتها على المكتب بعد أن أخرجتها من جرابها الجلدى ، ونزعت منها خزينة الطلقات ، أفرغت الخزينة من الطلقات طلقة طلقة .

تناولها أمين المخزن دون أن ينظر فى وجهى ، نظر فى الرقم المدون على مؤخرتها وظرف الماسورة ، وطابقه بالرقم المدون فى الاستمارة التى عنده. لم يتكلم . أعطيته الطلقات ، نفس العدد كما تسلمته مع الطبنجة. حرر لى إيصالا يفيد إخلاء طرفى من الطبنجة والذخيرة ، ولم ينظر فى وجهى ، وناولنى الرجل الإيصال صامتا . حاولت أن أعطيه بعض النقود رفض الرجل وانخرط فى البكاء دون سبب واضح .

كان على أن أحصل على إخلاء طرف من باقى أقسام العمل ، تولى كل ذلك زميلى شفيق .

★★★

ألقيت نظرة أخيرة على المكتب الذى أمضيت فيه تسع سَنوات كاملة ، كل جزء فيه يذكرني بموقف تعرضت له . دولاب الملابس حيث كنت أستبدل ملابسى المدنية بالرسمية كل يوم . فقد كنت أحضر من الاستراحة بالملابس المدنية وأستبدلها بالملابس الرسمية بيضاء صيفا وسوداء شتاء .

على باب الدولاب من الداخل مرآة صغيرة أحضرتها فى اليوم الأول لاستلامى العمل فى هذا المكتب . أضبط عليها رباط العنق الأسود . وأعدل وضع علامات الرتب على كتفى وعلامات الشرطة على ياقتى السترة الصوفية السوداء ، وأضبط وضع الكاب على رأسى قبل دخولى عند المدير العام .

على صفحة تلك المرآة اكتشفت أول شعرة بيضاء فى رأسى ، حتى الآن الشعر الأبيض قليل فى رأسى ، قضيت فى المكتب ليال طويلة عندما يتم تعيينى فى ضابط عظيم الإدارة كنت أنام فيه ، ربطتنى بالمكتب علاقة ملتبسة ، فقد ألفت حوائطه المطلية باللون الأبيض ، ولكننى لسبب غامض كرهت بياضها ، أرضيته الخشبية كانت تبدو بلونها البنى لامعة دوما ، وكانت أصوات حذائى المكتومة على أرضية المكتب لها وقع رصين ، يذكرنى بأهمية وظيفتى عندما يفتح لى العسكرى الباب .

على الحائط وفوق رأسى صورة لرئيس الجمهورية . وعلى الحائط المقابل لى ، نتيجة حائط عليها شعار الداخلية ، مطبوع عليها صورا لمبان أنشأتها الوزارة مثل الإعلانات التى تنتشر فى الجرائد عن الشقق التى تبنيها شركات المقاولات ولا يشتريها أحد . كانت نتيجة الحائط بمثابة إعلان عن منجزات وزارة الداخلية لا وزارة الإسكان !

جاء زميلى العميد شفيق وهو الذى سيحتل المكتب بعدى . تظاهر بأنه جاء ليودعنى . ولكنه جاء ليلقى نظرة أخيرة على المكتب ، وليتأكد من بقاء

عهدة المكتب المستديمة كما هى . عدة التليفون الأميرية . جهاز الفاكس . جهاز الكمبيوتر بمشتملاته الهارد والمونيتور والماوس والكى بورد والطابعة . ماكينة تصوير المستندات ، ماكينة إتلاف الأوراق الهامة ، جهاز التكييف بالرموت كنترول . دباسة الأوراق الضخمة صينية الصنع . خرامة ورق لونها أحمر غامق . الدفاتر الرسمية التى تخص العمل . جهاز تليفزيون وريسيفر ، رزم من الأوراق البيضاء التى لم تستخدم . دوسيهات . رزمة من أوراق الكربون . كشاف إضاءة فى حالة انقطاع التيار الكهربى . حذاء جلد برقبة طويلة يستخدم عند نشوب الحريق . أظهرت له كل الأشياء الخاصة بالمكتب .

كما أعطيته الأوراق السرية والتقارير المهمة التى تخص العمل ، وفيها تقارير أداء للعاملين .

قبل ثلاثة أيام أخبرت زميلى شفيق بنيتي فى الحصول على إجازة . ومن وقتها ، لازمنى ملازمة مستديمة ، ولم يفارقنى أثناء تواجدى فى المكتب قط. حتى وأنا أتكلم فى التليفون ، كان يتظاهر بأنه يقرأ الجريدة ، وكانت أذنيه تلتقطان كل مكالماتى ، أراه وهو يصغى للتعرف على شخصية محدثى على الجانب الآخر ، والموضوع الذى نتحدث فيه ، لم يكن شفيق هكذا فى أول الأمر ، ظهرت عليه تلك الأعراض منذ أن عرف أننى من الممكن أن أخرج للمعاش، وأنه سيخلفنى فى مكانى على المكتب . كان واثقا أنه سيجلس على المكتب لأنه الأقدم بعدى ، بدأ يجلس معى فترات طويلة ، فسرتها فى أول الأمر بأنها رغبته فى أن يعرف كل شىء عن العمل الذى سيسند إليه ، وفسرها هو بأنه لايريد أن يتركنى لفرط محبته الزائدة لى .

عمل معى شفيق منذ ثلاث سنوات ، منذ أن جاء مطرودا من إدارة لها شأنها وسطوتها ، حاول أن يفسر لى فى جلساتنا الودية السبب الذى من

أجله أجبر على ترك الإدارة ، وقال إنه رفض أن يخضع ، بالطبع أظهرت له أننى أصدقه ، بدا مكتئبا ومهموما فى أول الأمر ، لايتكلم إلا نادرا . له مقدرة هائلة على التنصت وجمع المعلومات وتوصيلها ، لم أبخل عليه فى شيء يخص العمل وكنت أحيطه علما بكل تفاصيل عملنا ، تكلم معى كثيرا عن أمجاده فى وظيفته السابقة ، خانتنى الذاكرة ولم تحتفظ بشيء مما حكاه ، وهى فرصة ندمت عليها غاية الندم لأنها كنت ستضيف إلى ما أكتبه سحرا خاصا ، ولكنه والحق يقال ساعد دون أن يقصد فى تحقيق نوع من الارتياب العام بيننا ، مما حال دون اجتماع أكثر من ضابط فى مكان واحد دون سبب رسمى ، كما أنه نجح فى خلق جو من التوتر ، فقد تكشفت لرئيسنا المدير العام بعض أسرارنا الصغيرة مما ساهم فى توسيع الجفوة بيننا كمجموعة كانت متآلفة . كما أنه ولسبب غير مفهوم لم ينجح فى تثبيت وضعه لدى المدير ، وسرعان ما صدرت إليه التعليمات بأن يلتزم بالتسلسل الوظيفى .

كان هذا فى حد ذاته مؤشرا لرفض طريقته التى نقلها من الإدارة المنقول منها والتى لها بالطبع طريقتها الخاصة .

كان شفيق نائبى ، وعندما أكون فى إجازة يحل محلى وكنت أترك له حرية التصرف ، ولا أتسلط عليه بالتليفونات وأدير العمل من بيتى ، كما كان يفعل المدير الذى سبقنى .

شفيق الآن يراقبنى طبقا لأبسط أنواع المراقبة التى تعلمها ، نعرف هذا الأسلوب فى الرقابة على تصرفات القيادات قبل لحظات من تركهم العمل ، حتى لايتصرف أحدهم على نحو مريب تحت شعار «يا رايح أكثر من الفضايح» .

لم أمارس هذا الأسلوب مع المدير الذى كان قبلى .

أشاع العسكرى شعبان بين العاملين فى الإدارة أننى عرفت بالحركة

وأننى منقول من الإدارة التى أعمل بها إلى مكان بعيد فى الصعيد .

توافد على المكتب بعض الضباط من العاملين معى ، سلموا على ، سألوني عما سمعوه ، أخبرتهم أننى لم أعرف شيئاً ، وأننى فقط حصلت على إجازة .

بدا بعضهم مغتبطا دون أن يدرى ، بعضهم كانت عواطفه تلقائية وجياشة فى التعبير عن حالته ، بينما جلس الآخرون صامتين . مكثوا جميعا دقائق معدودة وغادروا المكتب .

جاء بعدهم العاملون المدنيون ، ومعهم بعض الموظفات كانت معهم شيرين ، أحضروا معهم علي عجل هدية صغيرة فى حجم علبة السجائر . ملفوفة بورق يلمع . صافحونى جميعا ، ظلوا واقفين ، تكلم الأستاذ جرجس كبيرهم ، وقال إننى تركت فيهم انطباع ليس من السهل أن يمحى ، كانت شيرين تنظر لحذائها ، طلب منى جرجس باسم العاملين فى الإدارة أن أقبل هديتهم ، وقدم لى العلبة ، وخرجوا . تأخرت شيرين قليلا ، وقالت وهى تبتسم خجلى :

- لازم يبقى فيه تليفون على الأقل .

وخرجت . نظرت إليها وهى خارجة . كانت أردافها ممتلئة ووسطها ضيق بشكل مثير . لم أفطن إليها من قبل . بدت لى فى تلك اللحظة رائعة . لم يكن بينى وبينها شىء ، كما أنني لم أعاملها معاملة خاصة تميزها عن غيرها من زميلاتها ، كانت عندما تدخل عندى تتلعثم فى الكلام وترتبك عند أى سؤال ، واعتبرتها من النوع الخجول ، وأحجمت عن توجيه أى أسئلة لها ، ولكنها كانت تطيل النظر لى بعد أن تضع الأوراق أمامى لتوقيعها ، كانت تقف عن يمينى وأنا أوقع الأوراق ، كنت فى كل مرة أبعدها خشية دخول أحد فجأة ، طلبت منها أن تقلب الأوراق وهى أمامى لا بجوارى ،

عرفت أنها فعلت هذا مع المدير الذى قبلى ، وبالطبع ستكون واحدة من المزايا التى يتمتع بها شفيق من بعدى .

غادرت الإدارة فى السيارة المخصصة لي فى طريقى إلى محطة القطار.

مكتبنا في أطراف القاهرة ، ومع أننى أقطع هذا الطريق فى اليوم مرتين إلا أن الطريق بدا لى هذه المرة غريبا . خيل إلى أن كل شيء فيه جديد . الصحراء التى تحولت إلى مدينة سكنية جميلة تحيط بها الخضرة .

رجال الأمن المركزى يقفون فى حالة اصطفاف بملابسهم السوداء ، الضباط الشبان بملابس الميدان يلقون عليهم التعليمات ، كانت الساعة فى العاشرة تماما عندما أشار إلينا ضابط المرور بأن نقف كان وقوفنا عند ملتقى الطرق . بدا الطريق أمامنا خاليا تماما . بدأ السائقون فى التذكر ، البعض أخرج جريدة يقرأ فيها ، تكدست السيارات حولى وخلفى ، كنت أخشى أن نتأخر عن موعد قطار الصعيد ، سمعنا الصوت المميز للسيارة التى تسبق الركب ، وظهرت سيارات الحراسة فى أول الأمر ، وأعقبها سيارات سوداء كثيرة من بينها سيارة يوجد علمان صغيران يرفرفان على مقدمتها . تذكرت أن مؤتمر القمة سيبدأ أعماله مساء اليوم ، وأن الرؤساء والملوك سيتوافدون من المطار إلى جامعة الدول العربية أو قاعة المؤتمرات فى مدينة نصر لا أدرى ، أيقنت أن الأمر سيطول خاصة عندما انصرف الركب الذى تحمل سياراته أعلام دولة جيبوتى ولم يصدر ضابط المرور تعليماته بمواصلة السير ، ازداد نفير السيارات حولى وتحول الأمر إلى مظاهرة بـ (الكلاكسات) ، بدأت بوادر الموكب القادم تظهر .

★★★

عندما وصلت إلى محطة السكة الحديد حمل شعبان عسكرى المكتب الكرتونة ، حمل نجاتى السائق الحقيبة إلى محطة القطار ، أعترضهما

مـخبـر يرتدى الملابس البلدية على باب محطة الجيزة . وحاول المخبر أن يفتش الكرتونة والحقيبة الكبيرة التى فيها ملابسى . اعترض نجاتى ، أنزل شعبان الكرتونة من على كتفه وأمسك الحقيبة الكبيرة بيده .

مد المخبر يده إلى الكرتونة لينزع عنها الشريط اللاصق الذى أحاط بها ليفرغ محتوياتها على الأرض .

قال شعبان للمخبر :

- دى بتاعة سيادة العميد .

كنت أسير خلف شعبان بمسافة قليلة . وسمعت المخبر يقول :

- عميد إيه وبتاع إيه ؟ إنت بتهددنا ؟ لازم الكرتونة تتفتش ، والشنطة كمان .

امتدت يده إلى الكرتونة وحاول أن ينزع عنها الشريط بعنف ، كأنه ينتقم عندما وقفت على رأسه .

لكزه نجاتى السائق فى كتفة لينبهه لوجودى ، وأشار إلى .

اعتدل المخبر عندما رآنى وقال :

- خلاص يا باشا ، أنا كنت فاكر إن الحاجات دى بتاعة الأخ ده .

وأشار إلى العسكرى السائق الذى لم يسكت وقالت :

- أنا يا باشا قلت له إن دى شنط سيادة العميد وهو قال : ....

أنهيت المناقشة .

وطلبت من المخبر أن يباشر عمله ويفتش الحقيبة والكرتونة .

رفض المخبر بإصرار أن يفتش الحقيبة ، ثم رفع يده بجوار اذنه وقال :

- معلهش يا باشا .

ضحكت فى سرى عندما تذكرت أن تلك اللحظة هى آخر عهدى بممارسة السلطة .

حمل شعبان الكرتونة ، وحمل نجاتي الحقيبة إلى المكان الذي سأقف فيه على رصيف المحطة ، أخرجت من جيبي ورقة من فئة العشرين جنيها وأعطيتها لشعبان عسكرى المكتب . تمنع في أول الأمر . وكان ينظر إليها . لعله استصغرها . ولما رأى اصرارى أخذها ودسها فى جيبه .

كان شعبان قرويا ساذجا عندما التحق بخدمة المكتب ، منذ شهر واحد اكتشفت أنه أقام علاقة عاطفية مع بائعة سجائر في كشك أول الشارع الذي تقع فيه الإدارة . استعجل الأمر ولم يضيع الوقت في التفاهات واقتحمها في إحدى المرات التي اختلى فيها بالفتاة في بيت أمها ، بكت البنت كثيرا، ثم أخبرت أمها ، التي جاءت إلى في المكتب ، وأخبرتني أن والدها وهو صعيدى المنبت ، لو عرف فستكون كارثة وأنه ربما قتلها . واجهت شعبان ، كان ينظر إلى الأرض ، لم ينكر ، قال إنها كانت غلطة يمكن أن يصلحها بالزواج ، ولكنه لايمتلك إلا ملابسه الرسمية ، وافقت المرأة. وبعدها بأسبوع أقاموا له فرحاً صغيراً، أقام شعبان معها في بيت والدتها دون أن يتكلف شيئاً . وخلاف ذلك كان شعبان مثالا للأمانة ، وكنت في أحيان كثيرة أنسى مبالغ مالية على المكتب وفي الأدراج وفي جيوب ملابسي ، وكان عندما ينظف المكتب ينقلها من مكانها ، وبعد التنظيف يعيدها إلى مكانها ، وفي اليوم التالي أجدها كما هي دون نقصان .

أخرجت ورقة أخرى لنجاتي ابن بورسعيد الذي يتاجر في كل شيء . كان نصابا عظيما ، نصب على موظفة وأخذ منها خمسين جنيها ليأتي لها بجاكيت من الجلد وارد تركيا في المنطقة الحرة ببورسعيد ، ثم ماطلها ، ولما هددته أحضر لها الجاكيت ، كان فعلا من الجلد ولكنه مستعمل منذ فترات طويلة ، حاول مع موظفة أخرى ، ولكنها تنبهت له وأخبرته أن ستعطيه النقود عندما ترى البضاعة .

ظل شعبان ونجاتي واقفين بعد أن وضعا الحقيبة والكرتونة على

الرصيف. طلبت منهما أن ينصرفا . ولكنهما أصرا على البقاء معى حتى وصول القطار .

الحر على الرصيف خانق . والشمس تلفح الناس بلا هوادة . استراحة كبار الزوار امتلأت بركاب الدرجة الأولى ، وتزاحم الركاب بين أعمدة المحطة الفرعونية الشكل .

جاء القطار فى موعده تماما ، تزاحم الركاب على باب عربة الدرجة الأولى، ومع أن ركابها من كبار الموظفين ورجال الدولة والأغنياء وأعضاء مجلس الشعب عن الصعيد ، إلا أن زحامهم وصياحهم لم يكن على مستوى الدرجة الأولى الممتازة التى سيركبون فيها .

كل منهم يحاول أن يصعد إلى العربة أولا . من بينهم مستشارون يرتدون الملابس الكاملة وخلفهم الحجاب يحملون لهم حقائبهم ويزيحون الناس من أمامهم كأنهم ذاهبون إلى قاعة المحكمة . موظفون كبار يركبون فى تؤدة ويحيطون أنفسهم بكبرياء مصطنع وكأنهم فى مكاتبهم ينتظرون من يدفعهم للركوب ، كبار السن من الركاب يصحبهم أبناؤهم الشباب يعينونهم على صعود القطار ويزاحمون الناس ، مع أن لكل راكب مقعداً محجوزاً برقم تذكرته ولن يجلس أحد مكان أحد لكنهم يتزاحمون ، سيدات رصينات يرتدين كل حليهن وفى أعينهن خوف أن يخونهن الكعب العالى عند الصعود للقطار ويسقطن .

عندما دخلت القطار فاجأتنى برودة التكييف ، شعرت برعشة تسرى فى جسدى . وعندما جلست شعرت أن كل ملابسى مبتلة بالعرق .

نجاتى أطول من شعبان . تناول نجاتى الكرتونة ووضعها على الرف أعلى الكرسى ، ثم تناول الحقيبة ووضعها بجوار الكرتونة . وقبل أن ينزل من القطار سلم على باكيا .

أخرجت الجرائد التى معي وقرأتها كلها . لم يكن فيها جديد سوى موجة جديدة من السباب فى كل شىء حاولت أن أنام فى القطار ، لم أتمكن ، الكراسي متقابلة ، تليفون محمول بنغمة عالية يرن فى جيب الرجل الذى يجلس في مقابلى . رد عليه شخص بصوت جهورى ، قال لمحدثه :

– وحشتينى ازيك يا بت ؟

– ....

– الجلسة بتتذا ع دلوقتى فى الفضائية .

– ....

– لا مكنتش نايم ولا وحاجة .

– ....

– الموضوع خلص والموافقة فى جيبى .

– ....

– لع فى الشنطة .

– ....

– كر . كر . كر .

– ....

– طيب لما أقابل الوزير تانى .

– ....

– والله ما كنت نايم . انتى ليه مش مصدقانى . هو الولد بتاع الكاميرا كده . المخرج يا ستى . لازم نشوفوا هو كمان ، عشان الواحد يطلع فى الصورة بطريقة حلوة . ولو مشفتوش . يطلع الواحد أى كلام . نائم . بيحك فى قفاه ، يهرش بين رجليه ، سرحان ، يتاوب ، وكده على طول .

اكتشفت أن كل الركاب مثلى ينصتون إلى الرجل الذى يتكلم بصوت

أجش ، كان مسليا . وعندما فرغ من التليفون بدأ الحديث مع جاره وقال :

– فى المجلس مش لازم تتكلم . المهم لازم تطلع بنتيجة وتقضى مصالح العباد ، الناس الغلابة اللى انتخبوك . لكن بتوع الكلام معروفين ، وفى أى مناسبة تلاقيهم يتكلموا ، هو الكلام عليه جمرك . كر . كر . كر . كر .

وضحك الرجل الذى يجلس بجوارى . وضحك الجالسين على المقعد المقابل لنا فى الناحية الأخرى .

وعندما مر عامل البوفيه أصر النائب الكريم أن يشرب كل منا « حاجة ساقعة ترطب الجو» .

★★★

عندما وصلت إلى البيت كان الأولاد فى انتظارى على العشاء . تعشينا . نزل ابنى الكبير تامر طالب الجامعة إلى أصدقائه فى الشارع ، سميحة طالبة الهندسة ذهبت لتجلس أمام التليفزيون ، أما خالد تلميذ الاعدادية فقد ذهب لينام .

بقيت أنا وزوجتى .

وسألتنى زوجتى عن سبب عودتى مبكرا فى منتصف الأسبوع ، فأخبرتها أننى أخذت أجازة لحين ظهور الحركة ، سألتنى عما إذا كنت متأكدا من إحالتى للمعاش . وأخبرتها أنه لا أحد يمكنه أن يتأكد من استمراره فى الخدمة إلا المقربين من القيادات .

أطرقت إلى الأرض وقالت بانكسار :

– طيب .

وذهبت لتغسل الأطباق وبعض الملابس التى جهزتها على شكل كومة كبيرة ووضعتها بجوار الغسالة .

وضعت الكرتونة أعلى الدولاب الكبير ، وفتحت حقيبة الملابس ، وأخرجت

منها ملابسى المدنية ، ناديت زوجتى وأعطيتها الملابس التى كانت فى الحقيبة لتغسلها ، قمصان وغيارات داخلية ومناديل ، وجلباب النوم الذى كنت أنام به فى الاستراحة ، علقت الملابس الرسمية البيضاء فى الدولاب ، امتلأ بالملابس الرسمية التى استخدمتها طوال خدمتى لونها كاكى أصفر وهى من النوع الذى يرتديه الضباط فى الأرياف والصعيد .

تأملت الملابس التى رافقتنى فى رحلة العمل الطويلة . التراب الناعم الكثيف تركز على أكتاف السترات الصوفية وغطى العلامات الزرقاء . أوشك بعض أزرارها على السقوط ، أهملته متعمدا ، العلامات العسكرية على كتفى أصبحت باهته ، أصابها الصدأ ، لم أفطن إلى تنظيفها وتلميعها . مع أننى كنت حريصا على تلميعها بالبراسو وتنظيفها بالفوطة كل أسبوع . فتشت جيوب الملابس قبل وضعها فى الدولاب ، وأخرجت منها بقايا الفكة من النقود ، وبعض الأوراق بها أرقام تليفونات وعناوين لبعض الزملاء .

الملابس الرسمية ستترك للذكرى فى الدولاب . وتصبح منذ الآن تاريخا يحكى .

★★★

جاءت زوجتى . وقفت معى وأنا أفرغ الحقيبة من محتوياتها ، شاهدت العلبة التى أحضرها لى الموظفون ، أمسكتها وقلبت فيها قبل أن تفتحها وقالت :

- شكلها ظريف .

نزعت عنها الشريط الذى يربطها ، ثم نزعت الأوراق الملونة التى تغطيها، ظهرت علبة صغيرة مغطاة بالقطيفة ومبطنه بالساتان الأبيض ، فتحتها ، وجدت فيها ثلاثة جنيهات من الذهب ، نظرت إلى الجنيهات الذهبية بلا اهتمام ، ثم تناولت العلبة ووضعتها فى علبة مجوهراتها .

★★★

جلست أمام التليفزيون أقلب فى القنوات العديدة التى يتيحها الطبق الجديد الذى اشتريناه منذ ثلاث سنوات ، لم أجد عندى الوقت للتعرف على محطاته . كان التليفزيون مفتوحا على إحدى القنوات اللبنانية ، ولم أجد فيها ما يشدنى للبقاء أمامه .

شعرت بالحزن والاكتئاب لمجرد أننى لم أجد ما يشغلنى أول ليلة ، فكيف أقضى بقية عمرى بعد إحالتى للمعاش ؟

وبينما أنا أفكر فى هذا الأمر وضعت يدى تحت صدغى ، ورحت فى نوم عميق أيقظنى منه تامر عندما عاد من الشارع وقال :

- بابا . بابا . نام فى السرير .

انتقلت للنوم من أمام التليفزيون إلى السرير ، لم أشعر بزوجتى عندما دخلت السرير فى الليل بعد أن أنهت الغسيل ، استيقظت قبل الفجر ، بعد أن رأيت أحد الزملاء يخبرنى أن الحركة ظهرت ، وأن وزير الداخلية بنفسه يسألنى عن المكان الذى أريد أن أعمل فيه بعد ترقيتى إلى رتبة اللواء ، وأخبرته أننى أريد أن أعمل مذيعا فى القناة اللبنانية التى كنت نائما وأنا أشاهدها أمام التليفزيون ، وعندما استيقظت سمعت آذان الفجر . وقلت : أستغفر الله العلى العظيم ، اللهم اجعله خير ، عدت للنوم من جديد .

★★★

فى الصباح لم أجد ما أفعله سوى الاستماع إلى برنامج يذيعه التليفزيون ، كنت قد سمعت عنه ولم أشاهده قط ، لم تتح ظروف العمل لى مشاهدته ، كان البرنامج ثقيلا ومملا . ورأيت مذيعة كبيرة السن جعلتها المساحيق الكثيرة على وجهها كالأراجوز . كانت تجلس بجوار مذيع أنيق فى مثل سنها تقريبا . لم يتمكن من إخفاء تجاعيد وجهه ، وخيل إلى أن وجهه مدهون بمادة تجعله لامعا ، كانا ينظران إلى بعضهما وكأنهما تعارفا

منذ لحظة واحدة . كان المذيع من آن لآخر يمد يده ليتحسس شاربه ، ربما ليتأكد من وجوده في مكانه .

في أثناء العمل لم يكن بمقدوري رؤية مثل هذا البرنامج . بعد ربع ساعة شعرت بالملل من المذيعة وحوارها السخيف مع زميلها عن الفقرة القادمة . كانت تتكلف الحوار ، تصورت أنها تنتظر من يلقنها ما تقوله ، وكان المذيع ينطق العين غينا ، ولا يجيد نطق حرب السين ، ويكرر كلمات عن الجو الديموقراطي والرخاء بدون مناسبة .

كانت الحلقة تستضيف كاتبا صحفيا عجوزا ، وجهه ملىء بالتجاعيد ، كان رئيسا لتحرير إحدى الصحف . يقال إنه قريب لأحد الوزراء ، كان يتحدث عن مضار التدخين . يبدو أنه ضيف ثقيل وغير مرغوب فيه ، لأن المذيع كان من آن لآخر يرمقه بغيظ شديد وهو يتحسس شاربه . ويتبادل مع المذيعة نظرات الاستهزاء بالرجل ، كان الرجل متمنكا في شرح أعراض مرض سرطان الرئة ، مع أنه لم يكن طبيبا ، ثم انتقل إلى الحديث عن دول البلقان والفوائد التي تعود على مصر من الانفتاح عليها ، وتشعب الحديث حتى وصل إلى مارتن لوثر كنج ونلسون مانديلا ومونيكا وكلينتون وقال إن الشعب الأمريكي غضب من رئيسه عندما كذب فقط .

الصحفيون عندنا يتكلمون في كل شيء .

بعد ذلك انتقلت إلى محطة أخرى لدولة عربية . كانت الكاميرا في المطار، ورأينا كبار المسئولين يتأهبون لاستقبال رئيسة وزراء إحدى الدول، كانت رئيسة الوزراء طويلة وبيضاء وقوامها ممشوق ، وأشفقت على الوزراء الذين يعملون معها من رئيستهم الشابة البطة الجميلة. كانت في غاية الرقة، كان رئيس الحكومة الذي ينتظرها طاعنا في السن ، ونحيفاً ، وقارنته على الفور برئيس وزراء بريطانيا الذي يحكم بريطانيا وزوجته الجميلة التي نقلت

لنا الصحف أنها وضعت طفلا صغيرا . كان سن أصغر الوزراء المحيطين برئيس الحكومة لايقل عن السبعين . أغلقت المحطة وعدت إلى الفضائية المصرية .

انطلقت الموسيقى المميزة للبرنامج الزراعى ثم جاء مذيع يتحدث عن إنتاج الأرانب العملاقة كثيرة التوالد ، استغربت أن يأتى برنامج يتحدث عن الأرانب وطرق تربيتها بصورة رئيس الجمهورية في مقدمته . وعندما وصل المذيع إلى نهاية فقرته قال :

وبتوجيهات من الرئيس ، فقد استوردت وزارة الزراعة أحدث السلالات التى تنتج اللحوم لتساعد على تدعيم الأمن الغذائى وتوفير اللحوم الطازجة.

★★★

جهزت زوجتى طعام الإفطار ، تعودت عندما أكون فى إجازة أن تجهز البيض الغارق فى السمن البلدى وبجواره الجبن القديم وقطع اللفت والخيار المخلل والجرجير الأخضر وشرائح الطماطم . تناولت الإفطار مع زوجتى بدون شهية ، وبعدها قامت ورفعت الأطباق وأعدت الشاى وجلست معى .

لاحظت أنها لم تستعد للذهاب إلى عملها كالمعتاد ، وعندما سألتها أخبرتنى أنه لاتريد أن تتركنى فى البيت .

ضحكت وطلبت منها أن تذهب إلى عملها .

قامت لترتدى ملابس الخروج ، وخرجت .

★★★

كان الأولاد نائمين ، شعرت برغبتى فى قراءة الجرائد التى تعودت أن أجدها كل يوم على مكتبى . كان بائع الجرائد الذى أمر عليه فى طريقى إلى عملى فى القاهرة يرسل لى يوميا كل الجرائد والمجلات لقراءتها وإعادتها قبل أن ينتهى اليوم نظير مبلغ معلوم كنت أدفعه له .

من الآن ، على أن أحضر الجرائد بنفسى . بائعة الجرائد فى بلدتنا مكانها بعيد ، مكانها عند محطة القطار والأتوبيس . يجب أن أمشى كل يوم مسافة كيلومتر فى الصباح الباكر .

دخلت مكتبتى القديمة التى أهملتها ، لم أجد لدى الرغبة فى النظر إلى كتبها التى علاها التراب .

أخرجت المجلات والأجندات التى أحضرتها معى من الكرتونة ، وضعتها على رف فارغ فى المكتبة . تناولت إحدى المجلات ، يعود تاريخها إلى ١٩٩١، وقرأت :

أهالى الكويت يعيشون أحلى أفراحهم بعد أن تنفسوا نسيم الحرية .

– رجال الصاعقة المصريون يؤمنون مجموعة اقتحام السفارة المصرية فى الكويت تمهيدا لرفع العلم وعودة السيادة إليها .

– قوات المقاومة الكويتية تفتش عن الطابور الخامس قبل تطهير المدينة من بقايا الجنود العراقيين .

★★★

النقود مع زوجتى . نسيت أن أخبرها أن تترك لى ثمن الجرائد ، وهى نسيت أيضا ، تذكرت النقود التى وجدتها فى ملابسى . بضعة جنيهات ، تكفى لشراء الأهرام والأخبار وإحدى المجلات الأسبوعية التى تعودت على قراءتها .

قررت الخروج .

كنت أرتدى جلبابا للنوم لايصلح للخروج ، ذهبت إلى دولاب الملابس ، أخرجت قميص نصف كم كاروهات . وجدته يحتاج إلى كى ، جهزت مائدة المكواة ، وبدأت أكوى القميص ، اكتشفت أن عملية كى الملابس سهلة وبسيطة .

بعد أن كويت القميص لبسته ، اكتشفت أنه من غير اللائق أن يرانى

الناس بهذا الزى الذى يرتديه الشباب ، لو كنت فى القاهرة لكان الأمر عاديا، أما هنا فالناس تعرفنى ، ولا يليق أن يرونى بهذا الزى البسيط ، وفكرت فى ارتداء بدلة كاملة ، ولكننى تراجعت وقلت لنفسى :

– بدلة كاملة لأجل أن تخرج لشراء الجرائد .

خرجت بالقميص النصف كم . وشعرت أننى أسير عاريا فى الشارع .

★★★

فى الشارع رأيت أشخاصاً أعرفهم منذ زمن بعيد ، أراهم للمرة الأولى، وكانوا يصافحوننى ، ويسلمون على . كلهم من أقاربى . تراب الشارع كثيف . كان الشارع مرصوفا، ولكنهم أعادوا الحفر فيه لتركيب مواسير الصرف الصحى . بعد أن خرجت إلى الشارع العمومى وجدت الشارع محفورا كله ، وبقايا الحفر ألقيت على جانبيه ، وفى الوسط خندق عميق امتلأ بالمياه الجوفية ، كانت عملية السير صعبة ، وتتطلب مهارت خاصة لحفظ التوازن . الغريب أننى لم ألاحظ كل هذا فى المرات الماضية . فى الليلة السابقة عندما نزلت من القطار ركبت عربة «حنطور» سلك سائقها طريقا آخر غير هذا الطريق .

رأيت سيدات ورجال يمشون مثلى فوق مخلفات الحفر على جانبى الشارع ، وكانوا يجاهدون لحفظ توازنهم ، وبينما أنا أنظر أمامى لأعرف موضع قدمى فوجئت بمن يصافحنى . كان قريبى وزميل الدراسة القديم فتح الباب . لم تمنعه وعورة الشارع والمطبات الهائلة وأكوام التراب من معانقتى طويلا ، وبعد أن فرغنا قال لى معاتبا :

– معقول تغيب كل المدة دى ؟

كدت أن أخبره أننى خرجت للمعاش ومن الآن فصاعدا يمكننا أن نتقابل يوميا . ولكننى عدلت . فلم يكن من اللائق أن أخبر أول من يصادفنى بأننى أصبحت فى المعاش . كان فتح الباب لايزال ممسكا بيدى ، وهو الأمر الذى

عطل آخرين خلفنا يريدون المرور فى الشارع ، ولايجدون مكانا سوى المكان الذى وقفنا فيه .

تواعدنا على اللقاء في موعد آخر ، واستأنفت سيرى فى الشارع الذى لايريد أن ينتهى .

اشتريت الأهرام والأخبار ومجلة روز اليوسف .

عدت إلى المنزل ومع ذلك فالساعة لاتزال عند العاشرة . أمسكت أول جريدة وقرأت :

- « أعتذر الرئيس العراقى صدام حسين مساء السبت الماضى للكويتيين عن أى أذى لحق بهم من جراء غزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ . وهذه هى المرة الأولى التى يعتذر فيها الرئيس صدام عن تلك الأحداث التى أدت إلى إخراج الجيش العراقى من الكويت بعد احتلال دام ٧ أشهر . ومع ذلك هاجم صدام حسين المسئولين فى الكويت بشدة فى خطاب ألقاه بالنيابة عنه وزير الإعلام العراقى محمد سعيد الصحاف» .

لم أجد فى الجريدة ما يجعلنى أستمر فى القراءة . أجلت القراءة فى كل الجرائد ، وتمددت على السرير .

قبيل الساعة الثانية جاءت زوجتى . كنت نائما ، شعرت بها وهى تستبدل ملابسها . سألتنى عن سبب نومى . أخبرتها بأننى لم أجد ما أفعله فنمت . لم تعجبها إجابتى . وكانت ساهمة ، وسألتنى :

- تأكل إيه ؟

لم يكن من المعتاد أن تسألنى زوجتى عما آكله . فقد تعودت على أكل كل ما تصنعه وأجده أمامى . والحقيقة كان ذوقها فى تلك الناحية راقيا . جلست بجوارى على السرير ، وسألتنى ما إذا كنت قد خرجت من البيت . أخبرتها أننى خرجت لشراء الجرائد . قالت وهى تشيح بوجهها بعيدا عنى :

- أنت متأكد إنك هتخرج معاش ؟

لم أشأ أن أزعجها ، وأخبرتها أننى غير متأكد .

بعد أن جهزت الطعام والتففنا حول المائدة وأكلنا ، رن التليفون . كان المتحدث أحد زملائى فى العمل . سلم على . وسألنى عن صحتى وصحة الأولاد. كان سؤاله باردا . وعندما أحس أنه استنفد ما يقوله ، تشجع وقال:

– مبروك . أنت رقيت إلى رتبة اللواء ، وسكت مرة ثانية وكأنه يتأهب لشىء لايريد الإفصاح عنه .

أكملت له :

– مع الإحالة للمعاش .

قال :

– بس أوعى تكون زعلان ؟

وقال إننى ينبغى أن أحمد الله أن خرجت منها سالما وصحتى جيده . وأن الوزارة ليس لها فى الطيب نصيب، ودعا لى بالصحة والستر وطول العمر ، ثم وضع السماعة .

كانت زوجتى والأولاد يسمعون المكالمة .

عندما عدت إليهم وجدت زوجتى واجمة وكذلك الأولاد . حاولت أن أخفف عنهم بكلمات لامعنى لها . لا أستطيع الكلام فى مناسبة تخصنى . كانت ابنتى سميحة تصنع لنا الشاى . عندما عادت تحمل صينية الشاى وعليها الأكواب قالت :

– بابا ، مش رايح الشغل تانى ؟

– أيوه .

– هتقعد معانا على طول ؟

– أيوه .

– كده أحسن يا بابا .

سميحة تلقائية فى عواطفها .

قضينا بقية اليوم كل فى شئونه . الأولاد يشاهدون القنوات اللبنانية ، حيث توجد مذيعة تتكلم بتلقائية ولهجة محببة لهم وتتبادل الحوار مع المشاهدين الذين يطلبونها ويتحدثون معها ، وابنتى سميحة كانت تجلس أمام الكمبيوتر . وزوجتى أنهكها عملها اليومى والمطبخ والغسيل فنامت .

لم أكن معتادا على النوم فى النهار .

★★★

عندما جاء الليل حاولت النوم ، وخيل إلى أن الفراش يطردنى ، وبالفعل خرجت إلى الصالة وجلست فيها وقرأت مجلة روز اليوسف كلها ، وكانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل .

ذهبت إلى الفراش.

حاولت أنا أنام ولكننى لم أتمكن .

قمت بتشغيل الراديو على محطة لندن . وكانت تذيع لقاء مسجلا مع الشاعر الراحل نزار قبانى . وسأله المذيع عن قصائده السياسية التى أتت عليه بالمتاعب . فقال إن كل قصائدى جلبت على المتاعب ، ووجدت أن النوم محال والاستماع إلى نزار قبانى محال أيضا . وأحسست بالضيق الشديد. وخيل إلى أننى سأجن إذا لم أتمكن من النوم . أعرف أن الأرق يسبب الجنون .

استعذت بالله وقرأت الإخلاص والفلق والناس سبع مرات .

أحسست بأن جفونى بدأت تتثاقل وأننى أستمع مع زملائى الضباط إلى نتيجة الترقية ، كان الوزير يذيعها بنفسه مستخدما ميكروفون مثل نتيجة الثانوية العامة . خيل إلى إننى لم أستمع جيدا إلى اسمى فأزحت الناس حتى وصلت إلى الوزير وسألته عن اسمى فقال : عندك ملحق .

(٢)

بعد ثلاثة أسابيع من ظهور الحركة وإحالتى للمعاش اتصل بى أحد الزملاء ، سألنى عن مستحقاتى المالية ، وأخبرته أننى لم أصرفها حتى الآن، وأخبرنى أن بعض الزملاء استلموها منذ أسبوعين . وقال لى أننى يجب أن أحضر للقاهرة لاستلامها .

كنت أعتقد أنهم سيتصلون بى ، ويطلبون منى بأدب تحديد الطريقة التى سأستلم بها معاشى الشهرى ، وباقى المستحقات المالية . ولكن أحدا لم يتصل بى . فقررت الذهاب إلى القاهرة للسؤال عنها .

★★★

وصلت القاهرة فى الصباح الباكر ، كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا ، وكنت قد ركبت القطار فى الثانية فجرا . صحيح أن القطار مكيف ومريح ولكنه ممل ، ويتوقف فى كل المحطات ، وفى كل محطة يتزاحم الناس، ويحدثون جلبة وصياحاً ، يوقظون الركاب النائمين ليسألوهم عن رقم العربة ، ويتبين بعدها أنهم حجزوا فى عربة أخرى ، وخيل إلى أننى نمت لمدة ربع ساعة فقط ، ولكننى تذكرت أننى عندما ركبت القطار كانت الساعة حوالى الثانية وآخر مرة نظرت فى الساعة كانت فى الثالثة والنصف صباحا . وبعدها لم أشعر إلا وأنا فى محطة الجيزة .

★★★

ركبت تاكسى من ميدان محطة الجيزة إلى ميدان التحرير . السائق عجوز ربما تجاوز السبعين وعيناه حادتان ، وفى وجهه أخاديد عميقة صنعها منذ القدم مشرط حاد فى الصدغين. كما رأيت ندبة غائرة فى صدغه الأيمن الذى يظهر ناحيتى وهو عبارة عن خط مستقيم بطول الوجه .

عندما اقتربنا من الشارع الموازى لحديقة الحيوان ، توقفت السيارة فى إشارة ، شاهدت رجل يقفز على قدم واحدة وتحت إبطه عكاز ، وفى يده الخالية فوطة يمسح بها الزجاج الأمامى للسيارات الملاكى فقط ، لم يكن الرجل يقترب من التاكسيات ولا عربات الشرطة .

وعندما فتحت الإشارة وانطلقنا رأيت بجوار تمثال نهضة مصر شابين نائمين ومتعانقين والشمس تلفحهما وهما شبه عاريين ومستغرقان فى النوم، لاشك أنهما من الصيع والمتشردين . كان وضعهما مخجلا ، السائق العجوز هو الذى لفت نظرى إلى وضعهما بخبث عندما قال :

– شايف المنظر عند التمثال .

كانت المرة الأولى التى يتكلم فيها السائق . وبعدها فكت عقدة لسانه وانطلق يتكلم عن قطع الغيار التى أصبحت غالية ، وقضية تعويم الجنيه ، ثم سب سائق كادت سيارته إن تحتك بسيارته ، وبعد أن فرغ من السباب قال إن مترو الأنفاق لم يحل مشكلة المرور التى تزداد تعقيدا يوما بعد يوم ، وقال إن الحل فى منع سيارات الملاكى والأتوبيسات التى تحمل الأرقام الزوجية من السير فى الشوارع فى يوم ، والفردية فى اليوم الثانى . سألنى عن حالة الناس فى الصعيد ، وأخبرته أنهم بخير

عبرنا كوبرى صغير وصرنا فى بداية شارع ورأيت مبنى لونه أحمر ، لمحنى السائق وأنا أنظر إليه ، وقال السائق وهو يعتبرنى صعيدى قادم للفسحة فى القاهرة .

– ده القصر الفرنساوى بتاع الأمراض الوحشة بعيد عنك .

ثم اخترق شارع القصر العينى بزحامه الشديد وحركة السيارات البطيئة ، وظل يسير ببطىء حتى وصلنا إلى إشارة مجلس الشعب ، وعندها توقفت حركة السيارات تماما ، قال السائق :

- ميدان التحرير قدام ، تنزل هنا ، تمشى خطوتين . شايف العمارة الصفرا الكبيرة اللى فى الوش . هى دى ميدان التحرير .

لم تكن لى رغبة فى النزول والسير على أقدامى وسط السيارات ، كنت أريد أن أنزل فى الميدان ، ولكن السائق العجوز يريد أن يتخلص منى ليلتقط راكباً آخر .

أعطيته خمسة جنيهات ، تناولها منى وقلبها بين أصابعه وقال :

- إيه دى يا با ؟

- الأجرة .

أعاد النقود إلى يدى بعنق وقال :

- عشرة جنيه . دى ساعة اصطباحه ، وبنقول يا صبح ، مشوار من محطة الجيزة لميدان التحرير بخمسة جنيه ؟

نظرت إليه فوجدته رجلا طاعناً فى السن ، ولكنه سليط اللسان ، لا أضمن عواقب التصرف مع مثل هذا العجوز قليل الأدب ، أضفت إليها جنيها آخر ، وأصبح المبلغ ستة جنيهات ، ناولتها له ، رفضها أيضا ، نظرت إليه وأخبرته أنه ما لم يأخذ هذا المبلغ فسأستدعى له أمين شرطة أو ضابط من الواقفين بالقرب منا . بالفعل رأيت ضابطاً يتكىء على موتوسيكل وحوله ثلاثة من أمناء الشرطة وعندما رأى الحزم والجدية فى كلامى تناول النقود وقال:

- معلهش أنا أستاهل ، أصل أنا ابن كلب اللى وصلتك .

★★★

كان على أن انتظر من الساعة الثامنة والنصف حتى العاشرة ، وهو الموعد المحدد لبدء العمل فى المكاتب الحكومية ، الانتظار يصيبنى بالاكتئاب، صحيح أن العمل يبدأ فى التاسعة . لو ذهبت فى التاسعة

سيتهامسون على . من الأفضل أن أذهب فى العاشرة . شعرت بحاجتى إلى تناول الإفطار .

بدا لى ميدان باب اللوق هادئا ونظيفا . كانت ألوان المبانى الميدان كلها شهباء أو تميل إلى اللون الأصفر ، اللون الموحد الذى طليت به كل العمارات المطلة على الميدان رائعا ، وهو ما أكسبه رونقا فريدا يتفرد به على كافة ميادين القاهرة التى هيمن عليها القبح والفجاجة ورداءة الذوق . كان طراز عماراته العريق المنخفض نوعا ما وانعدام الضوضاء هو ما جعلنى أميل إلى التجول فيه فى ساعات الصباح الأولى .

خلال عملى فى القاهرة كنت أقطع هذا الميدان مرتين يوميا راكبا سيارة شرطة ، كان الميدان وقتها له طعم آخر ، كان بالنسبة لى وقتها فسحة ونزهة . الميدان لا تسير فيه السيارة بسرعتها العادية ، بل يتعين أن تسير فيه بسرعة بطيئة نسبيا ، بسبب توقف المرور فيه بسبب الزحام ، وكان يتعين على أن انتظر بفارغ الصبر لحظة الانفراج كى أسرع بالسيارة إلى الاستراحة عائدا من العمل أو ذاهبا إليه .

كنت وقتها مشغولا بعملى وروتينه اليومى القاسى الذى لم يترك لى أى فرصة لتأمل القاهرة والتسكع فى ميادينها ، لقد ضاعت منى فرصة تأمل القاهرة ليلا بميادينها الممتلئة دائما بالبشر الهائمين ، وكأنهم ذاهبون إلى اللقاء الأخير ، تراهم يلهثون ويتزاحمون ويتجادلون ، ويراقبون كل شى فى صمت ، عيونهم شرهة للأكل والنساء ، عبأتهم المدينة بهذا الشبق الخفى الذى ظل يتراكم وينمو داخلهم طبقة فوق طبقة . وتحول مع الزمن إلى حنين غامض للتجوال فى الميادين والشوارع المكتظة بالباعة والذباب والنساء .

لم أجد لدى الوقت كى أتامل رونق الميدان المترامى الأطراف ، لقد أفسدته الاصلاحات التى أجريت فيه ، والسيارات التى تفح فيه الدخان من

مؤخراتها ، كان الميدان يشكل مدخلا لوزارة الداخلية ومخرجا منها في آن واحد ، فقد كنت وأنا في سيارة الشرطة وفي طريقي إلى الوزارة أشعر وكأنني في بؤرة السلطة ، للسيارة هيبتها واحترامها ووقارها الذي تفرضه علاماتها المميزة بألوانها الثلاثة الأزرق والأبيض والبرتقالي .

تشعر أن الشوارع كلها ملك خاص لسيارة الشرطة فقط ، تفتح أمامها الإشارات ، وتفسح لها الطرق ، وبإمكانك أن تركن السيارة أينما حللت ، لاشيء اسمه الممنوع ، وفضلا عن ذلك يحييك رجل المرور بنظرة منكسرة حانية ، وينظر إليه الضباط الواقفون في الشارع وفي أيديهم دفاتر المخالفات باجلال واحترام ، ويتحاشاك قائدو التاكسيات واللوري والأتوبيسات ، وتبتسم لك السيدات الرصينات الجميلات من داخل زجاج سياراتهن الفارهة ، ربما حملت ابتسامة واحدة منهن دعوة صريحة ، ولكنها بعيدة المنال لاتملك تنفيذها ، ولكنك مع ذلك تنعم بابتسامة تشغلك طوال الليل في ليل الاستراحة الموحش الكئيب ، وتتقلب في فراشك على حلم مع صاحبة الابتسامة لم يتحقق ولكنه يرهقك حتى الصباح .

أما لو كان قائد سيارة الشرطة أرعن لم يتقن القيادة وضرب بمقدمة سيارته الثقيلة مؤخرة سيارة أخرى أمامه ، ينظر إليك قائد السيارة المفعول بها ولسان حاله يقول لك :

– آسف يا باشا . الحمد لله اللي جات على كده ، ألف سلامة ، ولا تشغل نفسك .

وعندما أنظر إلى مؤخرة سيارته أجد سائقي الأرعن قد هشم تماما فانوسي الاشارة الخلفيين للسيارة ، ولكن قائدها العاقل المتفهم لحقيقة الأمر يحمد الله كثيرا على كسر الفانوسين فقط . ويشعر أنه نجا من كارثة محققة عندما لم تتداخل مؤخرة سيارته في مقدمة سيارتنا ولم يحضر ونش

المرور لسحبها وإيداعها مقبرة السيارات ، كما يحمد الله حقيقة على نجاته من سائقى الأهوج طويل اللسان . لقد تحول الميدان إلى سوق لخضراوات المدينة ولحومها المستوردة برائحتها النتنة ، وأصبح قلب الميدان مخزنا كبيرا لسيارات الطبقة الموسرة التى غطت الميدان ، بعد أن كان مرتعا لباعة الحشيش ونسوة الليل المتصابيات .

عن يسار الميدان تتجلى عظمة الحكم السابق متمثلة فى قصر عابدين بأشجاره الجميلة وخمائله التى زادتها الأيام جمالا ، وأضفى لونه الأبيض ومساحته الشاسعة على الميدان طابعا رومانسيا يليق بعشاق القاهرة المحرومين من لحظة وصال .

عبر هذا الميدان أحمد عرابى وخلفه آلاف من الفرسان حاملى البنادق والسيوف ، قبل أن يقتحم قصر عابدين شاهرا سيفه فى وجه الخديو ، وقد تحدى سلطة الخديو علنا ، نافيا عن أمته صفة العبودية التى لازمتها طويلا.

نفس القصر بحوائطه البيضاء التى كتب عليها الشيوعيون خلسة عبارات فيها أقذع الألفاظ توجه أبشع التهم للملك وأمه وشقيقاته ، كانت الحوائط تمتلىء بالكتابات النابية ليلا ، ثم يزيلها حراس الملك وضباطه فى الصباح بعد أن يحيطوه علما بمضمونها ، ومع ذلك فلم يفقد الملك صوابه ، ولم يطالب بفرض قانون الطوارىء ، كما لم تعاقب الحكومة من لطخوا حوائط قصر الملك بالشعارات الاشتراكية والشيوعية .

الميدان فيه مطاعم راقية ، تقدم لروادها الفول النظيف والطعمية وفطائر الجبن والسكر والبيتزا بكل أنواعها . وأحسست أننى لا أستسيغ طعم الفول. وتصيبنى الطعمية بالغازات التى ترهقنى طوال اليوم . وفكرت فى البيتزا .

دخلت محلا يعد البيتزا فى الفرن . كان العامل يمسك قطعة العجين المفرودة بين يديه ويلقيها على الرخامة النظيفة عدة مرات حتى تصبح رقيقة وتظل متماسكة ، أعجبتنى طريقته ، طلبتها بالجبن . وجلست أقرأ جريدة الصباح ، وأحسست أننى لن أركز فى القراءة . وفضلت الإطلاع على الأخبار الخفيفة :

– حبوب منع الحمل للرجال أيضا .

– بدأت أمريكية ٧٠ عاما فى رفع سلسلة من الدعاوى القضائية ضد أحد المطاعم فى كاليفورنيا بعد أن فوجئت خلال تناولها طبق حساء بالمحار بوجود شيء يشبه المطاط وعندما أمسكته تبين لها أنه واق ذكرى . طالبت الأمريكية بتعويضات مالية ضخمة لأنها تعرضت لمتاعب نفسية وادعت أنها فقدت شهيتها للطعام كما فقدت أيضا رغبتها فى ممارسة الجنس .

– لم تنتظر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طويلا حين سمعت أن الرئيس العراقى صدام حسين قد كتب رواية بعنوان «زبيبة والملك» ، فسارعت إلى شرائها من إحدى مكتبات لندن ، وعكفت على قراءتها وتحليلها ، ثم نشرت تقريرا ملخصا عما توصلت إليه فى شأن الرواية وأسلوبها وشخصياتها ورموزها والأفكار الواردة فيها وشخصية مؤلفها ونوازعه وهواجسه الداخلية . وبحسب التقرير فإن صدام سحين ليس المؤلف الحقيقى للرواية ، على رغم أنه حاضر فيها بقوة . وترجح وكالة المخابرات المركزية أن «الكاتب الخفى» لابد أن يكون أحد كبار كتاب الرواية فى الوطن العربى .

★★★

جاءت البيتزا ، ساخنة ومقسمة إلى مربعات ليسهل على التقاطها . غرست الشوكة فيها ورفعتها إلى فمي . كانت ملتهبة . انتظرت حتى بردت قليلا ، واستأنفت الأكل ، لم تكن لذيذة كما أردتها ، وشعرت أننى أخطأت وكان ينبغى أن أطلب فطيرة بالسكر أو المربى ، أميل إلى الأشياء ذات الطعم الحلو فى الصباح .

دفعت الحساب .

صادفتنى مشكلة الفكة . لم تكن لدى الفتاة الجالسة على ماكينة الحساب خمسة وثلاثين قرشا ، تركتها مرغما كى لا أقف طويلا فى انتظار أن يأتيها زبون معه خمسة وثلاثين قرشا فكه لتعطيها لى .

★★★

ذهبت إلى مقهى نظيف فى نفس الميدان ، طلبت كوب شاى ، ورأيت الجالسين يشربون الشيشة وينفثون الدخان الكثيف من أفواههم ، بعضهم يرتدى الملابس الكاملة ويبدو عليهم الوقار ، خطر لى أن أجربها ، طلبت شيشة .

جاءتنى نظيفة باردة والجمرات التى عليها لونها أحمر وزاهية تكللها هالة من الرماد الأبيض الخفيف ، سحبت أول نفس ، شعرت أن رأسى تلف ، وخيل إلى أننى سأسقط على الأرض ، تماسكت نفسى ، أخرجت الدخان المحبوس ، رشفت من كوب الشاى ، وبدأت الحالة التى انتابتنى تتلاشى ، وبدأت أرشف من الشاى ، وأسحب من الشيشة ، وخيل لى أن كل رواد المقهى يراقبوننى ، ولكننى كنت واهما فقد كان لكل منهم عالمه الخاص يذوب فيه ، ودفن بعضهم وجهه فى الجريدة يطالعها بإمعان . والآخر تفرغ لمراقبة السيدات المارات أمام المقهى .

لم أجد ما يغرينى على الاستمرار فى السحب منها ، فقد خيل إلى أنها ثقيلة ، تركتها ، جاء العامل ليستبدل الحجر ، اكتفيت بحجر واحد . دفعت الحساب ، ونهضت واقفا وأشرت إلى أول تاكسى فارغ صادفنى ، وطلبت منه الذهاب إلى شارع جامعة الدول العربية .

★★★

سألت عن إدارة العلاقات الإنسانية ، أشار عسكرى يمسك فى يده جهاز لاسلكى إلى سلم مرتفع ، توجهت إليه وجدت ثلاثة جالسين على يمين الداخل استوقفنى أحدهم بطريقة سوقية وقال :

- على فين يا أخ ؟

لم أرد عليه ، لأننى لم أتوقع أنه يقصدنى أنا من بين عشرات الداخلين ، كما أنه كان ينظر إلى الناحية البعيدة عنى ، ثم نهض واقفا ، واعترضنى.

تدخل أحد الذين التفوا حولى وقال :

- حضرتك رايح فين ؟

- العلاقات الإنسانية .

- ليه ؟

- لأنى خرجت على المعاش .

قال بسرعة :

- أتفضل يا باشا ، احنا آسفين . طيب مش حضرتك تقول من الأول .

وجدت الناس يتجهون إلى «الأسانسير» توجهت مثلهم ، سار خلفى الرجل الذى حاول تفتيشى ، وعندما وصلت إلى الأسانسير ، وجدت طابورا طويلا ، وقفت بعيدا . كان الطابور يتكون من عساكر المراسلات والموظفين .

الموظفات وقفن بعيدا ، وعندما وصل الأسانسير اندفعوا داخله ، وقال الرجل :

- فيه أسانسير للسادة الضباط .

وبالفعل وصل أسانسير الضباط ودخلت فيه . نظر إلى عامل الأسانسير وقال :

- الأسانسير التانى . ده بتاع ضباط الإدارة .

لم ألتفت إليه ، وبقيت مكانى ، وكأننى لم أسمع ، دخل ضابط يرتدى الملابس الرسمية البيضاء برتبة المقدم ، وتبعه أربعة يرتدون الملابس المدنية الأنيقة ولاحظت أنهم ينظرون إلى الأرض ، حياهم عامل الأسانسير باحترام ووجه كلامه إلى واحد منهم وكان أكبرهم سنا :

- معلهش يا باشا . أصله دايما زحمة .

ولم يرد عليه الضابط، وسرعان ما تحرك الأسانسير ، وأخرج الضابط الذى يرتدى الملابس الرسمية من جيبه مشطا ، وشرع فى تسريح شعره، سألت عامل الأسانسير عن العلاقات الإنسانية ، قال متجهما :

- السابع .

وصلنا إلى السابع ، كان الضابط الذى سرح شعره قد أصبح أمام الباب ، مع أنه كان يقفُ فى الجانب البعيد ، خرج بمجرد فتح الباب ، ورأيت لافتة كبيرة مكتوب عليها إدارة العلاقات الإنسانية ، وعندما حاولت الدخول اعترضنى صول يرتدى الملابس الرسمية البيضاء وقال :

- نعم يا باشا ؟

- لواء معاش .

- أتفضل على أيدك الشمال .

اتجهت يسارا ، وجدت نفسى فى مكتب يجلس عليه ضابط برتبة عقيد ، رحب بى دون أن يعرفنى ، ونهض واقفا ، وأشار بأدب إلى كرسى فارغ وقال :

- أتفضل أستريح .

ونادى أحد الموظفين ، وقال له :

- شوف بيانات الباشا .

سألنى الموظف عن الاسم والرتبة التى خرجت بها على المعاش وانصرف، سألنى أحد المجندين :

- حضرتك تشرب إيه ؟

طلبت شاى ، ورأيت الضابط يحدق فى وقال :

- مش حضرتك .. ؟

ابتسمت وقلت :

- فعلا ، أنا ..

خرج الرجل بعيدا عن مكتبه ، وعانقنى وقال :

- من زمان كان نفسى أشوفك ، حضرتك مش فاكرنى .

الواقع أن ملامحه ليست غريبة عنى ، عاد من جديد يعرفنى بنفسه :

- أنا ممدوح .. خدمت معاك فى الصعيد ، حضرتك كنت رائد وأنا ملازم .

لم أتذكره ، ولم يكن من اللائق أن أستمر فى جهلى بالرجل الذى يرحب بى ، وجدت نفسى أعانقه من جديد قائلا :

- أهلا ممدوح بيه ، أنت أتغيرت كنت رفيع ، جسمك وسع شوية .

- إزيك يا باشا .

ثم عاد إلى مكتبه وبدأ يسألنى عن بعض الزملاء ، بعضهم تذكرته والآخر نسيته تماما ، ولكننى مع ذلك أجبت عليه بطريقة ترضيه تماما وتشعره بأنه أدى الواجب معى وزيادة .

والتفت إلى شخص كان يجلس بالقرب منه عندما دخلت ، وعرفه بى ، صافحنى وعرفنى بنفسه ، وعرفت أنه خرج على المعاش ، ولكنه خدم فى رتبة اللواء خمس سنوات .

ودخل فى تلك اللحظة لواء أعرفه، ويرتدى قميصاً مشجراًبكم، بمجرد أن شاهدنى عانقنى وقال:

- وأنت كمان؟ دى مذبحة.

ثم نظر إلى اللواء الجالس، يبدو أنه كان يعرفه، صافحه مترددا، ولكن اللواء الأول جذبه نحوه وعانقه، ربما عملا معا من قبل، ومن الواضح أن علاقتهما لم تكن أثناء العمل على ما يرام، لأن اللواء الذى أعرفه والذى وصل أخيرا كان متحفظاً، مع أنها مناسبة ينسى كل منا فيها خلافات العمل باعتبار أنها..

«خلاص انتهت»

جلس اللواء الذى أعرفه واسمه عبد الحميد. قام الضابط صاحب المكتب وكرر معه ما فعله معى، واستدعى أحد الموظفين الذى جاء على الفور، وأخذ منه البيانات، وبعد أن فرغت التفت عبد الحميد ناحيتى وقال:

- شفت عملوا فيا إيه؟

قلت :

- خلاص يا عبد الحميد باشا انتهت.

قال:

- لأ مش خلاص، دول رقوا واحد دفعتى أخذ لفت نظر، وأنا خدمتى كلها مافيهاش جزاء واحد !

تدخل الضابط الذى كان جالساً من الأول وقال:

- كويس اللى طلعت بصحتك.

جاء الموظف وناول اللواء ظرفاً فيه شيكات وبدأ يبينها له.

التفت إلى عبد الحميد وقال:

– لا، لازم كل واحد يأخذ حقه، أنا لازم أرفع دعوى في القضاء الإدارى.

جاء موظف في يده ظرف مكتوب عليه أسمي وأخبرني أن مستحقاتي المالية عبارة عن شيك بمبلغ (...) قيمة منحة الثلاثة شهور، وشيك بمبلغ (....) مكافأة الوزارة. كانت الشيكات كلها في مظروف واحد، وطلب مني الموظف التوقيع في دفتر كان يحمله، وقعت له، وناولني المظروف بعد أن أخرج الشيكات وفردها أمام عيني ثم وضعها مرة ثانية في المظروف.

وقال الموظف أنه بخصوص المعاش المطلوب موافقة أحد البنوك القريبة من محل الإقامة على تحويل المعاش إليه. لم أكن قد أحضرت تلك الموافقة، شكرت الموظف ونهضت واقفا، ونهض الضابط الذى تعرف علي وصافحني، شكرته، تركت عبد الحميد وخرجت.

عندما أصبحت في الشارع أشرت لتاكسي، توقف. أوصلني إلى ميدان التحرير شعرت بالجوع غير أنني لم أعرف ما أريد أن آكله. فكرت في الكباب، ولكنني تذكرت أن الكباب لا يؤكل إلا في المطاعم المعروفة لأن رجال التموين ضبطوا بعض المطاعم تقدم الكباب المصنوع من لحم الحمير، وقد قرأت أنهم عثروا في الأيام الماضية على عدد كبير من رؤوس الحمير، ولم يعثروا على بقية الأجساد التى ذهبت بلا شك إلى تلك المطاعم، ثم فكرت في الفراخ المشوية.

فكرت في مطعم من تلك المطاعم الأجنبية الحديثة والتى تصنع من الدجاج وجبات شهية لها نكهتها وطعمها المميزين.

كنت في تلك اللحظة أقترب من واحد من سلسلة مطاعم شهيرة قرأت إعلاناتها في الجرائد ورأيتها على شاشات التليفزيون. المطعم يغلب عليه

اللون الأحمر، ومرسوم على واجهته رجل أمريكى كهل له لحية بيضاء ويحمل على كف يده طبقا فيه قطع من الدجاج المطهو، وهو نفس الذى ملأ صفحات المجلات والجرائد بصوره الملونة عند افتتاح تلك السلسلة من المطاعم.

عندما دخلت المطعم خيل إلى أننى دخلت المكان الخطأ ، فقد كان كل رواد المطعم من الشباب والشابات، وكلهم بلا استثناء يرتدون الملابس الضيقة الفاقعة الألوان. ورأيت بعض ذكور الشباب يطيلون شعورهم ويعقدونها خلف رؤوسهم. وكان بعضهم أيضا يرقص جالسا متناغما مع الموسيقى الصاخبة التى ملأت المكان.

جلست بمفردى.

جاء شاب يرتدى يونيفورم نظيف وسألنى عن طلباتى، لم يكن فى ذهنى نوع محدد من الدجاج الذى أريد أن آكله ، كنت فقط أريد أن آكل وأشبع، قدم الشاب قائمة أصناف مكتوبة باللغة الإنجليزية. قلبت فيها، لم أفهم منها شيئا، نحيتها وطلبت من الشاب أن يأتى بأى شئ .

غاب عنى دقائق، ثم عاد وهو يحمل على كفه طبقاً كبيراً فيه أطباق صغيرة، أحدها فيه ثلاث قطع من أجنحة وأوراك لطيور أكبر حجما من الدجاج الذى تعودنا أن نأكله محمراً بالسمن فى بيوتنا، أو مشويا فى مطاعمنا البلدية، والذى نشاهده دائما فى الشوايات المنتشرة بجوار تلك المطاعم، كانت القطع مغطاة بطبقة رقيقة من مادة تخفى اللون الحقيقى لجلد الفراخ، وضع الطبق أمامى، ثم علبة مثل علب الزبادى فيها كمية من الأرز . وعلبة مثلها فيها قطع صغيرة من الخس والطماطم والجزر واللفت المملح . ثم وضع ملعقة من البلاستيك لونها أبيض كانت ملفوفة فى منديل ورقى ، لا أعرف السبب الذى من أجله أصابنى الاشمئزاز من الملعقة البلاستيك والمنديل ، وربما لأننى تعودت الأكل بالأدوات المعدنية . نحيت

المعلقة جانبا . وأمسكت قطعة من قطع الدجاج وبدأت فى التهامها ، كانت تذوب فى فمى .

كانت القضمة الأولى لذيذة فى أول الأمر ، وجاءت الثانية لتذكرنى بقطع اللحم المتهرئة للطيور النافقة ، وتذكرت أن القطع التى أمامى أكبر حجما من القطع المألوفة من الدجاج ، كان الطعم لاذعا ، وفيه كثير من التوابل الحريفة والشطة . وتصورت أن تلك التوابل وضعت للتغطية على الطعم المتعفن للدجاج الميت ، تناولت بأصابعى من علبة الخضراوات بعض القطع وبدأت فى أكلها ، لم تتمكن أصابعى من استخراج الأرز من علبة الزبادى العميقة ، أكلت الرغيف المنتفخ الحجم مع الطحينة . ثم نهضت واقفا ودفعت الحساب وخرجت .

شعرت بحاجتى إلى كوب شاى وتدخين الشيشة التى دخنتها فى الصباح .

ها أنا قد أصبحت مدخنا .

وأنا أسحب من الشيشة تذكرت أن كل ما معى فى الحقيبة عبارة عن شيكات ، وفى جيبى خمسمائة جنيه فقط ، بعد أن انتهيت من الشاى والشيشة خرجت أمارس التسكع حتى يحين موعد القطار الذى أعود فيه إلى الصعيد .

وجدت نفسى فى شارع فؤاد .

وقفت أمام المحلات . رأيت ملابس تليق بأبنائى خالد وتامر وسميحة ، فكرت فى الشراء . ولكننى تراجعت وفضلت أن أسألهم عما يريدون قبل الشراء ، فربما اشتريت ولم يعجبهم ، وفى هذه الحالة يصعب إرجاع ما اشتريته .

أعجبنى شال من الشيفون ، كنت قد رأيته على كتف إحدى المذيعات ، كانت ألوانه متدرجة كألوان الطيف الصافية . أشرت للبائعة . أحضرته .

بعد أن دفعت ثمنه قالت البائعة وهى تشير إلى تايير من التويد الأحمر الداكن :

- على فكرة الشال مع التايير يجنن .

بالفعل كانت أكمام التايير مزينة باللون الأسود ، وبدا لى التايير جميلا ورصينا فى آن واحد ، اشتريته ، وضعت البائعة التايير والشال فى كيس جميل من البلاستيك .

اشتريت أيضا بلوزة لونها بنفسجى لزوجتى ، وجيبه مناسبة لنفس اللون، وضعت كل الأشياء فى الكيس ، تبقى معى ثلاثون جنيها .

لم تستغرق عملية التسكع والشراء أكثر من ساعة واحدة .

ركبت تاكسى إلى ميدان الجيزة لأستقل القطار منها إلى الصعيد .

★★★

باقى على موعد القطار ساعة ونصف . الجو ساخن والشمس تلفح الميدان . شعرت بالعرق وقد تلبد على جبهتى وكل جسمى ، كما شعرت بحاجتى لدخول دورة المياه ، وفى تلك اللحظة سمعت آذان العصر ، وجدتها فرصة لدخول دورة المياه فى المسجد القريب من محطة القطار .

دخلت المسجد . خلعت الحذاء ووضعته فى مكانه المخصص له عند باب المسجد ، واتجهت إلى دورة المياه . كانت ضيقة ولها رائحة منفرة ، ولكننى تحملتها ، أنزلت ملابس وجلست .

بعد أن أنه أنهيت مهمتى اغتسلت ، وخرجت من دورة المياه إلى الميضأة، توضأت ، شربت من مبرد المياه ، كانت مياهه لذيذة فى هذا الجو الحارق ، بعد أن شربت الكوب الأول شعرت أننى فى حاجة إلى كوب ثان ، بعد أن شربت الثالث شعرت بالامتلاء وبرغبتى فى الجلوس .

دخلت فناء المسجد ، وصليت ركعتين وضعت الكيس والحقيبة بجوارى وجلست ، وكان الجو فى المسجد مريحا ، والهواء رطبا يبعث على

الطمأنينة، ويشجع على الجلوس ، وتوافد المصلون واحدا بعد الآخر ، وكل منهم يضع حذاءه عند الباب ويدخل ، وبعضهم يضع حذاءه بجواره ويصلي ويجلس ، اتجه بعضهم إلى المكتبة الصغيرة وتناول مصحفا وجلس يقرأ فيه، وخيل إلى أنني أريد أن أنام ، ولكنني تنبهت بسرعة قبل أن تغفو عيني وأصبح في حاجة إلى وضوء جديد .

وسمعت رجلا يقيم الصلاة ، نهضت وفي يدي الحقيبة والكيس . وقفت في الصف الذي وجدت نفسي فيه ، وعندما هممت بإقامة الصلاة ورفعت يدي لأعلى اكتشفت أن الحقيبة والكيس لا يزال في يدي ، احترت في المكان الذي أضعهما فيه ، وأشار واحد من المصليين بجواري إلى مكان بالقرب من الأمام وضعتهما فيه . كانتا أمام عيني .

شعرت بشخص يلكزني في جنبي ، شعرت بألم في جانبي ، كدت اضربه ، ولكنني تمالكت نفسي . وجدته رجل طاعن في السن وله لحية ضخمة ، ثم لكز الذي بجواري أيضا ، رمقه الأخير بنظرة غاضبة ولم يتكلم، كان الرجل يريدنا أن نحاذي الصف . كان الإمام لا يزال يقف أمامنا ووجهه ناحيتنا وقال :

– حاذوا المناكب ، سدوا الفرج بينكم ، من وصل صفا وصله الله ، صلوا صلاة مودع .

صليت خلف الإمام . ختمت الصلاة متثاقلا بسبب الهواء البارد المنعش في المسجد . وجدت نفسي أسند ظهري لعمود المسجد العريض ، وأمد رجلي بعد أن أحضرت الحقيبة والكيس بجواري . استرحت قليلا ، ونهضت واقفا لأخرج من المسجد .

بحثت عن الحذاء في المكان الذي وضعته فيه . لم أجده .

كان قد بدءوا في الانصراف من المسجد ، ولم يتبق غير نفر أو أثنين

والإمام الذى صلى بنا ومقيم الشعائر وعامل المسجد . عندما لاحظوا حيرتى سألونى ، أخبرتهم أننى لم أعثر على الحذاء ، سألنى الأمام :

- هل هو جديد ؟

قلت على الفور :

- نعم .

قال :

- كان يجب أن تضعه نصب عينيك .

كانت المشكلة فى كيفية الخروج من المسجد بعد أن ضاع الحذاء والجورب الذى وضعته بداخله .

أشار على مقيم الشعائر بأن أضع قدمى فى أى (شبشب) من تلك الشباشب القديمة الموجودة عند دورة المياه حتى أصل إلى منزلى .

وأين هو منزلى ؟

وهل سأركب القطار بالشبشب ، وأنا أرتدى بدلة كاملة ورباط عنق ؟

ولكن ، كان هذا هو الحل السريع ، وبالفعل أحضر لى عامل المسجد زوجا من الشباشب القديمة المصنوعة من البلاستيك عديم اللون ، وكان على وشك أن ينفصل غطائه عن كعبه .

كان أقرب محل لبيع الأحذية فى ميدان الجيزة وهو ما يتطلب أن أسير لمسافة كيلو متر على الأقل مرتديا هذا (الشبشب) الذى ما أن وضعت قدمى فيه حتى شعرت بوخزات فى قدمى بأماكن متفرقة . عندما خلعت فردة منه وتأملتها وجدتها مصنوعة من جلود إطارات السيارات القديمة ومثبتة بمسامير . فوضت أمرى لله وسرت حتى أقرب محل أحذية ودخلت فيه ، أشرت إلى حذاء من النوع الرخيص ، وضعت فيه قدمى وكان مناسبا لمقاسى ، ولاحظت أن البائع ينظر إلى وإلى (الشبشب) الذى كنت أرتديه بازدراء ، سألته عن السعر .

قال :

– مائة وتسعون جنيها !

لم يكن فى جيبى سوى خمسة وعشرين جنيها فقد . تذكرت أننى لم أحجز تذكرة العودة فى القطار . وقلت للبائع :

– ممكن شبشب ؟

نظر إلى بغيظ وسحب من يدى الحذاء بعنف وقال :

– فى العتبة .

كان من الصعب أن أذهب إلى العتبة وأنا فى ميدان الجيزة ، وبقى على موعد القطار ربع ساعة ، كما لم يكن من اللائق الانتظار ومساومة البائع الذى عاملنى بجفاء ، وخرجت أبحث عن شىء أضعه فى قدمى فى حدود خمسة جنيهات !

(٣)

من آن لآخر تفاجئنى زوجتى بحاجة البيت لبعض الأصناف الضرورية . صابون ، أرز ، سكر ، شاى ، بن ، مكرونة ، كبريت ، ملح، بصل ، ثوم ، طماطم ، سمن بلدى ، زيت وغيرها من الاحتياجات التى لم أكن أعرفها .

لم أكن أعرف أن البيت يحتاج لكل تلك الأصناف . قبل هذا وأنا فى الخدمة لم أكن أشعر بهذا العبء . كنت أبعث من يشترى تلك الأشياء حسب الكشف الذى كانت تعطيه لى زوجتى . لم أكن أنظر فى الكشف لكى أعرف ما فيه . كان العسكرى ينفذه حرفيا ، ثم يضع الأشياء كلها فى كيس وتوصلها السيارة إلى البيت . حتى بعد أن نقلت للقاهرة بدأت زوجتى تشترى تلك الأشياء بنفسها . وجدت الشاى والسكر والأرز والصابون فى محل بقالة بالقرب من البيت ، اشتريت ما يكفينا لمدة شهر ودفعت الثمن ، تكفل الرجل بتكليف أحد صبيانه بتوصيلها للبيت .

بعد أن وضع صبى البقال البضاعة بجوار الباب، وقف ولم ينصرف ، وسألها إذا كانت تحتاج إلى شىء آخر . أعطته زوجتى جنيهين ، انصرف على الفور .

صرنا كلما احتجنا إلى شىء من تلك الأصناف ادفع ثمنه ويوصله صبى البقال للمنزل ، بعد أن يقبض أتعابه .

فى إحدى المرات جهزت مشترواتى وحملتها بنفسى بعد أن وضعها البائع فى أكياس من البلاستيك ، ولكننى وجدت معارضة شديدة من الأولاد وأمهم ، وقال لى تامر :

- ميصحش يا بابا تشيل فى إيدك أكياس ، الناس تقول علينا إيه ؟

تكفلت زوجتى بالخضار ومستلزمات الطبيخ . كانت تشتريها أثناء عودتها من العمل ، وبهذا أراحتنى من عبء مساومة البائعات والبائعين ، فضلا على أنه لم تتوافر لدى الخبرة الكافية لاختيار أجود الأصناف من الخضراوات ، ولن أنسى يوم أن حاولت شراء الطماطم والبامية والخس ، فقد اكتشفت بعد عودتى أننى دفعت نقودا تكفى لشراء ضعفى الكمية التى أحضرتها ، فضلا عن هذا فقد وضعت لى البائعة كل الطماطم الطرية التى لديها والتي لم يشترها منها أحد ، أما البامية فقد تبين لى أننى اشتريت الأنواع الخشنة كبيرة الحجم غير المرغوبة ، وعندما حاولت زوجتى أن تغسل الخس الذى اشتريته وجدته مليئا بالديدان ، وأوراقه مليئة بالثقوب مما دعاها إلى رميه فى الزبالة .

تصديت لشراء اللحوم ، وذهبت إلى جزار قريب من بيتنا لا يعرفنى ولا أعرفه ، وجدت اللحوم معلقة فى دكانه على هيئة ذبيحة كاملة ، وكان يقوم بالتقطيع منها مستخدما سكيناً كبيراً وحاداً ، وكان يلقى بالقطع التى يقطعها على كفة الميزان . انتظرت حتى فرغ من الزبون الذى قبلى ، وبعد أن فرغ منه سألنى :

- طلباتك يا حاج ؟

قلت :

- ثلاثة كيلو .

قال الجزار وهو يرمقنى .

- منين ؟

وقفت محتارا لا أعرف من أين اختار القطعة التى نحبها ، رمقنى الجزار بغيظ ، وقال مكفهرا :

- من الموزة ، من بيت الكلاوى ، الفلتو ، ولا من المقدم ، خلصنا يا أستاذ ؟

وعندما لم أسعفه بالإجابة قال :

- يعنى حمرا ولا ملبسة .

قلت على الفور :

- حمرا .

امتدت يده فورا إلى سكين حاد ، وامسك الذبيحة بيده وهوى على جزء منها بالسكين مرة واحدة ، ثم رفع القطعة التى نزعها ووضعها على الميزان . كانت بالضبط ثلاثة كيلو جرامات . وضعها فى كيس من البلاستيك ، وناولها لى .

سألته عن السعر ، قال :

أنت الظاهر زبون جديد ، وأول مرة تشترى من عندنا ، يبقى عايزين تسعين جنيه ، وشرفك إنت بنبيع الكيلو باتنين وتلاتين جنيه .

أعطيته النقود التى طلبها ، مع أنها تزيد عن المعتاد ثلاثة جنيهات فى الكيلو الواحد ، وحملت الكيس إلى البيت ، كان يوم الجمعة ، وعندما وصلت إلى البيت بسطت زوجتى اللحوم لتقطيعها ، واكتشفت أنها عبارة عن قطعة

كبيرة من الدهون لا تصلح للأكل . جمعنا منها القطع البيضاء ، كانت تقترب من كيلو جرام .

عندما عاتبته فى المرة القادمة ، أخبرنى أننى أصبحت زبونه ، وأنه لا يمكن أن يكررها معى ، وقال :

– حضرتك لا تتعب نفسك ، أنا أوصلها لغاية البيت .

وبهذا أنفكت عقدة اللحوم ، وبدأت تصلنا بانتظام أسبوعيا ، صحيح أنها فى بعض الأحيان يغلب عليها الشغت والدهون ، وعندما أقابله أعاتبه ، فيشكو لى قائلا :

– أنا غصب عني ، العلف مستورد من أمريكا وفيه هرمونات تسمن البهيم ويبقى كله دهن .

★★★

جلست بجوار النافذة أتنسم الهواء البارد وأقرأ بعض المجلات القديمة وقرأت :

– قال فنان تشكيلى عراقى أن دائرة الفنون التشكيلية فى وزارة الثقافة والأعلام العراقية تجبر الفنانين العراقيين على الاشتراك فى مسابقات لإقامة تماثيل للرئيس صدام حسين ، وقد نظمت مؤخرا وبأمر من ديوان رئاسة الجمهورية حملة لإعاد رسم وتجميل صور الرئيس العراقى التى تنتشر فى كل مكان .

– وقال الفنان إن حماية أمنية مشددة تفرض على تماثيل وصور الرئيس صدام حسين بعد أن تم الكشف مؤخرا عن وجود إطارات سيارات قديمة معلقة بتمثال الرئيس العراقى الكبير الموجود فى متنزه الزوراء بجانب الكرخ فى بغداد ، إلى جانب تشويهات مقصودة بصور الرئيس فى المناطق السكنية الشعبية مثل مدينة صدام (الثورة) بجانب الرصافة والشعلة والبياع والكاظمية والسلام بجانب الكرخ .

- وقال إن حماية أمنية مشتركة من قبل الأجهزة الأمنية وتنظيمات حزب البعث الحاكم فى العراق تفرض حول تماثيل الرئيس وصوره فى المناطق المهمة خشية تشويهها من قبل مواطنين نالهم الأذى من الحكومة.

- وقالت الجريدة إن الرئيس العراقى يعتزم تخليد ذكرى أم المعارك (تحرير الكويت عام ١٩٩١) بنصب تذكارى يقام فى بغداد .

ألقيت الجريدة من يدى ، واستلقيت على أريكة فى الصالة تحت هواء المروحة ، سرعان ما شعرت بألم فى ظهرى بسبب استلقائى الطويل على الأريكة ، لم أجد ما أفعله ، دخلت غرفة الجلوس ، لا نفتحها إلا نادرا عندما يكون زوارنا من خارج العائلة . الغرفة لها شباك على الشارع يجلب الهواء عند فتحه .

راعنى التراب على النافذة وزجاجها . أخبرت زوجتى عن التراب الذى تراكم ، سكتت قليلا وقالت :

- يوم الجمعة نمسح البيت كله .

★★★

عندما جلسنا لتناول طعام الغذاء ، وبعد أن أكلنا وشربنا الشاى جلسنا نتكلم فى الدعوة التى وجهها لنا صديقى عبد العظيم لحضور حفل خطوبة نجله رامى وكيل النيابة ، كان حفل الخطوبة كما أخبرنى عبد العظيم محدوداً بعدد من الأقارب والأصدقاء في أحد نوادي أسيوط التي تبعد سبعين كيلو مترا عن مدينتنا ، وهو الأمر الذى يستوجب استئجار سيارة خاصة لتنقلنى وزوجتى والأولاد إلى مكان الحفل .

كانت الساعة تقترب من الخامسة وهو الموعد المحدد لوصول السيارة التى ستنقلنا ، سألت زوجتى عن الملابس التى سترتديها .

ليتني ما سألتها .

نظرت إلى نظرة طويلة ، غامضة لم أتعودها من قبل . لم أكن احسب أنها غاضبة بمثل هذه الدرجة ، وقالت :

- إنت شايف إن ملابسي مش ولابد ؟

قلت على الفور :

- أبدا

قالت بغضب .

- طيب خلاص أنا مش رايحة ، روح إنت لصاحبك .

وسكتت لحظة وقالت :

- يعني إن كنت شايف إني لا أصلح للخروج معك ، شوف واحدة تانية ، يظهر إحنا راحت علينا .

وسكتت ولم تتكلم .

ولم يكن ما قالته صحيحا على الإطلاق ، ولم يكن واردا في ذهني ما قصدته هي ، فقط كنت أود أن ألفت نظرها إلى أن ترتدى أفخم ما عندها .

ولكنها عادت تنظر إلى نظرة أشد قسوة من الأولى .

ولم تسكت عند هذا الحد ولكنها أضافت غاضبة :

- من يوم ما قعدت في البيت وأنت تتدخل في كل كبيرة وصغيرة ، وتفتش علينا زى ما نكون عساكر عندك ، الحتة دى فيها تراب ، الطبق ده مش نظيف ، المعلقة دى قديمة ، الخضار مالح شويه ، صوت التليفزيون عالي ، العيال بسهروا كتير ، الناموس ، الدبان الصراصير . تعليماتك زادت عن الحد ، وخليتنا زى ما نكون في معسكر ، إنت بقيت واحد تاني ، ومش واخد بالك من حاجات كتير ، ونسيان حاجات كتير ، ولا تفكر إلا التراب والنضافة وملابس الخروج والأكل والدبان والناموس ، لكن الناس اللي معاك إتنسوا خالص ، وكأنهم مش موجودين .

خيم على الذهول والصمت .

كانت تلك هى المرة الأولى التى تتكلم معى زوجتى بهذه الطريقة ، الغريب أن الأولاد تامر وخالد وسميحة انسحبوا من الصالة بمجرد احتدام الموقف، وانصرف كل منهم إلى شأنه . ولم يستمعوا إلى بقية الكلام الذى قالته أمهم. وتركونى لها لتنفرد بى ، وكأنهم على علم مسبق بما ستقوله أمهم ، خيل لى أنهم متآمرون معها على ، أصابنى الذهول ولم أجد عندى ما أقوله لها .

كما لم أعرف على أى شىء أرد ؟

انطلقت كمدفع رشاش يختزن الطلقات بداخله ويخرجها بسرعة عند الحاجة . وبدأت أفكر فيما قالته .

كانت قائمة الاتهامات طويلة ، وتحتاج إلى وقت طويل للرد عليها وتفنيدها ، ولم أجد عندى سوى التزام الصمت حسما للنزاع ولعدم سماع المزيد ، ومنعا لمزيد من التدهور .

كانت لهجتها غريبة وجديدة فى آن واحد .

لم أسمع هذا الكلام من قبل ، ولم تحتد على قبل ذلك ، كما أنها والحق أقول كانت كالنسمة الرقيقة ، لم أسمع صوتها يعلو أبدا ، كما لم أرها بمثل هذا الاحتداد والعنف ، كانت تتكلم بحرقة شديدة وعاطفة ، وهو ما أصابنى بالصدمة .

مرت فترة صمت طويلة ، ثم قامت وبدأت فى جمع الأطباق من على المائدة وهى صامتة .

لمحت الدموع فى عينيها ، كانت تحاول أن تخفيها عنى ، وبعدها انشغلت بغسيل الأطباق .

بدأت أنا فى التفكير الرصين فيما قالته ، وتوقفت عند الجزء الأخير من كلامها الذى اتهمتنى فيه بأننى (نسنيت حاجات كتير ، ومش واخد بالى من حاجات كتير) .

تذكرت – ولفداحة ما تذكرت – أنني فعلا أهملت علاقتي الحميمة بها ، ونسيتها تماما من هذه الناحية .

لم يكن ذلك عن قصد .

بل أنني لم أتذكر هذا الأمر قط ، كما أنه لم يخطر أبدا على بالي منذ ثلاثة شهور .

كنت عادة أسهر أمام التليفزيون حتى قرب الفجر ، وكانت هي تذهب إلى النوم بعد العاشرة بعد أن تنتهي من تجهيز طعام العشاء ، بعد أن تجهز لنا ما سنأكله في الغـد ، وكانت أيضا تعد الملابس التي ستذهب بها إلى عملها، أكون أنا وقتها مستغرقا في مشاهدة برامج التليفزيون اللبناني والمغربي والتركي ، وكنت اجلس متنبها لكل شيء على الشاشة ، الحق أنني لم أكن متنبها تماما لزوجتي ، حتى وهي تخبرني كل ليلة قبل أن تدخل غرفة النوم ، أنها ذاهبة لتنام ، وكانت في كل مرة تسألني سؤالا صريحا لا غموض فيه :

– عايز حاجة ؟

وأشيح إليها بيدي وأنا منهمك مع المذيعة التي تتحدث مع ضيفة بارعة الجمال أو راقصة لا عظام لها ترتدي ملابس مبهجة وخفيفة تبرز أنوثتها ، وأرد على زوجتي دون أن أكلف نفسي بالنظر إليها قائلا :

– لا .

وتذهب صامتة إلى السرير . وتغلق الباب خلفها .

وبعد منتصف الليل وقرب الفجر عندما تنتهي الأفلام في كل القنوات ، وتبدأ نشرات الأخبار والتحليلات ، أذهب إلى السرير تكون هي قد استغرقت تماما في النوم .

وفي الصباح تنهض قبلي مبكرة للذهاب إلى عملها ، بينما أكون أنا نائما ومستغرقا في النوم .

لازمنى هذا الروتين يوميا دون أن أشعر ودون تغيير ، كما أننى نسيت هذا الأمر تماما ولم أعد أفكر فيه ، وكنت أعتقد أنها أيضا نسيته مثلى ولم تعد تتذكره .

عندما كنت فى العمل وكنت أبتعد عن البيت أسبوع أو أسبوعين ، كنت اعود متلهفا ومشتاقا ، وأنا بعيد عنها كنت أشعر بأن هناك شىء ينقصنى ، شىء لا يكتمل إلا بوجودها ، وعندما أصل إلى البيت . وينشغل الأولاد بما أحضرته لهم معى من رحلتى ، لا أنتظر حتى يأتى الليل ، وبمجرد دخولى حجرة النوم ، وبعرق السفر وملابسه نغلق الباب على أنفسنا ، كما كنا نقضى الليل فى مباشرة حقوقنا مثنى وثلاث وربا ع ، لم نكن نشبع من هذا الأمر .

سألت نفسى :

– ماذا حدث معى ؟

لم أجد لدى إجابة محددة ، وشعرت أننى فعلا مقصر ، غير أننى تذكرت أن هذا الأمر لم يخطر على بالى ، ونسيته تماما بعد أن تعودت عليه منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وكانت المرة الأخيرة منذ ثلاثة شهور أى قبل خروجى للمعاش بأسبوع واحد .

أكملنا بقية اليوم صامتين ، ولم نذهب إلى خطوبة ابن صديقى عبدالعظيم ، وصرفنا السيارة التى جاء سائقها وأوقفها عند الباب.

بعدها لم تخاطبنى زوجتى مباشرة ، ولم توجه إلى أى كلام ، وكانت عندما تريد أن تخاطبنى ، كانت تخاطب تامر أو شقيقته سميحة ، وتطلب منه ما تريد أن تبلغنى إياه.

فقد أبلغته ألا يترك ملابسه الداخلية التى يستبدلها فى الحمام ، ويجب أن يضعها على كومة الملابس المعدة للغسيل بجوار الغسالة ، وكانت

تقصدنى أنا ، ومرة أخرى أخبرت سميحة أن تترك شبشب الحمام بجوار باب الحمام حتى لا نبحث عنه كلما احتجناه ، وكنت أنا الذى ألبس شبشب الحمام وأتركه فى أى مكان ، كما أخبرت تامر أيضا أن يبحث عمن يضبط شعلة البوتاجاز لأنها أصبحت كثيفة ومدخنة .

الغريب أن الأولاد فهموا من أول مرة أن تلك الأوامر موجهة لى أنا ، وكانوا يبلغونى بها ويعيدوها على مرة ثانية وثالثة كى لا أنسى .

★★★

بدا لى هذا النوع من التعامل صعبا ومحيرا ومقلقا فى آن واحد ، فهو يشعرنى أن ثمة شرخ قد حدث فى علاقتنا لا سبيل إلى إصلاحه.

بدأ الأولاد ينظرون لى نظرات اتهام غامضة تحملنى مسئولية جنوح أمهم للغضب دون سبب ظاهر يعرفونه .

عندما حل موعد العشاء وضعت زوجتى الطعام على المائدة كما تعودت كل ليلة ، ولم تدعنى إليه كما اعتادت ، كما لم تدع أولادها ، صحيح أنهم جاءوا من تلقاء أنفسهم كعادتهم .

كنت أجلس فى غرفة الجلوس منتظرا أن تدعونى للطعام كى أشعر أن هناك بارقة أمل لعودة الود بيننا ، غير أنها تجاهلتنى تماما ، وبدأت الأكل بدون أن تدعونى وتنتظرنى مثل كل مرة ، وهو ما جعلنى اذهب إلى المائدة صاغرا من تلقاء نفسى كالأولاد .

وبدأنا للمرة الأولى نأكل صامتين .

كانت جلسات الأكل عندنا مثمرة ، نتبادل فيها النقاش حول أى موضوع، وكان الأولاد ينتهزون تلك الفرصة ليطلبوا منا طلباتهم التى يعرفون أنها غير قابلة للتنفيذ أو يطلبوها منى مباشرة أو من والدتهم ، كانت سميحة مثلا تطلب من أمها أن تعطيها نقوداً لشراء بلوزة أعجبتها ،

وكانوا سألوننى عن بعض ما يسمعونه فى نشرات الأخبار ولا يعرفونه ، فقد سألنى تامر عن معنى أسلحة الدمار الشامل التى يتحدثون عنها كثيرا، وبرنامج النفط مقابل الغذاء ، ووظيفة الدكتور البرادعى وسلطاته الدولية ، وسألتنى سميحة عن الشاعر نزار قبانى وكاظم الساهر .

كما كانت زوجتى تسألنى عن أشياء تراها فى نشرة الأخبار ولا تعرفها، وقد سألتنى عن كونداليزا رايس ، وكانت تعتقد أنها ممثلة ، أخبرتها أنها مستشارة الرئيس الأمريكى للأمن القومى ، وسألتنى وقتها :

- زى مين عندنا فى مصر ؟

شعرت بالحرج وأخبرتها أنه لا توجد لهذه الوظيفة مثيل عندنا .

وسألتنى فى إحدى المرات السبب الذى من أجله يبدو كل المسئولين الكبار عندنا بشعر أسود فاحم وسيداتهم رشيقات وشعورهن شقراء ، ولم أجد لها إجابة شافية وقتها ، كما أبدت ملاحظة أن كل الزعماء العرب رؤوسهم يكللها الشعر الأسود الفاحم الغزير ، وقتها اعتبرت أن ملاحظتها تعريض بى لأننى أصلع ، وعندما نظرت فى عينيها انفجرت ضاحكة ، فقد كانت تفكر مثلى تماما . ولعلها كانت تشير على بأن أفعل مثلهم وأستخدم الأنواع الجيدة من صبغات الشعر التى يستخدمونها ، كانت جلسة الصفاء تنعقد حول المائدة . وفى الأحيان القليلة التى كانت زوجتى تغضب منى كانت تنسى غضبها عند المائدة أيضا .

★★★

بدأت منذ هذا اليوم تصرفات زوجتى تجنح إلى العصبية ، ورأيتها للمرة الأولى ترفع صوتها على ابنتنا سميحة طالبة الجامعة وشتمتها ، وعرفت أن سميحة كسرت كوب أثناء تنظيفه ، كما أنها - أى زوجتى - عندما حاولت أن تصنع كوباً من عصير الليمون لتامر واثنين من زملاءه جاءا لزيارته

نسيت ملعقة السكر داخل كأس الخلاط اليابانى ، وقامت بتشغيله ، وتهشم الخلاط تماما وتناثرت قطع منه بعيدا عنها ، وفى إحدى المرات نسيت غلاى الشاى بعد أن وضعت فيه الماء والشاى على البوتاجاز فترة طويلة حتى تبخر الماء وكاد الغلاى أن يحترق ، الغريب أنها كانت واقفة بجوار موقد البوتاجاز ونسيت أن ترفع الغلاى بعد أن غلى الشاى . ورأيتها فى أوقات كثيرة تجلس صامته على الأريكة ، وهى التى لم آرها قط صامتة أو ساكنة، كانت دائما تبدو مشغولة بشيء ما ، وعندما سألتها عما يشغلها كانت إجابتها مبهمة وغامضة ومحيرة فى آن واحد :

– أبدا ، مفيش حاجة .

لقد حاولت فى مرات عديدة أن أتوصل إلى السر الذى من أجله ابتعدت عنى .

– هل ابتعادى عنها هو السبب فى سرحانها ؟

لم يكن أمرى فى يدى من تلك الناحية . فهذا أمر لا دخل لى فيه . أنا فعلا حاولت ، وباءت محاولتى بالفشل ثلاث مرات متتالية ، وهو ما يؤكد وجود خلل ما .

كما أننى أقر أن مشاعرى نحوها لم تتبدل قط ، وعواطفى لازالت متأججة . غير أن هذا الشيء يحيرنى . كما أننى لا أشكو من أى أمراض عضوية ولا نفسية ، وأنام فى الليل نوما عميقاً ، وتأتينى الأحلام بأشياء غامضة ، وأظل طول الليل أسبح فى فيض من الأحلام الغامضة ، وعندما استيقظ فى الصباح يتلاشى كل شيء .

بدا لى الأمر محيرا وغامضا .

حاولت فى مرات عديدة أن أفتعل مواقف للكلام . ولكنها كانت تجيبنى ببرود يتلف أعصابى ، ويصيبنى بنوع من الغيظ .

فقد كنا نجلس أمام التليفزيون أثناء نشرة السادسة صامتين ، وفجأة أعلن المذيع أن سيدتين عراقيتين لفتا حول أنفسهما أحزمة متفجرات وفجرتا نفسيهما عند إحدى المدرعات الأمريكية . وبعدها ظهرت السيدتان في شريط سبق تسجيله لهن قبل أن تنتحرا .

قلت مستفسرا :

- مفيش رجاله ؟

أجابت على الفور وهي تنظر بعيدا عني وتبتسم :

- انتهوا وخلصوا .

وظهرت على فمها للمرة الأولى ابتسامة سرعان ما تحولت إلى ضحكة هائلة ، وهو ما أحرجني . وجعلني لفترة عاجزاً عن التفكير والضحك . وبعدها عم الصمت . وأستطرد المذيع يذيع بيانات الصحاف المتفائلة.

غيرت القناة . وجاءت القناة اللبنانية . كانت تذيع برنامجا تستضيف فيه فناناً أو فنانة ، وحدث أن كانت تلك الليلة من نصيب راقصة لبنانية لم ترتد إلا النارد والقليل من الملابس ، كان جسدها كله أقرب إلى العرى ، وكانت تجلس كما لو كانت مستلقية وبدأ المذيع يدللها والجمهور معه ، وبدأت الراقصة تتلوى في مكانها ، وسرعان ما نهضت وبدأت الموسيقى تصدح وبدأت تتمايل على أنغام الموسيقى ، كان جسدها لدنا وينساب في حركات دودية بسيطة كما كانت تعبيراتها وهي ترقص تعبر عن حالة راقية من الشهوة ، بدا لي رقصها رومانسيا وحالما ، شعرت بنوع حميم من العاطفة مع الموسيقى التي كانت هادئة في أول الأمر ، ثم بدأت في التغلغل التدريجي في جسد الراقصة . فجأة ودون سبب واضح انقضت زوجتي على التليفزيون ونزعت منه السلك الكهربي وأطفأته . ثم تركتني ودخلت إلى حجرة النوم .

جلست فى مكانى واجما ساعة أو ساعتين لا أذكر ، وتذكرت أننى استيقظت بعد آذان الفجر ووجدت نفسى نائما على أريكة فى الصالة .

دخلت إلى غرفة النوم وأكملت نومي .

★★★

فى الصباح أيقظتنى من النوم ، وكأن شيئا لم يحدث ، وقالت لى أنها ذاهبة إلى عملها وأنها أعدت لى الإفطار وتركته في المطبخ . كانت الساعة تقترب من التاسعة ، وكانت لهجتها حيادية وكأنه لم يحدث منها شيء ينكدنى في المساء .

بعد أن ذهبت إلى عملها ، نهضت متثاقلا . تناولت الإفطار وشربت الشاى . نسيت هذا الموضوع ، فكرت فى الجرائد اليومية ، وتذكرت الشوارع المحفورة وصعوبة السير فيها . عدلت عن فكرة الخروج وشراء الجرائد ، مكتفيا بما تذيعه نشرات الأخبار في القنوات المحلية والفضائية.

★★★

عادت زوجتى من عملها فوجدتنى جالسا أمام التليفزيون . أطفأته أنا بمجرد دخولها احتراما لها ، ولكنها أعادت تشغيله ، جلست بجوارى ، ورأيتها تمسح دمعة [illegible] انسابت [illegible] عينيها .

جلسنا فترة صامتين ، شعرت بالقلق ، لا تفسير عندى لهذا الموقف ، هممت أنا أسألها عن السبب ولكنها بادرت وأخبرتنى أنها تفكر فى ترك العمل ، وأن تبقى معى وبجوارى فى البيت ، وقالت إنها لا تقبل أن تخرج هى للعمل ، وأجلس أنا فى البيت ، وقالت إن هذا الوضع يضايقها ، وإن نظرات زميلاتها إليها قد تغيرت ، بعد أن علمن بخروجي للمعاش.

أخبرتها أن كل هذا لا أهمية له عندى على الإطلاق ، وأنها يجب أن تعتاد على هذا الوضع الجديد . وقالت :

– خروجك على المعاش أحدث فينا زلزالا كبيرا .

ثم ألقت رأسها على كتفي . حضنتها . وحاولت أن أقبلها ، كان الأولاد فى الجامعة والمدرسة ولا أحد غيرنا فى البيت ، تملصت منى ولكننى تمكنت من احتضانها ، وقبلتها قبلة طويلة ، حاولت فى تلك القبلة أن أشعر بأحاسيس الزوج مع زوجته ، ولكننى لم أجد ما يدعونى إلى الاندماج فى دور الزوج ، وتركت هى نفسها كما يحدث عند لقاءاتنا ، غير أننى شعرت بعدم رغبتى فى هذا الأمر ، وشعرت أن رجولتى لم تطاوعنى ، بل وتلاشت كل المقدمات المبهجة ، وحل محلها نوع ثقيل من عاطفة غريبة لم أعرفها من قبل ، وخيل لى أننى لست رجلا .

وتركتها .

★★★

فى الليل زارنى فتح الباب قريبى وزميل الدراسة . قابلنى مرة واحدة منذ إحالتى للمعاش وعدنى أنه سيزورنى فى نفس اليوم الذى قابلنى فيه .

ها هو يجلس فى غرفة الجلوس متطلعا إلى صورتى بالملابس الرسمية ، وقال :

– أنت كنت شاطر فى الرياضة والعلوم .

كان فتح الباب ضليعا فى اللغة العربية ، وكان يجيد فن إلقاء الشعر . وكانت لديه عادة غريبة اكتسبها من قدرته على تأليف الأشعار ، كان يحول كل قصائد الشعر التى كنا ندرسها فى المرحلة الثانوية إلى أشعار جنسية ، لم تسلم أى قصيدة من القصائد الرصينة التى كنا ندرسها من عادته الغريبة ، حتى قصيدة زهير بن أبى سلمى التى كنا ندرسها والتى مطلعها :

«بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ، متيم فؤاده ... ... » لم تسلم من شعره الخاص به ، وحولها إلى بيت من آخر الشعر الماجن على نفس الوزن والتفعيلة . ولم أعرف كيف كان ينصاع له الشعر ويتحول على يديه إلى جنس ، وعندما ذكرته بذلك قال وهو يضحك :

- كانت أيام .

فتح الباب يشغل وظيفة مرموقة فى التربية والتعليم . لم يذكرها لى . ولكننى عرفت أنه يعمل كبيرا للمحققين فى مديرية التربية والتعليم . منذ أن جلس وهو يتحدث عن طريقته فى جلب اعترافات المخطئين والمخالفين لقوانين ولوائح التربية والتعليم .

حكى عن المدرس الذى ضبطوه يدخن سيجارة فى أثناء الشرح بالفصل. فى البداية ضبطه الناظر ، وقام الناظر بانتظار المدرس حتى فرغ من السيجارة وألقاها على الأرض وداسها ، وبعدها التقط الناظر عقب السيجارة ووضعه فى مظروف وأرسله إلى مديرية التربية والتعليم مشفوعا بمذكرة تشرح ما حدث ، وعندما أرسلوا للمدرس محققا صغيرا لسؤاله أنكر فعلته ، وقال إنه لا يدخن من الأساس ، ولم يتمكن المحقق الصغير من الإيقاع بالمدرس المدخن ، وعندما أوكلت المهمة إلى فتح الباب قام باستدعاء المدرس ، ولم يشأ فتح الباب أن يفاجىء المدرس المذنب بالتحقيق ، ولكنه فاجأه بتقديم سيجارة له ، وأخبر المدرس إن التدخين فى حد ذاته ليس جريمة وأنه لا يوجد نص فى القانون يحظر التدخين صراحة ، ولكن الناظر هو الذى انحدر إلى سلوك مشين بالتقاطه عقب السيجارة وإرساله إلى المديرية ، وأخبر فتح الباب المدرس بأنه سيستدعى الناظر لسؤاله عن السلوك المعيب بالتقاط عقب السيجارة ، وأنه يريد أن يتأكد من أن المدرس دخن السيجارة وألقاها وأن الناظر التقطها ووضعها فى المظروف ، وأنه

يريد من فتح الباب أن يشهد على واقعة التقاط الناظر لعقب السيجارة ، وبالفعل أقر المدرس أمام فتح الباب فى التحقيق أنه بعد أن دخن السيجارة ورماها وقام الناظر بالتقاطها ، وعوقب المدرس بعد ذلك بخصم يومين من راتبه . وعندما رفع الأمر إلى مدير التربية والتعليم أصبح اليومان أربعة ، ولما عرضت الأوراق على المحافظ صعد بالأربعة إلى سبعة ، ولما علم وزير التربية والتعليم أمر بنقل المدرس إلى الوادى الجديد وعاقبه بخصم نصف شهر من راتبه .

دون أن يفسر لي فتح الباب توصلت إلى السبب الذى من أجله انهار التعليم فى بلادنا .

واستطرد فتح الباب يحكي عن واقعة ، فحواها أن إحدى الفلاحات اشترت لحوما مجمدة ، من الأنواع المستوردة من الهند ودول شرق آسيا وأوربا ، وقال فتح الباب ، أن الفلاحة عندما غسلت اللحوم ، وضعتها فى الحلة ، تمهيداً لطبخها ، ووضعت الحلة فوق النار ، فوجئت الفلاحة بكمية كبيرة من الدماء تنز من اللحوم بعد غسلها . كما سمعت صوت خافت ينبعث من الحلة أصاب الفلاحة بالذعر ، استدعت بعض أقاربها الذين أكدوا أنهم استمعوا لنفس الصوت عندما وضعوا تلك اللحوم المستوردة على النار، وعندما شاع الخبر . أخبرهم أحد المشايخ من أهالى القرية التى حدثت فيها الواقعة أن تلك اللحوم الواردة من بلاد الكفرة هى لحوم آدمية ، وأن الصوت الذى سمعوه ما هو إلا صوت الإنسان المذبوح ، وهو يطلب من المرأة التى تطبخه أن تدفنه بدلا من طبخه وأكله ، وقال فتح الباب إن الشيخ أخبرهم إن تلك اللحوم واردة من الهند التى تذبح مسلمى كشمير وتبيع لحومهم لنا ، وقال لهم أيضا أن هذا يحدث أيضا فى بلاد الصرب حيث يذبحون المسلمين من أهالى البوسنة والهرسك ويبيعونهم لنا على هيئة لحوم مجمدة .

وقال فتح الباب إنه لا يعرف مصدر تلك الشائعات التى تروج ، وقال إن البسطاء من الناس صدقوا هذا الأمر ، وامتنعوا عن شراء تلك اللحوم ، مع رخصها ، وقال إنه لا يستبعد أن يكون هناك من يروج مثل هذا الكلام أمام البسطاء حتي يصدقوه ، ويمتنعوا عن شراء اللحوم الواردة من أوروبا ، وذلك للترويج لسياسة المقاطعة التى تتبناها بعض الأحزاب . وقال فتح الباب، إن خطباء المساجد تصدوا لهذا الكلام ، وحاولوا إقناع الناس بأن هذا غير قابل للتصديق .

حتي تلك اللحظة لم يخبرنى فتح الباب عن السبب الذى من أجله زارنى.

ها هو يتثاءب بعد أن شرب الشاى ويمد رجليه للأمام .

قال إن ابنه حصل على شهادة الشهادة الثانوية التجارية وأنه يريده أمينا للشرطة ، وكان يريدنى أن أتدخل من أجل إلحاق ابنه بهذا المعهد ، أخبرته أن المتقدمين للمعهد أمناء الشرطة تجرى لهم اختبارات طبية ، وأنهم يختارون الأكفأ ، كما ألمحت له أنه ليس بمقدرورى أن أفعل شيئا لأن الأمر يخضع لاعتبارات عديدة .

تململ فتح الباب . لم يعجبه كلامى .

سألت فتح الباب عن بعض زملاء الدراسة ، عاطف ، وجاد الكريم ، ومنصور . كانوا قد سافروا معا إلى فرنسا أعقاب دخولهم الجامعة أثناء الأجازة الصيفية للعمل فى مزارع العنب .

أخبرنى أن عاطف سمن كثيرا وأصبحت حركته قليلة . وجاد الكريم استقر فى القاهرة ، أما منصور فيشغل وظيفة فى مجلس المدينة .

كنا فى الابتدائية والإعدادية والثانوية معا أنا وعاطف ذكى وجاد الكريم يونس ومنصور حسين ، كنا لا نفترق إلا عند النوم ، وكنا نحض بعضنا البعض على المذاكرة ونراجع ما ذاكرناه معا.

كان عاطف متكلما ويتابع السياسة ويقرأ الصحف ، كان فى بيتهم مذياع ، وأكثرنا ثقافة وتفتحا ودراية . وكان يخطط لمستقبلنا معا نحن الثلاثة ، كان يفاخر بأنه بارع فى الرياضيات والفيزيقا ، كان والده صاحب مكتب محاماة وكان هذا يتيح له قدرا من المعرفة والإطلاع ، لم يتح لنا ، وهو أول من شرح لنا فكرة الرجولة والبلوغ والتغييرات التى حدثت لنا فى أجسادنا وأصواتنا ، وقتها كنا فى السنة الثانية الإعدادية . وعندما دخلنا الثانوية وبدأت مقدمات الحرب ٦٧ تطوعنا معا فى كتائب الدفاع الشعبى قبل حرب يونيو والنكسة جاء الأطباء ليشرحوا مبادىء الإسعافات الأولية ، وتعلمنا على البندقية حكيم ، لم يتصور عاطف أن جيشنا من الممكن أن يقهر ، حتى لو انهزم فلن ينهزم بتلك الطريقة التى انهزم بها ، ومكث فى البيت صامتا ثلاثة أيام لا يتكلم ، لم نكن نعرف أن شيئاً ما كسر فيه بسبب الهزيمة ، كان عاطف ضحية قصة حب كبرى مع قريبة له ، كنت أنا وجاد الكريم ومنصور شاهدين على قصة الحب تلك ، كنا نعرف إرهاصاتها الأولى ، وكان يذهب إلى بيتها الذى يجاور بيتهم ، ويمكث هناك ، وعندما كنا نذهب إليه كانت أمه تستدعيه لنا من بيت قريبتهم التى يحبها ، كانت تبدو محرجه وهى تناديه ، لم يكن عاطف يحدثنا عن حبيبته ، مع أننا كنا نعرف ، كان يعتقد أنها حقيقة منطقية ، وأنه أمر يخصه وحده ، لأجل هذا قدرناه وقبلنا أن يحب دون أن يخبرنا أو يتكلم معنا ، وجعلناه قائدنا ، ومستشارنا ، وكبيرنا ، كان عاطف يضحك لأتفه الأسباب ، وكانت ضحكته مجلجلة ، وتجبر الآخرين على الانخراط معه فى ضحكه الذى لم يكن ينتهى، كان يعتبرنا مثل شوقى ومجدى وصبحى أشقائه ، كان يقول لنا إنه لا يرى أشقائه أكثر منا . نقضى معا ساعات الدراسة ، وساعات التجول على شاطىء الرياح القديم ، وإنه لا حاجة له لتعريفنا بحبه الذى يعرفه الجميع .

فجأة أخبره والد حبيبته مريم أن عريسا جاء يخطبها ، لم يكن عاطف مستعدا ، كان وقتها فى الثانوية العامة ، وكان وقع الصدمة عليه قاسيا ، اعتزلنا مدة كبيرة ، ولم يكن يطيق أن يقابلنا ، مع أننا لا ذنب لنا فيما حدث، كما لم يكن يطيق أن يرى الشارع ، هل هى صدمة الفشل ؟ أم لوعة فقد الحبيبة ؟ فكر عاطف فى ترك الامتحان ، ولكننا تعاونا معه ، وأخرجناه من عزلته ، ولكننا لم نخرجه من حبه الكبير الذى تحجر فى قلبه وأغلقه تماما ، وقت أن تمت طقوس زواج حبيبته كنا هناك ، كان حاضرا فى فرحها كواحد من أفراد الأسرة ، ما كان ينبغى لهم أن يدعوه لحضور الفرح . ولكنه جالد وكابر وحضر ، وشارك فى زفافها إلى غيره ، فى هذا الفرح بدا عاطف كالديك المذبوح ، خفنا عليه من فرط حيويته فى الفرح ، لم نكن ندرى أن عاطفته ماتت تجاه النساء ، كنا نشعر بصدمته ، ودخل الامتحان ونجح ، ودخل عاطف الهندسة ، وسافر مع جاد الكريم ومنصور إلى فرنسا وعمل فى مزارع العنب ، وعندما عاد كنا ننتظر أن يحكى عن مغامرته مع بنات ونساء فرنسا ، ولكنه كان كتوما وصامتا ، الغريب أننا لم نتذكر أننا شاهدنا عاطف وهو يضحك بعد أن تزوجت حبيبته ، تحجرت البهجة فى قلبه ، قبلها كان يخرج من ضحكة إلى ضحكة ، لم يكن عاطف بعد صدمته فى مريم يميل إلى البوح بعواطفه ، لقد شعر أن عواطفه ماتت ، وبدأت تنمو بدلا منها عاطفة من نوع آخر ، ليس بمقدوره البوح بها ، ولكنه فقط أخبرنا أنه عاد من فرنسا بمصاريف الدراسة ، ومبلغ آخر من المال . بعد التخرج التحق بالجيش ضابطا فى كتيبة هندسية ، وبعد أن خرج من الجيش حاول أن يكون راهبا ولكن والده ووالدته وأخوته منعوه ، استعان والده بنا لكى نمنعه . الحق أننا تحرجنا فى الكلام معه فى هذا الموضوع لأنه يمس عقيدته الدينية التى كانت متأججة ، كنا نريده أن يبقى بيننا كما

ألفناه وعهدناه ، ونزولا على رغبة والديه وأخوته نبذ الفكرة ، وقرر أن يلتحق بخدمة الكنيسة علمانيا ، وبعدها عرف طريقه إلى المجالس الملية ، خادما للكنيسة تاركا مسألة الزواج يلوكها الأهل محذرين فقط من مغبة أن يمسي عازبا ، وأخبروه أن شقيقه الأصغر منه ينوى الزواج ، وأنه ليس من اللائق أن يتزوج الصغير قبل الكبير ، ولكنه أصر على عدم الزواج ، بل وساهم مع شقيقه فى تكاليف الزواج ، ثم تزوج شقيقه الثالث والأصغر ، وبقى عاطف عازبا حتى اليوم ، طلب والده مرات عديدة منى أنا وجاد الكريم ومنصور أن نحثه على الزواج مثلنا ، وتكلمنا معه ، كان بمقدور عاطف أن يقنعنا أن الزواج مؤسسة فاشلة ، ولكننا انخرطنا فيها قبله ، وشعرنا أننا دخلنا فى مناقشة لا طائل منها ، وأن هناك شيئا قد تحجر فى قلبه من مراهقته من الصعب إصلاحه ، وأنه عندما اخرج مريم من حياته فقد أخرج منها كل نساء الأرض ، وظل عازبا حتى اليوم ولم يتزوج ، الغريب أنه لم ينظر لأنثى بعدها ، وعندما كنا نسأله فى الأوقات القليلة التى نقابله فيها كان يبتسم ويقول :

– خلاص انتهت .

وقد ترهل جسده كثيرا ، وأصابته آلام لا تطاق فى قدميه وكان يعرج ، وصارت حركته بطيئة .

أما جاد الكريم فقد كان وسيما ، فارع الطول ، من قرية مجاورة لقريتنا، وقع فى غرام قمر تلميذة مدرسة التجارة والتى من نفس قريته ، التى كانت تذهب إلى مدرستها راكبة حمارة، مع شقيقتها الصغيرة ، كان جاد الكريم من نفس قريتها ، كانت هى فى السنة الأولى وهو فى الثالثة ، كان يرافقها فى حضورها للمدرسة وذهابها إلى القرية ، كانت هى تركب الحماره وهو يسير بجوارها ، ولأنه كان فارع الطول فقد خيل إليه أنه يسير

بجوارها ، كان يشرح لها ما يستعصى على فهمها من مواد الدراسة ، وتصور جاد الكريم أنه يعيش قصة حب مع قمر ، كانت قمر كالقمر فعلا ، وعندما أخبرنا أنه يحبها كان مبتهجا ، فرحنا له . ولكنه لسبب غامض ، كان يخشى أن يفاتحها ، كانت قمر جميلة ووديعة وفيها سذاجة الأرياف، ولم تتقبل بوعى متفتح رسائله الصامته إليها ، طلبنا منه أن يحسم الموقف قبل انتهاء الثانوية لأنهما سيفترقان ، هو سيذهب إلى الجامعة ولن يراها ، وعندما فاتحها ، أجابته بأنها تعتبره بمثابة أخ لها ، وأن عاطفتها لم تتطور من الأخوية إلى غيرها من العواطف ، وأن مسألة الحب لم تخطر على بالها قط ، جاءنا الكريم وقتها مكتئبا ، ولم يتكلم ، كنا نعلم قصته ، ولم نعلم بتطوراتها الجديدة ، قال له عاطف مازحا : هل مات والدك من جديد ؟ هب جاد الكريم فى وجهِ عاطف وفينا وشتمنا ، ووصفنا أنا مازلنا عيالا ولا نفهم فى الحب ، ضحكنا عليه ، وسألناه عما يغضبه من اعتبارها شقيقة له ، اتهمنا بأننا صغار ولا نفهم فى تلك الأشياء . ودخل جاد الكريم الهندسة كعاطف ومنصور ، وسافر إلى فرنسا معهما ، حاولت أن أعرف حدود مغامراته هناك ، ولكنه رفض أن يتكلم ، مثل عاطف . وآثر الصمت ، وتصورت أنا أن اللغة هناك ربما كانت حاجزا يحول دون التواصل ، غير أن منصور أخبرنى أن لغة الجسد أقوى تعبيرا عن العاطفة ، خرجت منه تلك الكلمة مباغتة ، قالها كفيلسوف ، وحاولت أن أحث جاد الكريم على الحديث، ولكنه هاجمنى ، محاولا إيقاعى على الأرض ، كما كنا نفعل ونحن صغار ، ولم نلتق بعدها لنحكى فقد ذهب كل منا إلى حال سبيله . وبمجرد تخرجه من الهندسة دخل الكلية الفنية العسكرية وأصبح ضابطا ، وعندما كنا نتقابل ونسأله عن راكبة الحمارة ، التى اعتبرته شقيقها . كان يثور ، ويتهمنا بالعبط . وكنت أسأله عامدا عن الفرق بين الشقيق والحبيب ، فكان

يتهجم على مازحا ، وعرفت من شقيقه الدكتور إبراهيم ، أنه تزوج من الإسكندرية ، حيث كانت وحدته العسكرية ، ولم يدع أى منا فى فرحه ، الذى حضره قائد أركان القوات المسلحة.

زرته بعدها فى مكتبه فى إحدى القواعد العسكرية ، بالقرب من مكتبى فى القاهرة ، بعد أن نقلت أنا إلى القاهرة قبل خروجى على المعاش بعام واحد ، كانت تلك هى المرة الأولى التى أزوره فى مكتبه منذ أن تخرجنا ضباطا ، فاجأنى جاد الكريم بأعداد هائلة من الشهادات الأجنبية والدورات التى حصل عليها ، والتى تشهد له بالنبوغ فى تخصصه الهندسى ، وقفنا معا نستعرض الشهادات المعلقة على حائط مكتبه ، وكلها مكتوبة بلغات أجنبية ، وبعضها كانت كتابته ملونة ومزخرفة . وقال إن تلك الشهادات حصل عليها من أمريكا وبريطانيا وروسيا وألمانيا والأردن ، كلها شهادات تشهد له بالتفوق ، كما لاحظت أن عسكرية جاد الكريم منضبطة وصارمة ، وتصورت أنه يتعمد أن يبين لى أن القوات المسلحة أشد انضباطا من الشرطة ، كنت أنا وقتها عميدا ، كان هو عميدا أيضا ، ولكنه كان فارع الطول كرمح ، كنت أنا اقصر منه ، كما كان رياضيا يمارس الرياضة كل يوم ، أحسست أننى بالمقارنة به منحلا ، وعديم الانضباط ، وأننى لا أصلح لشىء ، ولاحظت أنه كان واثقاً من نفسه ، وكان مرءوسيه من الضباط يحضرون إلى مكتبه ، يؤدون التحية العسكرية ، صارمة ، وقوية ، وجادة ، كما تعلمناها فى الكتب وفى طوابير الدرس فى أول أيامنا فى كلية الشرطة بالطبع نسينا كل هذا ، وكان مرؤوسوه لا يقتربون منه ، ولا ينطقون إلا كلمة واحدة : تمام .. كانت طريقتهم فى نطقها موحية ومعبرة عن أداء مهمة جسيمة أوكلت إليهم ونفذوها بإتقان واقتدار .

ولم يكن جاد الكريم يزيد شيئا إلا حركة من يده ، وبعدها ينصرف الواحد منهم إلى مهمة أخرى ، وعلمت أن جاد الكريم عندما يدخل بيته فى

آخر اليوم لا يخرج منه إلا فى صباح اليوم التالى ، مستقيما كالمتصوفين ، وعندما ذهب إلى أمريكا وأوروبا أخذ زوجته معه وتحمل تكاليفها من جيبه الخاص ، وكان ولا يزال يؤدى الصلوات فى أوقاتها وأخبرنى أنه أدى العمرة مرات عديدة لا يتذكر عددها، وأحسست أن جاد الكريم قد أصبح عسكريا محترفا ، وأننى من المحتمل أن أراه يوما قائدا كبيراً أو وزيرا ، وأخبرنى وقت أن كنت عنده ، إن وحدته تستعد لزيارة وزير الدفاع فى أى لحظة من اللحظات لأجل هذا كان دائما يلقى بالأوامر والتعليمات ، وخفت أن يفاجئه الوزير وأنا عنده ، ولكنه ضحك وقال : إنها زيارات سرية مفاجئة وأن الوزير الآن يضع إكليل الزهور على قبر الجندى المجهول ، وأشار إلى جهاز التليفزيون المفتوح فى جانب من مكتبه ، وتذكرت أن اليوم هو يوم تحرير سيناء . أيقنت أن القوات المسلحة لن تستغنى عن جاد الكريم مهما حدث ، غير أن جاد الكريم خرج على المعاش فى نفس التوقيت الذى خرجت فيه ، وبدأ يبحث لابنه عن عروس تناسبه ، اتصل بى بالتليفون وسألنى عن شخص أعرفه من بلدنا ، أخبرته أننى أعرفه يسكن فى مدينة مجاورة لمدينتنا ، وطلب منى أن أكلف ضابط مباحث المركز بأن يجرى تحرياته على هذا الرجل ، سمعته ، عائلته ، أقاربه. ضحكت ، وأخبرته أننى ليست لدى السلطة لإصدار ذلك، لأننى خرجت على المعاش ، واتهمنى كما كان يتهمنى من قبل بأننى لا أفعل أبدا شيئاً مفيداً ، وقال إن كل الكبار يفعلون هذا ، يتحرون عن أصهارهم الذين لا يعرفونهم ، شتمته كما كنت أشتمه ونحن صغار ، وضحكنا فى التليفون ، سألنى عن مهنة الرجل ، أخبرته أنه كان مدرسا واستقال ، ويمارس أعمالا تجارية ويمتلك أراضى زراعية شاسعة ورثها عن والده . قال :

- عظيم جدا . الأسبوع القادم سأكون عندك فى البلد .

وجاء جاد الكريم ، وخطب لابنه ، دعانا فى فرح الخطوبة ، كنت أنا ومنصور وعاطف من المدعوين وضحكنا على جاد الكريم ، وذكرناه براكبة الحمارة ، وهددناه بأننا سنخبر زوجته عنها . ولكنه شتمنا ، وشتمناه ، بعيدا عن زوجته وأولاده ، وكان جاد الكريم متهللا .

منصور تخرج من الهندسة مثل عاطف وجاد الكريم ، والتحق بالحكم المحلى ، ليس له تجارب مبكرة في الحب مثل عاطف وجاد الكريم وكان منصور يقترب من طبيعتي المتصالحة البسيطة ، ملامحه حادة توحي بالصرامة ولكنه لم يكن صارما ، يعتز بشاربه الكثيف الذى لازمه منذ مراهقته الأولى ، كان يفتخر علينا برجولته التى فاجأته مبكرة قبل الأوان بشاربه الذى نبت كثيفا فى وجهه ، كان دائم الاعتزاز به يداعبه ويلمسه على الدوام ، ظل شاربه حتى اليوم لم يتغير قويا وكثيفا وغزيرا ، وإن كان الشعر الأبيض قد اجتاحه منذ فترة طويلة ، تخرج منصور بعد عاطف وجاد الكريم من الهندسة ، لأنه تعثر كثيرا فى الدراسة ، وسافر إلى فرنسا معهما ، وهناك تفتحت مواهبه فى اصطياد النساء .

ذهبنا إليه أنا وعاطف لتهنئته بمناسبة التخرج . جلسنا أمام بيته فى الهواء الطلق ، كانت أمام المنزل شجرة جميزة مثمرة ، تساقطت حباتها الطرية على الأرض ، تناولت واحدة . تشبه ثمرة التين . أزلت قلبها وأكلت أديمها ، وجدتها حلوة ومسكرة ، ناولت عاطف واحدة أكلها ، وبدأنا الأكل ، وبدأ منصور يجمع لنا كل الثمرات ويضعها لنا فى المكان الذى كانت تأكل فيه البقرة ، أكلنا كثيرا من الجميز ، وأحضر لنا الشاى وشربنا ، فى المساء أصابتنى أزمة معوية حادة لم ينقذنى منها سوى طبيب أشار على بعقار مقىء أخرج من معدتى مائتى ثمرة جميز ، لم يتأثر عاطف . سار منصور كلما قابلنا يعايرنا بأنه جعلنا نأكل مكان البقرة .

قابلته كثيرا أثناء الإجازات ، كان مكتبه فى نفس المدينة التى نسكنها ، كان ناقما على وظيفته فى صيانة أنابيب المياه ، كان مستقيما وأمينا فى عمله ، لم يحدثنى عن زيارته لفرنسا ، اعتقدت أنه لن يتكلم مثل عاطف وجاد الكريم ، ولكنه تكلم فجأة فى إحدى المرات دون أن أطلب منه ، كنا خارجين من بيت زميلنا عاطف بعد أن كلفنا والده بمحاولة إقناعه بالعدول عن الإضراب عن الزواج والالتحاق بالدير ، أخبرنى منصور أنه أحب سويسرية . لم يسع للتعرف عليها ، رآها أثناء عملهم فى قص عناقيد العنب، وتحميلها فى الجرارات الزراعية ، كان منصور يتولى عملية التفريغ ، وكانت هى تضع العناقيد فى إناء كبير لتدور عليه الماكينات فى أول مراحل عمليات العصر ، وبعد أن ينطلق الجرار يذهب منصور ليستريح مع العاملين استعدادا للمرة القادمة . جاء شاب وكلم البنت بلغتها ، وكان منصور يراقبهما ، ولاحظ منصور أن هناك مشادة بينهما ، وبعدها أنهال عليها الشاب بالصفع والركل ، نظرت الفتاة إلى زميلنا منصور تستغيث به ، وبالفعل ذهب منصور إليهما وهاجم الشاب بجاروف كانت تستخدمه الفتاه ، هرب الشاب ، وظلت الفتاة تنظر إليه بإمتنان وتتكلم ، ولكنه لم يفهمها ، وتبادلا الكلمات البسيطة ، وبعد انتهاء العمل رافقها إلى المبنى الذى ينام فيه الشباب ، وقال منصور إنه أعتقد أن الفتاه ستسلمه نفسها هناك ، وبالفعل حاول منصور ولكنها كانت تصده ، وفى الصباح ذهبا معا رغم تحذيرات عاطف وجاد الكريم . وبدا بينهما نوع من الاستلطاف ، وظل يتودد إليها وتركته يقبلها ولكنها لم تسمح له بأبعد من ذلك ، وذات يوم شاهد الشاب الذى تشاجرت معه يتحدث معها ، وظل يرقبهما حتى رآهما يذوبان معا فى قبلة طويلة ، ولم يتكلم منصور أبعد من ذلك وأنتقل إلى الحديث إلى الأرض التى اشتراها فى واحة الفرافرة واستصلحها ، أخبرنى

أنه بعد تلك الواقعة أنفلت عياره ، ومارس الجنس مع كل النساء الذين سمحت ظروفهن بلقائه ، وقال إنه لم يكن يسعى إليهن ، وكان يشير إلى شاربه الكثيف بإعزاز ويقول : هذا يثيرهن ، عمل فترة فى الحزب مع عاطف، وكان يساعد الأرامل والمطلقات وصاحبات الحاجات فى استخراج بطاقات شخصية ، وإنهاء إجراءات المعاشات ، كما كان يساعد المساكين والفقراء في تدبير احتياجاتهم . وفتح أبواب الرزق أمامهم فى مشاريع تجارية بسيطة تغنيهم فقط عن ذل السؤال ، كانت رغبته الجنسية الجامحة تقلقه ، ولا تتركه يمارس عمله اليومي المعتاد . فقد صور له ولعه بالجنس أن كل النسوة جميلات ، وعندما ضاق ذرعا برغبته كتمها خشية أن يفلت منه الزمام . كان يشكو من رغبته المتأججة دوما ولا تترك له امرأة ولا سيدة إلا وتشده إليها . كان منصور خائفا من رغبته . كانت البقرة الهائجة تستكين عندما يضع يده على كفلها . وتضطرب حبات البذور داخل البطيخة عندما يلمسها بيده ويمسدها . تزوج منصور ، كانت زوجته تطاردهن ، كانت حصيفة ومتفهمة ، فمنعت أياً من ذوات الحاجات من دخول بيتها ، ولم تسمح أبدا لزوجها أن يقابل امرأة أيا كانت عجوزة أو طفلة ، محتاجة أو قانعة ، حتى قريباته شكى لى منصور أنها حرمت دخولهن بيته ، حاول أن يغير مجرى الحديث ، وقال إن المياه هناك فى الفرافرة متوافرة والأرض قابله للاستصلاح والزرع ، وأنه أشترى ومعه شقيقه الوحيد قطعة كبيرة من الأرض ، وينوى أن يسافر إلى هناك ويزرعها . وبالفعل ، غاب منصور فترة طويلة ، ولم أقابله ، ولم تصلنى أخباره ، وعندما قابلنى وجدته واجما ، وأخبرنى أن شقيقه مات في الفرافرة ، أثناء عملية استصلاح الأراضى هناك ، سقط به الجرار فى هوة عميقة لم يتمكن من إنقاذ نفسه ، ذهب إلى هناك وعاد بجثمان شقيقه ، وأقام له طقوس الجنازة ، وعندما قابلته بعدها

شعرت أن شيئا ما انكسر فى منصور ، وفقد بريقه المتوهج ، وانطوى على نفسه حزنا على شقيقه الأصغر منه ، أخبرنى أنه لم يعد للبهجة طعم ، وشعر أنه مسئول عن مصير شقيقه ، لأنه كان السبب فى ذهابه إلى الفرافرة البعيدة ، وباع الأرض التى اشتراها هناك بثمن بخس ، وأكتفى براتب الوظيفة وقطعة أرض صغيرة يزرعها مناصفة ، مع أبناء شقيقه المتوفى ، كان الحزن وقت أن قابلته يجلله ، وبعدها عرفت أنهم ألحقوه بوظيفة هندسية مرموقة فى بلدنا .

شاهدت منصور مرات عديدة وهو يجوب المدينة بحثا عن مخالفات البناء ، وهى الوظيفة التى أوكلت إليه مؤخرا ، وعندما شاهدنى ، نزل من سيارته الحكومية وعانقنى ، اخبرنى أنه غير سعيد فى مهنته الجديدة ، وقال إن الناس أصبحت تكرهه ، بسبب أنه ينفذ تعليمات الحكومة المتضاربة بشأن المبانى ، وحكى لى عن امرأة تمتلك منزلاً عبارة عن حجرة وصالة متهالكاً وقديماً ، وكاد البيت أن ينهار عليها وعلى أولادها الصغار ، تبرع لها أحد الأثرياء بتكاليف البناء ، حاولت أن تعيد بناء البيت ، طلبوا منها رخصة مبانى ، تقدمت بالأوراق ، رفضوها ، اخبروها أن الرسم الهندسى لابد أ ن يحتوى على جراج للسيارة ، أخبرتهم أنها لا تمتلك سيارة ، قالوا لها أنها التعليمات ، كان منصور يريد أن يساعدها حتى تبنى بيتها ، أخبرنى منصور أن تلك السيدة فقيرة إلى حد الكفاف ، ولكنه القانون الذى يسوى بين الفقير والغنى ، ويشترط على الفقير أن يجعل جزءا من بيته جراجا لسيارة لن يمتلكها .

كلمنى فتح الباب عن ذكرى الذى برع فى العلوم السفلية ، وقال إنه يفك المربوط ، ويعالج الذين لا يقدرون على إتيان زوجاتهم فى ليلة الدخلة ، وقال إنه يفهم كثيراً فى تلك الأمور ، ويقوم بفك الربط عنهم ، وبعدها يعودون إلى

حالاتهم الطبيعية . كما أخبرني فتح الباب أن ذكرى كون ثروة هائلة ، وأنه لا يعرف كيف ينفقها ، وهو الآن ينوى الترشيح لمجلس الشعب .

سألته عن كيفية مقابلة ذكرى .

ضحك فتح الباب وقال :

– أوعى تكون مربوط ؟

وكدت أخبره بأننى أعانى مما يشبه الربط . ولكننى عدلت ، غير أن فتح الباب بفكاهته المعهودة قال :

– كلنا مربوطين . هو فيه حد عنده حيل .

قلت له :

– ظروف السن يا فتح الباب .

قال :

– أوعى تقول السن ، أنا أبوى تزوج وسنه واحد وسبعين سنة ، من بنت تمنتاشر سنه ، وخلف منها خمس عيال .

سكت فتح الباب لحظة وقال :

– الحكاية دى من آكل الفراخ البلدى ، واللحوم المسمنة بالهرمونات ، ومن ساعة ما تركنا السمن البلدى والفراخ البلدى ، والرجالة بقيت زى النسوان ، وبعدين دى خطة أمريكية وغربية لتحديد النسل .

توقف لحظة أخرى وقال كالخبير :

– عموما البصل مفيد .

أصبح الوقت متأخراً ، وفتح الباب لا يتوقف عن الكلام . وما أن ينهى موضوعاً حتى يدخل فى آخر . وقال إنه يبذل جهودا مضاعفة لأجل عقد المصالحات بين الأطراف المتخاصمة ويقنعون الشخص المطلوب القصاص منه ، بأن يشترى كفنه ، ويحمله على كفيه سيرا على الأقدام حتى بيت

أسرة القتيل ، أمام حشد كبير من الأهالى وأفراد العائلتين ، وكل عائلات البلد ، ثم تصفح عنه أسرة وعائلة القتيل بعد ذلك .

اقترب الليل من منتصفه ، قال فتح الباب أنه سيحضر لى فى المرة المقبلة استمارة الحزب الوطنى تمهيدا لانضمامى إلى لجنة المصالحات.

الكلام مع فتح الباب قد يستمر إلى الصباح ، ورأيته يتثاءب وينهض واقفا مستأذنا فى الانصراف بعد انصراف فتح الباب أويت إلى السرير ، وكانت زوجتى تغط فى النوم العميق .

فكرت فى الكلام الذى قاله فتح الباب ، والسبب المضحك الذى فسر به حالتى ، غير إننى حينما أمعنت التفكير تذكرت أننا فعلا نأكل كثيرا تلك الأنواع من الدجاج التى ذكرها فتح الباب ، فهل يمكن أن تكون تلك اللحوم والفراخ التى تأكل الهرمونات هى السبب فى حالتى ؟

وقررت أن أبحث عن ذكرى الذى يفك المربوط .

(٤)

عند الاستيقاظ من النوم، أشعر وكأن ظهرى قد تخشب، وأحس آلاما شديدة تجتاح كل جسدى، وتتملكنى لحظات، يصيبنى فيها الشلل، خصوصا عند محاولة النهوض من النوم والجلوس على السرير، وتنطلق من جسدى دفقات ساخنة كالموج، لا أعرف مصدرها تستمر لحظات قليلة، وأصبح عاجزا عن الحركة والتفكير، ويستمر الألم فى أطرافى، ولا استطيع تحريكها، وأشعر بآلام فى كتفى الأيمن ولا أستطيع تحريك رقبتى، وعندما أريد أن أنظر إلى اليمين أو اليسار أدير جسمى كله، ويظل هذا الألم ملازم لى لمدة يومين، أو ثلاثة أيام.

كما بدأت أشعر بضيق فى التنفس بعد استيقاظى من النوم، وهذا الضيق يزداد فى الفترة المصاحبة لغروب الشمس.

ولأول مرة أعض لساني أثناء الأكل.

شعرت بألم شديد في الجانب الأيمن للساني مكان العضة، لم أتكلم، وخفت أن أقول إنني عضضت لساني أمام زوجتي وأولادي، فيظنون أنني دخلت في مرحلة الشيخوخة الفعلية التي يتعين عليهم فيها مراقبتي ومراقبة تصرفاتي.

من ناحيتي، أيقنت أنها، بلا شك، إحدى علامات الشيخوخة مع أنني في الخمسين، وقادر على الجري، وحمل الأثقال، وتأدية التمارين السويدية بنفس الكفاءة التي كنت أؤديها في الثلاثين، صحيح أنني انقطعت عن ممارسة الرياضة فترة، ولكنني عدت إليها، وأنا في القاهرة، تبين لي أنني مازلت قادرا على تأديتها، كما أن جسدي كما هو لا اعوجاج فيه، ولا كرش، ولا ترهل.

★★★

بدأت فترة الصمت بيني وبين زوجتي تطول، مع أنها لم تكن معتادة على السكوت، كما أنها لم تعد تتكلم معي كثيرا عما يحدث معها أثناء العمل كعادتها.

عندما كنت في العمل كانت تنتظرني، وتحتفظ في ذاكرتها بكل التفاصيل التي تحدث في البيت، أو مع أقاربنا وجيراننا، وكانت تعيد سردها بحسب تسلسل وقوعها، وكانت لاتمل من الحكي، خصوصا بعد نوم الأولاد، وكانت حكاياتها تثير غريزتي وثقتي في نفسي كزوج، كما كانت ترضي كبريائي كرجل، وكنت بعد تلك الحكايات أجد نفسي مدفوعا إليها، بقوة العاطفة، وكانت كل جولاتي ناجحة، ومكللة بالنصر، كانت لقاءاتنا الزوجية وسيلة للتنفيس عن أنفسنا، وكنا ندفن أوجاعنا وهمومنا بالانغماس في الممارسة، كما كانت تكافئني كلما أحضرت لها شيئاً، بأن تحرضني على مناوشتها، ولا تتركني إلا بعد أن ارتوي، كانت لقاءاتنا جزءاً من حياتنا.

أزعجني الأمر الذى اكتشفته.

وهو ما جعلني أشعر أن استقرارى بات مهددا ما لم أعثر على حل.

★★★

الحديث عن الأشياء الخاصة، يستوجب الحذر والحيطة والكتمان، وهو ما جعلني أحاول، قدر الإمكان، أن أتجنب الحديث عن هذا الذى حل بى، حتى لو حاولت أن أتكلم، فإنني لا أجد من أتكلم معه فى مثل تلك الموضوعات الحساسة، أصدقائى الحميمين، شلة العمل، مقيمون في القاهرة، كنا نتبادل الشكوى مما يزعجنا ويضايقنا، وكانت السهرات التى تجمعنا فى النادى، قادرة على حل أكثر المشاكل تعقيدا، كانت هناك حلول جاهزة لكل شكوى.

فعندما اشتكى زميلنا هشام من زوجته، التى تعد عليه أنفاسه، وغيرتها الشديدة، وشراهتها للمال، أشار عليه زميلنا أبو بكر بالزواج، وبالفعل بدأ أولى الخطوات باستئجار الشقة، استمر فى مشروع الزواج دون أن تدرى زوجته، وفاجأها بالانقطاع عن منزل الزوجية، كانت الزوجة الجديدة باحثة تعد للماجستير فى البحوث الجنائية، وكانت تتردد على هشام فى العمل بحجة جمع المادة العلمية، وفجأة أخبرت شقيقة هشام زوجته بمشروع الزواج، مما جعله يعجل منه، وهشام الآن يعيش فى شقتين، شقة الزوجة القديمة فى المعادى والثانية فى العجوزة، وقال إنه ينعم بحياة لا ينعم بها أى زوج فى مصر، فهو لايسمع أبدا صوت الغسالة، ولا كركبة التنظيف الأسبوعى، كان يخصص أياما لكل زوجة، وكانت كل من الزوجتين تتبارى فى الاستحواذ عليه وتبدو له دوما نظيفة وجميلة فى أفخم ملابسها، وكانت كل منهما تعد له الطعام الذى يشتهيه قبل حضوره وتتفرغ له تماما. ولا شىء يشغلها عنه، لا غسيل، ولا كى، ولا طبيخ، ولا كنس، لا شىء يشغلها عن تدليله وكسب وده، كان يعامل كملك، ويحترم كقائد بين زوجتين تتنافسان فى إرضائه.

قطعت صلتى بتلك الشلة، منذ أن أحلت للتقاعد، بسبب المسافة بينى وبينهم، صحيح أن هشام وأبو بكر قد خرجا على المعاش مثلى، وفى نفس الكشف، ولكن ثمة أمراً ما أصاب الشلة بشرخ، ولم تعد قادرة على الالتئام مرة ثانية.

★★★

لم أصدق أن هذا من الممكن أن يحدث لى فجأة، لأننى لم أشعر من قبل بأعراض مرضية يمكن أن تسبب مثل الذى حدث، لا شك أن خطأ ما حدث، قلب هذا الخطأ عندى كل شىء رأسا على عقب، وربما كان السهر الذى أدمنته أمام التليفزيون هو ما سبب كل هذا.

وقررت أن أجبر نفسى على الاكتفاء بنشرة أخبار التاسعة، والذهاب بعدها إلى السرير.

وقد جربت أن أظل قابعا فيه، دون رغبة حقيقية فى النوم، كانت زوجتى تغسل بعض الملابس، حاولت تشغيل الراديو، لم أجد ما هو جدير بالاستماع، كلها أغانى تافهة ولا معنى لها، عثرت بالصدفة على محطة تذيع أغنية أم كلثوم أنت عمرى، كانت الموسيقى المصاحبة لتلك الأغنية، تثير شجونى كما كنت أميل إلى الاستماع لها دائما، وكنت أثناء فترة الخطوبة، أحلق فى الفضاء على تلك الأنغام، وقتها كانت تلك الموسيقى تفجر عواطفى، وتجعلنى فى شوق دائم إليها.

أنهت زوجتى مهمة غسيل الملابس، وباقى أعمال المنزل، ونام الأولاد مبكرين، على غير المعهود، وبعد أن غسلت يديها من رائحة المنظفات، أطفأت أنوار الصالة، دخلت إلى حجرة النوم على استحياء، جلست على طرف السرير، فى تلك اللحظة كانت أم كلثوم قد وصلت إلى المقطع الذى تقول فيه «خلينى جنبك خلينى» كان هذا المقطع بالذات، يؤجج الحب ويدعمه، ويزيد

من عاطفتنا ورغبتنا فى آن واحد، ووجدتها تقترب منى، وتنام فى حضنى، كما تعودت، وجدت نفسى استمع للموسيقى، وأتاملها دون أن يتطور تفكيرى إلى ما هو أبعد من ذلك، وحاولت أن أبدأ بالمقدمات التقليدية، وخيل إلى أننى غير قادر.

كما فعلت زوجتى كل ما يتعين عليها أن تفعله، غير أننى كنت عاجزا تماما عن التجاوب معها، أو مجرد الإحساس بنفسى كرجل، وهيمن على الاحباط تماما، قبل الوصول إلى الذروة، وأحسست أننى لا أستطيع السير فى الأمر إلى نهايته.

وعندما أعيتها المحاولات، تركت نفسها فى حضنى، ونامت.

★★★

بعد أن نامت زوجتى، شعرت أننى بالفعل أعانى من خلل ما، وكنت أعتقد أن فشلى فى المرات السابقة بسبب اعتيادى السهر، وعدم استيقاظى مبكرا، فى المحاولة الأخيرة، اكتشفت اننى عاجز بشكل لا جدال فيه.

شعرت أننى أتخاذل، وأن شىء ما داخلى بدأ يهوى إلى القاع.

★★★

سبب لى هذا الأمر خوفا ورعبا هائلين، فقد خفت أن يكون هذا مقدمة لمرض عضال من المحتمل أن يصيبنى، وأن هذا العجز ما هو إلا عرض من تلك الأعراض، كما سبب هذا الأمر لى إحباطا لا حدود له، وشعرت أن رجولتى وشخصيتى قد انهارت.

مما زاد فى فداحة الأمر، أنها لم تسألنى عن السبب الذى من أجله لم أتمكن، كما لم تحاول - لفرط خوفها من مرارة فشلى - تجديد المحاولة فى نفس الليلة، ولا فى الليالى التى تلتها، والحق أننى أشفقت عليها من عنف الفشل، الذى هو فى واقع الأمر، فشلى أنا.

وشعرت أنها ابتعدت عنى بروحها، وتركتنى أتجرع وحدى مرارة الفشل، كما لم يتجرعه أحد من قبل.

كنت قد فكرت فى روتين الحياة اليومى، وإيقاعه الرتيب الممل، والفراغ الهائل، وأيقنت أن هذا الايقاع له دخل كبير بحالتى، وفكرت فى عرض نفسى على طبيب.

صارحتها بهذا الأمر، وأخبرتها أننى أريد أن أعرض نفسى على طبيب، ولكنها رفضت الفكرة، دون سبب واضح، وقالت إن الأمر لا يستحق.

كما أخبرتنى أن رغبتها هى أيضا قد أضمحلت، وأن هذا الموضوع لم يعد يشغلها، وانها نسيت تماما هذا الأمر، وقالت إن عملها اليومى، وأشغال البيت، وشئون الأولاد، والتعب الذى حل عليها دون سبب، كل تلك الأمور أنستها هذا الأمر، وقالت إن هناك فترات تبعث من جسدها هوجة حرارة مرة واحدة، ثم تعقبها فترات تحس فيها بالخمول، وأنها دائما ماتشعر برغبة عارمة تدفعها إلى النوم، فضلا عما أخبرتنى به من أن لذة النوم وسهولة الاستغراق فيه، أهم عندها بكثير من تعب الليل، والسهر الذى كنت أسببه لها أيام كانت رغبتى متأججة.

بالطبع لم أصدقها، لأنها كانت تجاملنى، ويمنعها حياء الأنثى من التسليم به، ربما لأنها تعتقد أن هذا الأمر يخصنى أنا فقط، وأنه لا يخصها هى، وربما كانت هى أكثر وعيا منى بأن هذا الأمر، يعود لحالتى النفسية، وظروف إحالتى للمعاش مبكرا.

★★★

حاولت استرجاع ذاكرتى، خلال سنوات زواجى الأربع والعشرين الماضية، والتى أثمرت الولدين والبنت، وشقيق لهم لقى ربه فى عامه الرابع، بعد أن بدأ يتعرف علينا، وشرعنا فى ادخاله الحضانة، أحدثت وفاته لنا ولإخوته الصغار ألما لايطاق تغلبنا عليه بصعوبة.

لقد حاولت أن أعثر في خلال تلك الفترة على مرة واحدة فشلت فيها، فلم أجد، لم تكن الرغبة، ولا المقدرة عليها تعوزانى بأى حال من الأحوال، كما أنه ليس من الحكمة الادعاء بأننى نسيت هذا الأمر مثلها.

وهل هذا شيء من السهل نسيانه؟

لقد أصبح الموضوع هاجسى الدائم، منذ أن أعلن عن نفسه واكتشفناه.

لم أكن أتصور أبدا أن يعترينى هذا الفشل المريع.

★ ★ ★

زوجتى اخترتها أنا، صحيح أن والدتى كانت تريدنى أن أتزوج ابنة خالتى، ولم تغفر أمى لزوجتى قط، أنها حلت مكان ابن شقيقتها، فلم تبتلعها، وكثيرا ما كانت تسفه أعمالها، وذوقها، لأجل هذا، فإن نوبات النفور ما بين والدتى وزوجتى زادت وتراكمت، صحيح أن والدتى زوجت ابنة شقيقتها لأخى الأكبر، والأخرى لأخى الأصغر، إلا أنها لم تغفر لزوجتى، وكانت دائما ما تردد أمامى:

– خطفوك.

أنا أكبر من زوجتى بسبع سنوات كاملة، وهى تمت إلينا بصلة قرابة من ناحية والدى، رأيتها للمرة الأولى وهى ذاهبة إلى كليتها، كنت وقتها فى السنة النهائية بكلية الشرطة، وهى فى سنتها الأولى بكلية الخدمة الاجتماعية، كان هذا فى الصباح الباكر وكنت أنا مسافرا إلى الكلية، وهى مسافرة أيضا إلى كليتها، كان شقيقها يودعها على محطة القطار، سلم علىّ، وتصادف أن حجز الكراسى كان متقاربا، حاولت وقتها أن أتكلم معها، ولكننى رأيت الحياء فى عينيها، وجدتها تتكلم بصعوبة، وكانت تتلعثم. وفي مرات عديدة، حاولت فيها أن أضبط مواعيد سفرى مع مواعيد سفرها، وكنت كلما حاولت أن أكلمها أجدها تتلعثم، كانت تطيل النظر فى وجهى،

وعندما كنت أضبطها، كانت توارى عينيها، زرتها فى كليتها فى القاهرة، وبصعوبة تمكنت من اقناعها بالخروج معى، كانت خائفة منى، كان حياؤها يغلبها،. لم تقل لى صراحة إنها تحبنى، كان من السهل على أن اكتشف تلك العاطفة التى تأججت بيننا، والتى لم يكن بمقدورنا أن نخفيها، كان كلامها قليلا، ولم تكن تجيد التعبير عن عاطفتها، ربما لطبيعتها التى تميل إلى الحياء، لكنها تولت إبلاغى بحبها عن طريق صديقة لها، وقالت لى صديقتها، إنها لم تجد فى نفسها الجراءة، على مصارحتى مباشرة بحبها، الغريب أننى سألت عنها عمتى، التى أكدت لى أن لسانها منطلق، وأن قدرتها على الكلام والحوار تفوقان الوصف، وأكدت لى شقيقاتى أنها قليلة الكلام، ولكنهن جميعا أجمعن على أنها مهذبة وراقية، وفوق كل هذا فائقة الجمال، كانت عمتى وشقيقاتى يفتخرن بى كضابط وكانت عمتى تخبرنى أن كل فتيات العائلة يتطلعن لى.

ألمحت عمتى لى ألا أدعها تفلت من يدى، خصوصا أن أهلها مشهود لهم بالأخلاق العالية، والاحترام، وقتها لم تكن الجراءة تمكننى من أن طلب هذا من والدى صراحة، كما لم يكن من اللائق أن أخبر والدى أننى أريد أن أتزوج، كان هذا يعد شائنا فى تقاليدنا، نشأنا على احترام الوالد وتوقيره، وخشيته، ولكن عمتى تولت عنى كل شىء، وعندما تخرجت، وجدت أن الأمر قد تم ترتيبه مع والدى، صحيح أن ظروفنا المالية لم تكن ميسرة، لم يغال والدها فى شىء كما لم يطلب أن تتساوى خطيبتى، مع شقيقتها التى سبقتها فى الزواج، من حيث كمية الذهب، والأثاث والهدايا.

لم ترحب أمى على الاطلاق بزواجى منها، كان هناك شىء غامض من ناحيتها، هل هى فعلا رغبتها فى أن تزوجنى من بنت شقيقتها؟

غير أن ابنة شقيقتها تزوجها شقيقى الأصغر، وسافرا معا إلى الخارج، والأخرى تزوجت من شقيقى الأكبر وسافرت معه إلى الامارات منذ أكثر من

خمسة وعشرين سنة، ولم تكن أمي تعلم شيئاً عن قصة الحب التى جمعت بين شقيقى الأكبر، وابنة خالته التى كانت تريدنى أن أتزوجها.

هذا الذى بين زوجتى ووالدتى، لاحظه والدى، وهو ما دعاه إلىٰ أن يشترى لى بيتا، أقيم فيه مع زوجتى، بعيدا عن البيت الكبير، كان والدى يعرف الكراهية الغامضة التى تكنها والدتى لزوجتى، ولم يشأ أن يجمعهما بيت واحد، وقد حاول من جانبه أن يعوض زوجتى عن كراهية أمى، فكان يشترى لها ما يشتريه لبناته، وفى اليوم الذى ذهب فيه لشراء شبكة شقيقى الأصغر عبد الستار، أحضر لزوجتى أسورة ذهبية كتلك التى أحضرها لشقيقاتى، دون أن تعرف أمى بذلك، واشترى لتامر خمسين سهما فى شركة الحديد والصلب سرا، وجعل من زوجتى وصية على ابنها صغير السن، دون أن أعلم أنا، فقط اخبرتنى زوجتى بالأسورة، وظل الأمر سرا حتى عرفنا بموضوع الأسهم بعد وفاة أبى.

لقد حاولت زوجتى، بكل جهدها، أن تتغلب على هذا الرادع بينها وبين أمى، وفى كل مرة، كانت أمى تتظاهر بأنها تكن لها كل الود، ولكنها كانت تنسى هذا بمجرد عودتها إلى البيت، لم تكن والدتى تزورنى كثيرا فى منزلى، ولكن عندما أنجبت زوجتى ابننا تامر، فرحت به أمى، وبقيت بجوار زوجتى مدة طويلة، حرصت فيها على ألا تتكلم، وعندما جاءت سميحة حدث نفس الموقف.

لم تكن زوجتى تكره أمى، وكانت فى أحيان كثيرة تبكى، وهى تخبرنى عن تلك الكراهية الغامضة، التى تكنها أمى لى، الغريب أن زوجتى لم تخبر أحدا من أهلها، حتى والدتها، عن هذا الأمر، وهذا يحسب لها، لأننى لم أسمع قط من أهلها حكاية أمى. تعاملت زوجتى مع تلك الكراهية بذكاء خاص، واعتبرتها شيئاً خاصاً بأمى فقط.

وعندما ماتت أمي، في أعقاب وفاة والدي، حزنت زوجتي عليها، ربما تظاهرات أمامي بالحزن لترضيني، وهذا ما اعتبره نوع الحب الكبير الذى كنا نتبادله، فقد أخبرني والدي ذات مرة، أنه عندما تكره الأم زوجة ابنها، فإن هذا يحتاج إلى معجزة لاستمرار الزواج.

★★★

في إحدى المرات، وعقب تناولي العشاء مع زوجتي، والأولاد، جلست صامتا، وبعد انصراف الأولاد لشئونهم، بقينا بمفردنا، خيم علينا الصمت، وكنا قبل اكتشاف ما حل بي نجلس في هذا الموعد، ونتكلم في كل شيء، كانت جلستنا المفضلة دائما حول المائدة، عقب تناول العشاء، كانت تلك الجلسة، والحديث مع زوجتي تروقان لي، كان حديثنا وقتها تلقائيا، وكان يطيب لي أن أرقبها وهي تتحدث، وكان شيء ما يجذبني إلى حديثها ويثيرني.

هذه المرة كنت صامتا.

وكنت أقلب في الأمر على وجوهه المختلفة، في محاولة مني للعثور على تفسير مقنع لحالتي، وكنت أحاول في نفس الوقت أن أبحث عن مخرج.

بعد هذا الاكتشاف تجنبت مواجهتها، والنظر في عينيها، كنت في كل مرة أواجهها، أشعر بالهزيمة والفشل، وكانت كل كلمة تقولها تذكرني بواجباتي، التي لم أجد القدرة عليها.

وخيل إلي أنها، حتى وهي تقدم الطعام لي، تلومني وتعايرني بفشلي، وخفت أن تعتقد أن فشلي يرجع إلى عدم رغبتي فيها، فقد كانت، وهي شهادة حق ينبغي أن أسجلها، تبذل كل ما في وسعها لإرضائي، وكنت أراها دائما فاتنة، ومتجددة، وكانت تبهرني في كل مرة بالجديد، في لحظاتنا الخاصة. لم أفطن اليها وهي تعبث في التليفزيون، كما لم أفطن

إلى المؤتمر الصحفى الذى عقده بوش وأعلن فيه أنه سيعلن الحرب على صدام حسين إذا لم يخرج من بغداد. وسألتنى:

- ساكت ليه؟

كانت محتدة.

وكانت تلك هى المرة الأولى التى آراها فيها بمثل هذا الاحتداد.

كما كانت طريقتها فى نطق السؤال صاعقة، وغريبة، وموحية، فى آن واحد، وتحمل فى طياتها مئات الأسئلة، التى تبحث عن أجوبة، ولو أنها سألتنى فى الظروف العادية، كنت سأجد لها ألف جواب، وكلها إجابات منطقية ومقنعة.

وللمرة الأولى أشعر أن للخيبة طعماً مراً.

لذا لم أرد على سؤالها.

من جانبها، اعتبرت أننى لم أعد اعرها الاهتمام الكافى، وهو الاهتمام الذى يتعين على كل رجل مهزوم أن يقدمه إلى زوجته.

واكتشفت أن رغبتى فى الحياة تتلاشى، إذا لم يكن بيدى ما أفعله.. واستوت عندى فكرة الموت، كبديل عن الخيبة.

★★★

بعد أن سألتنى زوجتى سؤالها الصاعق عن سبب صمتى، وسكوتى، شرحت لها كل ما كنت أفكر فيه بإسهاب طويل، وبدأت مرحلة الكلام.

تكلمت معها أكثر من ساعتين، كلاما متواصلا دون توقف، كنا وقتها فى السرير، والأولاد يجلسون فى الصالة، وشرحت لها كل النقاط التى كانت تشغلنى ولم تستوضح منى أى شىء.

الغريب، أننى كنت أتحدث معها فى موضوعات بعيدة عن لب المشكلة التى بينى وبينها، فكنت أكلمها عن تفكيرى فى الالتحاق بعمل آخر فى

القطاع الحكومى، وخصوصا أن سنى لم تتجاوز الخمسين، وصحتى جيدة، واخبرتها أننى أقرأ إعلانات كثيرة فى الجرائد، والصحف اليومية، لجهات حكومية تطلب مديرين، ورؤساء قطاعات لبعض المصالح الحكومية، ممن تتوافر فيهم الخبرات القانونية، والإدارية لشغل تلك الوظائف التى يعلن عنها، وأخبرت زوجتى إن خبرتى القانونية والإدارية ليست محل خلاف من أحد، وقد أخبرنى أحد الزملاء أن الوزارات تتسابق على أمثالنا من رجال الشرطة، والقوات المسلحة لتدعيم الهيكل الإدارى للدولة بالكفاءات الإدارية.

الغريب أننى تصورت أنها سألتنى:

- إذا كانت كفاءتك فى العمل فعلا، كما تظن، فلماذا أخرجوك؟

أخبرتها أن الإجابة على هذا السؤال، ربما تحتاج إلى تفسير لطبيعة قرار وزير الداخلية، بالاستغناء عنا، وهو الأمر الذى يرتبط بالبناء الهرمى للوزارة، وهو الذى يحتمه قانون تناقص القيادات، وأن الهرم كلما صعد لأعلى كلما قلت القيادات العليا، وأنه على سفح الهرم، يتربع الوزير بمفرده لا يشاركه أحد فى القمة التى يعتليها،. ولا ينازعه أحد سلطان الإدارة، وأخبرتها أنها لا يمكنها أن تفهم الأمر كما فهمته أنا.

كانت تستمع إلى بإشفاقٍ عميق وصمت.

وكنت خلال الحديث المتواصل أرشف من كوب الماء، وضعته بجوارى على الكوميدينو، بجوار السرير، ثم أعود إلى استكمال حديثى دون توقف.

كنت أحكى باستطراد عن الموقف الإدارية التى تعرضت لها فى عملى، وأخبرتها أن تلك المواقف يتم تدريسها فى كلية الشرطة، وكليات الإدارة، كنت أحكى باستطراد، ودون توقف.

بعد أن انتهيت من الشرح، اكتشفت أن زوجتى، كانت نائمة طوال تلك الفترة، التى كنت أحكى فيها تجربتى بل وكانت تغط فى نوم عميق، وقتها

هيمن على احساس مريع بخيبة الأمل، والاحساس بأننى أصبحت عديم الفائدة.

كان هذا الاحساس يتزايد يوما بعد يوم.

★★★

لأول مرة استيقظ من نومى شاعرا اننى بحاجة إلى رشفة ماء.. مددت يدى إلى الكوب وشربت، وعدت إلى النوم من جديد، وخيل إلى أننى أهوى إلى قاع سحيق، فى قرار مظلم، وكنت فى مرحلة الهبوط للقاع، أرى كائنات غريبة الشكل، لها أذرع اخطبوطية، طويلة، وقوية، تلتف حول عنقى وجسدى، وتمنعنى من الحركة والتنفس، وكنت أثناء نومى أشعر بالاختناق، ويخيل إلى أننى غير قادر على الكلام، وصوتى محبوس، وانني لا أقوى على فعل شيء، وكنت أحاول الاستيقاظ من النوم أجد أننى عاجز حتى عن النهوض.

كنت أشعر أن قوة غامضة تكبلنى.

عندما فتحت عينى سمعت أصوات غريبة ومجهولة، ولكنها رتيبة ومنتظمة، أصوات أسمعها لأول مرة تنبعث، من بيتنا وتزعجنى، وتجعلنى انكمش فى السرير وعندما تنبهت حواسى واستيقظت تماما، اكتشفت أنها أصوات تساقط قطرات المياه التى ترشح من صنبور حمامنا التالف.

استيقظت تماما، وشعرت أننى كنت ضحية لكابوس فظيع، رشفت من كوب الماء واستلقيت على السرير، وبدأت أتذكر غزواتى الزوجية الناجحة، فى أيام زواجى الأولى، كانت التفاصيل الحميمة تأتى نقية، وصافية، وبدأت استعرض أجساد النسوة اللاتى اشتهيتهن فى شبابى، ربما تمكنت واحدة منهن، من تحريك هذا الركود الذى هيمن علىّ، ولكن شيئا لم يتحرك.

بدا لى الأمر وكأننى أحدق فى ظلام بالغ الكثافة، وشعرت بشيء يضغط على بقسوة هائلة، ولم أجد أقسى منها سوى تلك النظرة، التى رمقتنى بها

زوجتي أثناء سؤالها الصاعق، كانت نظرتها تحمل لى اللوم، والعتاب، والجحود، والنكران لآلاف الغزوات الناجحة التى حققتها خلال سنوات زواجي الماضية.

- هل أنا مربوط؟

ومن له مصلحة في ربطى، وتقييدى على هذا النحو المريع؟

وشعرت أننى سأصاب بالجنون، وخفت أن تكون صورتى فى ذهنها قد اهتزت، ووجدت نفسى دون وعى منى، أفكر فى الحكايات التي رأيتها، وسمعتها عن السحر، والعلوم السفلية.

تذكرت فتح الباب وزميل الدراسة ذكرى، الذى امتهن السحر، وفك الربط، غير أننى استبعدت لسبب غامض، أن أتكلم أمام ذكرى، أو فتح الباب، فى هذا الموضوع الذى ينبغى أن يحاط بالكتمان.

وتذكرت فجأة الشيخ وهمان.

كان الشيخ وهمان قد زارنى فى مكتبى، منذ أكثر من عشر سنوات، عندما كنت مأمورا فى الصعيد، وقتها حكى لى عن حبة السحر، والعلوم السفلية، وأنها يمارسها كهواية، وأخبرني أنه لديه قطعة أرض زرعها قطنا، مثل جيرانه الفلاحين، وحدث أن هاجمت دودة القطن النباتات الخضراء فى المنطقة كلها، وقبل أن تصل الديدان إلى حقله، قام بعمل سحر في أربع ورقات، ووضع كل ورقة عند ركن من أركان حقله، ولم تقترب الديدان من حقل وهمان، وفى إحدى الليالى جاءه هاتف على شكل كابوس، صاح فيه:

- ارفع المكتوب ياوهمان لاطعام الدود.

قال لى الشيخ وهمان، إنه لم يفهم الرسالة فى أول الأمر، وتظاهر بالنوم، ولكن الكابوس عاوده أشد قسوة، وفى الصباح توجه وهمان إلى أرضه، ورفع أوراق السحر، واجتاحت الديدان أرضه.

كما سمعت عن ساحر آخر، استطاع أن يحتال على أحد الأعيان فى الأرياف، كانت لديه ابنة وحيدة، فائقة الجمال، تعلمت فى الجامعة الأمريكية، وكانت من آن لآخر تتردد على قصر أبيها فى الأرياف، وحدث أن شاهد الابنة وهى تنزل من سيارتها الفارهة أحد شباب بالقرية المعدمين، وأحبها بجنون، ثم تقابل مع الساحر، وحكى له ما يعانيه، قال الساحر:

– وإن زوجتها لك؟

قال الشاب على الفور:

– أتنازل لك عن الجاموسة التى عندى.

رفض الساحر، وطلب من الشاب أن يعمل عنده أجيرا مدى الحياة. وظن الشاب أن الساحر يمزح، فوافق على الفور، وحرر للساحر عقدا بأن يعمل أجيرا عنده طول عمره، وكانت للشاب قريبة تعمل فى قصر الفتاة، طلب منها الساحر أن تأتى له بقطعة من ملابس الفتاة لامست جسدها، وعلى الفور احضرت الخادمة ما طلبه الساحر، وبعد أيام شاهد أهل القرية الفتاة وهى تجرى فى شوارع القرية بحالة عصبية وهى حافية، وعندما قابلها الشاب هدأت واستكانت، وتوقفت أمامه تتطلع إليه، وبدأت تعود إلى حالتها الطبيعية، وعندما تبتعد عن الشاب تعود إليها الحالة العصبية من جديد، وقالت لوالدها إنها لن تتزوج سوى هذا الفلاح الفقير، ورفض والد الفتاة الرضوخ لجنون ابنته، ولم يستسلم، وطاف بها على الأطباء المتخصصين فى الأمراض العصبية والنفسية، وأوصوه بإدخالها المستشفى. غير أن الفتاة التى احضرت للساحر رائحة الفتاة رق قلبها لها، ولم تطاوعها نفسها أن تجد مخدومتها تنتهى إلى هذا المصير، أخبرت والد الفتاة بموضوع السحر.

وقامت والدة الفتاة باستدعاء الساحر سرا، ووعدته بمال كثير، إن هو أعاد إلى ابنتها صوابها، وبالفعل قام الساحر بفك السحر، وكان قد علقه

فى فرع شجرة عالية، وكلما داعب الهواء الورقة كانت عاطفة البنت تتأجج، أعطته والدتها مبلغا يكفى لشراء فدانين من أجود الأرض الزراعية.

★★★

عندما نهضت من نومى فى الصباح، شعرت بخيبة أمل، لأننى فكرت وأنا المثقف فى اللجوء إلى تلك الأسباب المبتذلة، ولكننى شعرت فى نفس الوقت بشعاع من الأمل، وكان فى بؤرة هذا الشعاع الشيخ وهمان.

سمعت طرقا على الباب، فتحت سميحة الباب. نادت أمها. وسمعتها تقول:

- صباح النور، تفضلى.

دخلت امرأة اسمها راعوث، كانت جارة لنا فى البيت الكبير، أيام كنت تلميذاً في الإعدادى والثانوى وقالت:

- يا ساتر.

بمجرد دخولها، جلست على أرضية الصالة بجوار الأنتريه، كانت تلهث من صعود سلم الطابق الثانى. استقبلتها المدام سألتها عن صحتها، وصحة أولادها، وقالت:

- من زمان وأنا عايزة أزوركم. لكن الظروف. اعمل إيه فى الدنيا وأحوالها.

وسكتت لحظة قالت فيها زوجتى:

- أقوم اعمل شاى.

ولكن راعوث امسكت يدها وقالت:

- مفيش لزوم.. أنا بس ليه طلب صغير عند البيه.

ونظرت إلى نظرة خاصة دون أن تلحظ زوجتى نظرتها، قلت لها:

- أتفضلى.

قالت وهى تنظر إلى الأرض:

- ابنى رومانى كان راجع من الشغل، ومسكوه.

- مسكوه فين.

- عند كشك المرور.

- بيشتغل إيه؟

- نجار.

- معاه بطاقة؟

- ايوه.

- راح الجيش؟

ضحكت راعوث وهى تنظر إلى وقالت:

- خلص الجيش من زمان، دا اشترك فى حرب الكويت كمان.

وقالت لى إن ابنها موجود فى المركز من يومين، ولم يخرج، وأنها لا تعرف السبب فى احتجازه، اخبرتها أننى سأتصل بالمركز.

نهضت واقفة، وحاولت أن تمسك يدى لتقبلها، ولكننى منعتها، وخرجت رافضة أن تجلس لتشرب الشاى، وكان اليوم هو يوم الجمعة، وضباط المركز فى هذا اليوم يذهبون إليه متأخرين.

أمسكت بها زوجتى ولم تدعها تخرج قبل أن تشرب الشاى، وبالفعل جلست على أرضية الصالة كما كانت تجلس من قبل، انهضتها زوجتى واجلستها على الكرسى.

تناولت سماعة التليفون، طلبت المركز. رد على عامل التليفون. سألت عن المأمور، وبالفعل أوصلنى به،. عرفته بنفسى، تبادلنا التحية. سألته عن رومانى فلتس، قال:

- لحظة واحدة.

سمعته ينادى على أحد الأشخاص، وسمعت الأخير يجيب، سأله عن روماني فلتس، وطلب أن يسأله عليه في الحجز، وبالفعل سمعت الشخص وهو يكلم المأمور عن رومانى فلتس المقبوض عليه لتنفيذ حكم شيك بدون رصيد، وانهم سيعرضوه على النيابة لأجل أن يعارض في الحكم. أخبرنى المأمور بموضوع فلتس، وقال إنها مسألة ساعة زمن ويكون في النيابة، وقلت للمأمور:

– شكرا .

وأخبرت أم رومانى أن رومانى محكوم عليه بسنه حبس في شيك بدون رصيد، ضربت على صدرها وقالت:

– إيوه، شيك البنك.

سألتها عن حكاية الشيك، وأخبرتنى أن روماني نجار، وحاول أن يفتح ورشة نجارة وأنه لأجل هذا أخذ قرضا من البنك، ولم يسدد لأنه تزوج بالمبلغ سألتها:

– والورشة؟

– ورشة إيه؟

– اللى أخذ لأجلها القرض.

– معلش.. كل زمايله عملوا كده، واللى سعى فى السلفة أخذ نصيبه، والموظف اللي خلصها أخذ نصيبه، والمبلغ اللى فضل صرفناه ع الفرح، وعقبال أولادك، وربنا يخليلك الست.

لم يكن من المعتاد أن تدعو النساء عندنا بمثل هذا الدعاء، ولكن راعوث الماكرة، نظرت إلى نظرة خاصة وكانت زوجتي في المطبخ تعمل الشاى وقالت:

– بطلت الشقاوة.

كانت راعوث جارتنا فى البيت الكبير - بيت والدى - وكان زوجها يعمل مع والدى فى السكة الحديد. كنت وقتها فى سنوات المراهقة الأولى، نهاية الإعدادية، وبداية المرحلة الثانوية، كانت راعوث وقتها بارعة الجمال، يشوب بياضها احمرار عند خديها، وكانت بجوار فمها حسنة سوداء زادتها جمالا، شفتاها بارزتان ولونهما أحمر، كانت متزوجة حديثا من زوجها أبو رومانى، لم يكن اسمه أبو رومانى، كان اسمه فلتس، وكانت راعوث تأتى عندنا تساعد أمي فى نقاوة القمح، وعملية الخبيز، وكانت أثناء الخبيز ترتدى جلبابا قديما وممزقا وفضفاضا، ولا ترتدى شيئا أسفله، وكنت اختلس النظرات اليها وهى جالسة غير منتبهة إلى ما يظهر منها، كانت حرارة الفرن والجو تجعلانها غير مكترثة لعريها، كما كانت فتحة ثوبها الواسعة تتيح لى أن أتأمل ثديها الصغير المشرئب، كنت أتطلع مبهورا بهذا الاحساس الذى أحسه عندما أشاهدها خلسة، كانت هناك شيء ينمو داخلى لصالحها، وكانت ترقب تطلعى بابتسامة خجلى تخصنى بها، وكنت أشعر بالخجل، كما تأتى عندى فى الليل، لأكتب لها خطابات لشقيقها سعيد، الذى كان فى أمريكا، كان فلتس يعاملها كبلهاء دون سبب لم تكن أمي، ولا فلتس زوجها، ولا أبى، يرتابون فى زياراتها لى فى غرفتى وأنا أذاكر بمفردى، فقد كانوا يعتبروننى غير خطر فى تلك الناحية، وكنت أعرف أن فلتس يضربها، ويشتمها ويهينها لأتفه الأسباب، كان فلتس يتركها تملى على الخطاب الذى تريد أن تكتبه وينزل هو ليجلس مع باقى الأسرة فى الطابق الأول، كان فلتس يحب الجلوس مع أبى عند راكية النار، فى الدور الأول من البيت، يتحدثان عن الملاحظين والمهندسين والتحويلة الجديدة، وبمجرد نزوله تنحنى فى مواجهتى على المنضدة تاركة ثديها الأبيض اللامع يتطلع إلى، وفى إحدى المرات كشفت عن جزء من رقبتها وقالت إن فلتس

ضربها هنا، وبالفعل كان مكان الضرب لونه أزرق، ووجدت يدى تمتد إلى مكان الضرب إلى أن اقتربت من صدرها ووضعت يدى، وكانت هى ساكنة وتنظر فى وجهى، ووضعت يدها على أيدى الملتصقة بصدرها وضغطتها، واستدارت لتلتصق بى، ولم أشعر إلا بشفتيها تلتهمانى. كنت مخْدرا بلذة غامضة وجديدة مع راعوث، وشيئا فشيئا، أصبحت راعوث تلهب ليلى ونهارى، كانت تشعرنى بلذة عميقة، لذة كانت تأتينى فقط فى الظلام عندما أنام، وفى الصباح الباكر قرب الفجر كنت استيقظ على أنفاسها الحارة، كنت على أعتاب البلوغ، وقتها لم أدرك السر فى تلك الزيارات الغامضة التى كانت تؤلمنى وتؤججنى فى آن واحد، كنت وقتها أشعر بلذة لا مثيل لها، كان جسدى يرتعش، أثناء عودتى من المدرسة كانت راعوث، تنادينى، وحجتها أمام حماتها، آماليا الضريرة، اننى سأقرأ لها خطاب جاءها من شقيقها الغائب، ولا أشعر إلا بأنفاسها الملتهبة وشهيقها، كنت أدفن وجهى فى رقبتها البيضاء، استنشق رائحة جلدها الغامضة المخدرة، وكانت يدها تعبث بجسدى وهى تلهث وتغمض عينيها، ثم ترتعش وتنتفض، وهى تقبض على جسدى، كانت وهى تحتوى جسدى كله تمتم بكلمات مرتعشة سريعة، وغامضة لم أفهمها، وأحيانا كانت تشتمنى دون أن تدرى، وكنت أشعر أننى أريد أن أحتويها، وانتظر الرعشة الغامضة التى تهزنى، كان يطيب لها أن ترى شهوتى تتدفق منى فى ملابسى الداخلية، كانت تراقبها وتتحسسها وتشمها، فى أول الأمر، كنت أشعر بالاثم معها، وبعد أن ننتهى من العناق أخلد إلى نفسى صامتا ألوم اندفاعى ورغبتى المحرمة، كنت أعرف أننى ارتكب إثما لا يغتفر، وأن زبانية جهنم لن يدعوننى أنعم بتلك الرغبة المحرمة، وكنت أعرف أن هناك عقابا خطيرا وغامضا سوف يحل بىَ، وكنت أقرر اننى لن اسمح لها فى المرة القادمة، وأن تلك المرة هى آخر مرة، كل

هذا كان يطوف بخاطرى بعد فراغي من لذتي ويدها لاتزال على جسدى، وبعد أن تفيق من نشوتها كانت تبتسم خجلى وتعاود من جديد لمساتها الساحرة، كانت راعوث تكبرنى بأكثر من عشرة أعوام، وكان من يراها يظنها في الخامسة عشرة، كان جسدها صغيرا، وكنت أحب لمساتها الرقيقة عندما تقربنى منها وتدفن وجهها في صدرى، كما كانت تجعلنى أقبل رقبتها، لم أكن وقتها أعرف أنها اللذة الجنسية، وكنت استغرب من تلك السخونة الغامضة والرعشة التى تجتاحنى وتجتاحها أيضا، كانت تغمض عينيها وترتعش متشبثة بى، كنت أخاف منها وأتمناها في آن واحد، كانت تضع يدى عند صدرها وتضغطها وتبتسم، كانت تروق لى طريقتها الغامضة في ملامسة مناطق جسدى الذى لم أفطن إليه والذى لم أكن قد اكتشفته أو تعرفت عليه، وجعلتنى افتح عينى في صباى. وعلى أنواع من اللذة أدمنتها، وجعلتنى منذ صباى كامل الرجولة، كانت وهى تحتضننى تبدو خائفة من قوة غامضة تجتاحها وتهزها، كان لجسدها رائحة خاصة، تشدنى وتلهبنى، كنت أشعر أن فتحات أنفى اتسعت لتستزيد من رائحتها الخاصة بها، رائحة تنفذ في أنفى مقترنة بالخبز والعجين والخميرة وطلع النخيل ورائحة الورد، كنت وقتها أعتقد أنها كانت تخاف أن يعرف أحد بقصتنا، كانت تحذرنى من الحديث مع أحد عن سرنا الخاص بنا. جعلتنى معها رجلا كاملا، وكنت أخاف على سرها الغامض، ولا أتكلم مع أحد. حتى عندما كان أقرانى يفاخرون برجولتهم، كنت أبدو صامتا، وكأننى لا تجارب لى، وكانوا يعتقدون أننى مازلت صبيا، وقتها أحببتها إلى حد الهوس، وأحببت معها رائحة جلدها وملمسه، كانت مشبعة بشهوة غامضة لا قرار لها. وعندما أصبحت يافعا قابلتها وحاولت، ولكنها كانت خائفة، غير أننى رأيتها وقد تغيرت قليلا، وصارت أشد فتنة وإغراء، وصارت تعاملنى بتحفظ يليق بسيده

تشعر بجمالها، ولكنها كانت كلما اختلست لحظة ودخلت عندها، تمنحني قبلة طويلة وخاطفة. تشعرني بسخونة الالتصاق والذوبان والارتواء في آن واحد، وتسألني عن دراستي، وتقول لي في كل مرة: سأختار لك عروستك بعد أن تتخرج كانت تنظر لي صامتة، لم تكن تتكلم إلا قليلا، ولكنها كانت تصدر أصوات غامضة وتلقائية، تلهب مشاعري دون أن تدري، وكنا نرتعش من العناق، والملامسة، ولكنها أبدا لم تكتمل بأركانها المنطقية، وكنت أخبرها بما أراه في أحلامي معها، وكان يطيب لها أن تسمع مني ما فعلته بها في نومي، وكانت بالمقابل تحكي لي عما تراه في نومها وتخبرني بوقائع حلمت بها هي معي، كانت وقائعه حلمها تجرى في غرفة التبن، وفي الحوش بجوار البقرة، وعند الفرن، وعلى شريط السكة الحديد، وعلى بسطة السلم، وفي كل مرة كانت تأتي بالجديد والمثير، كنت استحي أمامها أن اسمي الأشياء باسمائها المتعارف عليها، ولكنها كانت تلح على في ذكر الأسماء والأفعال باسمائها السوقية، كنت أتحرق اليها، وكانت هي تعرف وقالت إنها تخاف من قوة غامضة يمكن أن تؤذيها لو تمادت معي. وقتها كانت خائفة من آماليا حماتها، وكانت تشير إليها وهي تهمس في أذني:

- دي عقربة وتشوف بودانها.

شعرت وقتها أنني رجل كامل، وصارت لي امرأة أغازلها، وأسكن إليها، وتشبعني وتزورني في الأحلام، وكانت تنمي احساسي برجولتي، وتذكرني بأنني اجعلها ترتوي من مجرد الملامسة والعناق، وكانت تشكو من ضرب فلتس لها على صدرها ووجهها وفخذيها، في أحد المرات جعلتني آراها عارية لتريني آثار الضربات التي كالها لها فلتس، وأخبرتني للمرة الأولى أنه لايباشرها إلا بعد أن يضربها، وحذرتني من ضرب زوجتي عندما أتزوج، غير أنني كنت أشعر أنني أدخرها لوقت سيأتي فيما بعد، وكنت اعتبرها في

طوعي، وتحت إرادتي، وكانت هي تغذى هذا الشعور وتنميه، وتحيلني إلى لقاء مرتقب، فى علم الغيب، ارتوى فيه بعمق وأطفيء شهوتى، عندما تحين الفرصة المناسبة (لما العقربة دى تموت، هبقى لوحدى، وتعمل فيا اللى أنت عايزه، هو أنا أقدر عليك؟) غير أن هذا اللقاء المرتقب وأنا كامل الرجولة لم يتم قط.

تأملت راعوث الآن. بقايا الجمال القديم، تغضن وجهها، البياض الصافى أصبح باهتا مشوبا بإصفرار، نفس الحسنة السوداء بجوار أنفها مثل حبة الفلفل الأسود نمت بجوارها شعرة بيضاء، كنت أخاف منها ولا ألمسها، رقبتها أصبحت غليظة وامتلأت بالتجاعيد، صدرها الصغير المستدير تلاشى تحت ملابسها، عيناها الواسعتان أصبحتا غائرتين، احاطهما السواد والتجاعيد وقدمها أصبحت خشنة وكعبها تشقق، كان لونه أحمر ورديا وناعما، شفتاها جفتا وأصبحتا متقرحتين، نفس فتحة القلم الضيقة المستديرة، ومع ذلك بدت تقاسيمها التى كانت تقصم ظهرى، واضحة المعالم وباسمه، وبدا شعرها الأشقر وقد غلب عليه البياض يطل من خلال غطاء رأسها الأسود القديم.

راعوث التى كانت فاتنة كممثلات السينما، كانت تبدو لى فى قمة النضارة والنظافة، أصبحت لا تعتنى بنفسها، جلبابها الباهت الأسود أصبح متربا وقذرا ومملوءا بالبقع من مخلفات بقايا روث الماشية، أظافرها طويلة وقذرة، الأوساخ تظهر عند رقبتها يبدو أنها لم تستحم من مدة طويلة.

رأيت كلَ هذا وهى جالسة، هل كانت راعوث باكورة الجنس؟.

غير أنها عندما كانت تغسل وجهها بالماء والصابون تبدو نضرة ومثيرة، انشغلت عنها بأمورى ومستقبلى، ولكننى أبدا لم أنس الرعشة الأولي التى كانت تشملنى عندما كنت أقترب منها.

لم أحاول أن أسأل عنها، عرفت أن فلتس زوجها قد أصابه الشلل، بعد أن أقنعه شقيقها سعيد، الذى كانت تكتب له الخطابات بالذهاب إلى أمريكا، وظل الأمل يراوده، ولكنه سافر إلى العراق ومكث هناك مدة بنى خلالها بيتا بالأسمنت، واشترى قطعة أرض، وترك بنتين وروماني، لم تفلح راعوث فى حمل ابنها على الاستمرار فى التعليم، وأصبح نجارا يعمل بالأجر، حاول فلتس قبل أن يصيبه الشلل أن يجعله يعمل فى السكة الحديد ولكنه فشل.

قالت وهى تبتسم وتنظر إلى المطبخ الذى غابت فيه زوجتى:

ـ ربنا سترها، أنت كنت شقى قوى، فيك حاجة..

وسكتت عندما شاهدت زوجتى قادمة تحمل الشاى.

جاءت زوجتى وجلست، وكانت راعوث تنظر إليها، لعلها تقارنها بنفسها، خيمت لحظة صمت قطعتها راعوث بالدعاء لزوجتى بطول العمر وصحة الأولاد، وصحة رجلها الذى هو أنا، وقالت لزوجتى:

ـ جوزك من زمان طيب وابن حلال، إحنا كنا جيران.

ـ صحيح؟.

ـ صحيح.

ـ كانت عشرة حلوة يامدام.

وكانت زوجتى تضحك.

★★★

ذهب تامر إلى الكلية ليستقر فى المدينة الجامعية خلال فترة الدراسة فى السنة النهائية، عندما وصل إلى هناك وبدأت عملية التسكين فى حجرات المدينة، أخبروه أن اسمه غير موجود فى كشوف المدينة.

كان تامر يسكن فى المدينة فى الأعوام الماضية، وسدد اشتراك المدينة هذا العام، كما أنه نجح بتقدير جيد جدا، وهو يزيد عن التقدير المطلوب للسكن فى المدينة.

اتصل بى تامر بالتليفون، وأخبرنى أنه لم يجد اسمه، سألته عن السبب فقال إنه لايعرف، وقال إن موظف المدينة المختص لايرد على استفسارات الطلاب، وأن تامر عندما سأله أم يرد عليه، أخبرته أننى سأحضر إلى مقر المدينة الجامعية، وطلبت منه أن لاينشغل.

أنا الذى انشغلت، لاشك فى أن هناك سببا جعلهم يشطبون اسمه من المدينة الجامعية.



عندما تأهبت للذهاب إلي الجامعة فى الصباح، حلقت ذقنى، ونظرت فى المرآة للمرة الأولى، عن قرب، هالنى ما رأيت، الحق أننى لم أنظر فى المرآة منذ مدة طويلة، انظر إليها فقط فى صالون الحلاق، كانت الصورة في مرآة الحلاق عندما يقص شعرى إجمالية، ولاتعنى بالتفاصيل الدقيقة، ولم يلفت نظرى الشكل الجديد لوجهى، فقد أصبح شاربى أبيض اللون تماما.

بعد أن كان لونه أسود فاحما، كما أصبح شعره خفيفا، وتغير شكل فمى، تداخلت شفتى السفلى من أطرافها ناحية الفم، وبدت الخطوط التى كانت تزين وجهى فى فترة الشباب، أخاديد عميقة، وظهرت بعض البقع السوداء عند أنفى وعينى، وحول رقبتى، وتغضنت وجناتى، لقد غدوت رجلا آخر، كيف فاتنى أن أكتشف كل هذا، أما عيناى فقد تحولتا إلى فتحات يحيطها السواد، وأصبحت جبهتى مليئة بالتجاعيد، وغدا شعر رأسى كطاقية بيضاء، وتهدل الجلد فى رقبتى وأصبح لى «لغد» كبيرا لم أره من قبل.

لم يكن هذا الشخص، الذي يطالعنى الآن فى المرآة، والذى أنظر إليه، يمت إلى الرجل الذى كنته قبل ذلك بصفة إجمالية، كان صورة هزلية للرجل الذى كنت على هيئته.

لم يكن معى أحد فى البيت، فقد ذهبت زوجتى إلى عملها، وتركت لى مبلغا من المال يكفى للذهاب إلى أسيوط والعودة منها فى سيارة مستأجرة خصوصا لايقل أجرها عن خمسين جنيها، وفضلا عن هذا فقد تركت ورقة مكتوب فيها ضرورة أن أشترى لكل من سميحة وتامر دجاجة مشوية أو كباب، وفاكهة أو حلوى شرقية.

زوجتى فيما يتعلق بالنقود كريمة معى، ولاتحاسبنى كثيرا كالأخريات من زوجات زملائى وأصدقائى الذين يشكون من حساب زوجاتهم العسير لهم.

كنت قد أعددت ملابسى منذ الليل، وكويت قميص، وأزلت الأتربة عن البدلة الكحلى باستخدام الفرشاة، آخر بدلة اشتريتها من مصانع العاشر من رمضان، أيام كنت فى القاهرة مع زميلي شفيق، لبستها ثلاث مرات فقط، وعلقتها في شماعتها بالدولاب ولم أشاهدها بعد ذلك.

ارتديت ملابسى الكاملة للمرة الأولى منذ أن خرجت على المعاش، منذ ستة شهور، وخيل إلى أن الملابس ضاقت علي، أصبحت حركتى فيها مقيدة، عندما بدأت فى ربط رباط العنق وقفل القميص تبين لى أن ياقة القميص ضاقت كثيرا، وأنه من العبث إغلاقها، استبدلت القميص بآخر، وشرعت فى إعداد منضدة المكواة، كويت الياقة فقط، وقمت بقياسها على الياقة الضيقة، وجدتها أوسع قليلا، كويت القميص كله، أكملت ارتداء ملابسى، وشرعت فى لبس الحذاء الذى اشتريته عندما اشتريت البدلة الجديدة، بحثت عنه، لم أعثر عليه، نظرت أسفل السرير وفى الأماكن المحتمل وجوده فيها، فلم أعثر له على أثر.

تذكرت.

كان الحذاء الذى أبحث عنه، هو نفس الحذاء الرخيص الذى اشتريته بدلا من الذى سرق منى فى المسجد عندما ذهبت إلى القاهرة لإحضار

مستحقاتى المالية، بعد أن خرجت على المعاش، اشتريته رخيصا من الأنواع الرديئة، لم يكمل المشوار، وتذكرت أننى لم أشتر غيره، كما أننى لم أكن بحاجة إليه، ولم يكن هناك سبب يجعلنى أرتدى هذا الحذاء الجديد، كنت كلما خرجت لشراء الجرائد، أو أى شىء خارج البيت، أضع قدمى فى أى حذاء قديم أو شبشب، وأخرج لتأدية المهمة وأعود، ولم أشعر قط بفقد هذا الحذاء.

ما العمل؟ وكل أحذيتى قديمة لاتصلح لمشوار بعيد كهذا، من المحتمل أن أقابل شخصيات محترمة ليس من اللائق أن أرتدى بدلة كاملة وحذاء أعوج.

مدينتنا ليس فيها أحذية جيدة، كما أن محلات الأحذية لاتفتح أبوابها إلا بعد العاشرة، وكانت لدى منذ مدة طويلة تجربة مع تلك الأنواع من الأحذية التى تباع هنا، فقد اشتريت حذاء من أفخم محلات المدينة، وكان البائع يعرفنى، وأخبرنى أنه أفخر ما أنتجته المصانع المصرية فى الاسكندرية، وكان شكل الحذاء يوحى بالتمدن والحداثة، اشتريته بمبلغ وقتها كان مبالغا فيه، وعندما لبست الحذاء وبدأت فى استعماله شعرت بوخزات متتالية وقاسية أثناء السير، وعندما خلعته تبين لى أن عددا من المسامير قد أطلت بأسنانها من جوف الحذاء الجديد، وهو ماجعلنى أذهب إلى فنى صيانة الأحذية فى المحافظ التى كنت أعمل فيها، وأعاد صياغته من جديد، ومع ذلك فلم يتحمل قدمى سوى شهرين وبعدها أصبح باليا، وبعدها امتنعت عن شراء الأحذية من مدينتى الصغيرة.

تأمر ابنى له خبرة فى شراء الأحذية، فهو لايشترى سوى الأحذية العصرية والغالية، وكثيرا ما نصحنى بأن أنبذ تلك الأنواع العتيقة من موديلات الأحذية وأن أشترى مثله الأحذية المستوردة من إيطاليا والتى تعج بها المحلات فى المحافظات الكبرى والقاهرة، ولكننى كنت أصم أذنى عن نصائحه وأكتفى بشراء الأنواع التقليدية ومتوسطة الثمن.

وقررت إرجاء السفر، وانتظار عودة زوجتى لتخصيص مبلغ آخر لمواجهة الحاجة الطارئة لحذاء.

★★★

المسافة بيننا وبين المدينة الموجودة فيها الجامعة تستغرق ساعة، كانت زوجتى قد طلبت منى أن أستأجر سيارة تأخذنى خصيصا ولا أركب الميكروباس بالنفر، ولكننى أهملت نصيحتها، عندما يمتلىء الميكروباس بالركاب يتحرك، سائق الميكروباس قطع المسافة فى ساعة ونصف الساعة، لأنه كان يتوقف كثيرا بجوار بعض القرى لنزول الركاب وصعود ركاب جدد طوال الطريق، كانت السيارة مزدحمة دائما، وكلما نزل راكب يصعد غيره، الحر خانق، والعرق يبلل الملابس، بعض الركاب كانوا من العاملين فى (كار المعمار)، وكانت معهم أدوات عملهم، أجنات وشواكيش، ركب أحدهم بجوارى ومعه تلك المهمات وخفت أن تحتك أدواته بملابسى وتمزقها، تحملت صامتا، فقد أخطأت عندما لم أستأجر سيارة، وكان من الممكن أن أستخدم القطار، غير أن القطارات التى تتوقف لتنقل الركاب بين المحافظات بالغة القذارة ومواعيدها غير منتظمة.

وصلت إلى المدينة الجامعية فى تمام الخامسة، هذا الموعد فى الصيف قبل غروب الشمس بساعتين، سألت عن الموظف المختص، كان منهمكا فى ترتيب دوسيهات الطلبة، ولم تكن هناك غير فتحة ضيقة فى شباك يصعب محادثته من خلالها، وكان باب المكتب الموجود فيه مغلقا، حاولت الوقوف فى تلك الفتحة، والحديث معه، ولكننى لم أتمكن من شدة ازدحام الطلبة على تلك الفترة، ولم يكن يتكلم مع أحد منهم، سألت عن رئيسه المباشر فأخبرونى أنه يصلى العصر فى المصلى القريب، انتظرت حتى أنهى صلاته، أخبرته بعد أن خرج من المصلى بمشكلة ابنى.

أخبرني الرجل أنه توجد بعض الأسماء التي يتم استبعادها من السكن الجامعي في المدينة بناء على تقارير يحررها المشرفون، وهي تتعلق بسلوك الطلبة أثناء السكن خلال السنة الماضية، أخبرته أن ابني ليس من المشاغبين، عندما رأى الرجل حيرتي تبسط في الكلام معي وسألني عن وظيفتي، أخبرته أنني في المعاش، فقال:

ـ الأمن يراجع أسماء الطلبة المقيمين في المدينة، وكل طالب له نشاط سياسي، وخصوصا الأنشطة الدينية الأصولية تتم التوصية باستبعاده من كشوف المدينة.

تملكني الفزع.

★★★

توجهت إلى مبنى الأمن القريب من الجامعة.

المبنى فخم، أنشأ حديثا على ناصية شارع رئيسي واسع، قبل أن أصل إليه شاهدت عدد من الأشخاص يرتدون الملابس الرسمية وفي أيديهم السلاح الآلي وكانوا منتشرين على جانبي الشارع في نقاط متقاربة، عند المدخل، اعترضني أحد الأشخاص يحمل في يده جهاز لاسلكي صغير ويرتدي الملابس المدنية، أخبرته عن صفتي فقال:

ـ داخلية ولا حربية؟.

ـ داخلية.

ـ خدمة ولا معاش؟.

ـ معاش.

ـ انتظر شوية.

تحدث في الجهاز الذي يحمله وسمعته يذكر اسمي وصفتي، وقال لمن يحدثه لواء شرطة في المعاش، وقال إنني أريد أن أقابل الباشا.

لم يرد عليه أحد.

★★★

لم تكن في المكان الذي وقفت فيه مقاعد لجلوس الناس عليها، فقط كان هناك مكتب من الصاج القديم عليه دفتر وقلم وأمامه كرسي، وكنت أشعر بتعب لأنني قطعت المسافة ما بين الجامعة ومكتب الأمن سيرا على قدمي في هذا الحر القاتل، وهي مسافة طويلة مشيتها تحت وهج الشمس، وكنت أريد أن أجلس لأجل أن يجف عرقي قليلا، وكنت أيضا أشعر بالعطش الشديد، وكنت خلال سيري أبحث عن أي محل أو كشك يبيع المياه أو المشروبات الباردة فلم أجد.

كان الشخص الذي اعترضني يدخن بشراهة، وكان يقطع المسافة ما بين المدخل والمكان الذي أقف جيئة وذهابا وهو تائه وواجم، تارة يقترب من الحائط ويلمسه برأسه ووجهه، وتارة أخرى ينظر إلي الشارع ولا يتكلم، كان يبدو عليه القلق والوجوم، لاشك أن موعد انصرافه قد حان، ولم يحضر زميله الذي سيتسلم مكانه، بعد ربع ساعة جاء زميله، وقفا معا بالقرب مني وأنا مستند إلى حائط، تناول الشخص الذي وصل حالا جهاز اللاسلكي من زميله، وناوله سيجارة وبدءا يتحدثان، عرفت أن الشخص الذي قابلني تقدم إلى الفتاة التي كان يحبها، ولكن أهلها رفضوه، وبدأ زميله يواسيه وسمعته يقول له:

ـ إنت ممكن تلاقي ستها، دي حتة مدرسة ابتدائي لا راحت ولا جت.

كان الشخص لايزال واجما، ولم يتكلم، بينما استطرد زميله الذي يواسيه قائلا:

ـ مش هي بتحبك؟.

ـ أيوه.

ـ خلاص حطهم قدام الأمر الواقع واتجوزوا في السر، عرفي يعني.

ـ لع. لع. عيب.

ـ لع.. إيه؟.

ـ أصل كده عيب.

ـ مش أهلها رفضوك؟

ـ ويعدين أنا أعمل كده وأبهدلها؟ لع. لع أنا ها صبر ويمكن الأمور تتعدل.

كان الذى يقترح على زميله الزواج العرفى يتكلم بلهجة أهل القاهرة، انضم إليهما زميل ثالث، كان يعرف الحكاية، وقال للأول:

ـ اصبر ويمكن تنساها، أنا حصل معاى كده وصبرت ونسيت، وتجوزت غيرها وعندى ولدين.

لم يرد الشخص، وتبادلوا السجائر فيما بينهم، وبدأ الثانى يطلق النكات، وقال إن سبعة من المغفلين اشتروا سيارة تاكسى حمولتها سبعة من الركاب لتشغيلها بين القاهرة والاسكندرية، ولأن كل منهم لايثق فى الآخرين ولا فى السائق، فكانوا كل مشوار يركبون السيارة فى ذهابها وعودتها حتى لايسرقهم السائق، وعندما لم يضحك أحد، أخبرهم أن شاب مدلل زوجته أمه من فتاة جميلة، وفى يوم الصباحية ذهب إلى والدته وبكى لأجل أن تتركه ينام مع عروسته ليلة أخرى.

لم تفلح النكات فى إزالة الحالة التى كان فيها الشخص، وظلوا ساكتين فترة وتحولوا إلى موضوع آخر، وقال الأول موجها كلامه لزميله الثانى:

ـ على فكرة أنا مش عايز دورى فى الجمعية.

ـ ليه؟.

ـ أصل كنت ناوى أعمل حاجة والموضوع خلاص انتهى.

ـ ياسيدى خدها واعمل أى حاجة.

ـ لو واحد من الزملاء عايزها، أنا استنى.

ـ لما أشوف.

مرت فتاة فى الشارع ترتدى ملابس ضيقة لونها أحمر فاقع، وكانت تتلوى أثناء سيرها، يبدو أنها اعتادت السير فى هذا المكان، وسمعنا جميعا فرد الحراسة الذى يقف فى الشارع يصيح بأعلى صوته:

ـ ياحفيظ احفظنا.

وضحك الواقفون، وضحكت أنا، وقال لى الشخص الأخير:

ـ بنسلى نفسنا، نعمل إيه ياحاج؟.

يبدو أنه نسى أننى لواء.

مضى على وجودى ساعة إلا ربعا، وأنا مازلت واقفا، ولم أتلق إجابة من المسئول الذى طلبت مقابلته، أنا أعرفه جيدا، وأخبرنى الشخص أنه موجود ولم يغادر مكتبه، وبدأت أشعر بالملل، وكان حديث الواقفين عن مسئول فى المكتب يسىء معاملتهم، وقال واحد منهم إنه كتب طلب نقل ليعمل بعيدا عن هذا المسئول حتى لايرتكب جريمة تقوده إلى محاكمة عسكرية تضيع مستقبله.

انصرف الشخص الأول والذى جاء بعده وبقى زميلهما الثالث.

★★★

وصل شخص يرتدى ملابس بسيطة، وسأل عن المسئول الذى سألت عنه أنا، وقال له الشخص:

ـ البطاقة؟.

أخرج الرجل من جيبه البطاقة دون أن يتكلم، وبدأ الشخص ينقل بياناتها فى دفتر كبير موضوع على مكتب قديم، ثم احتفظ بالبطاقة فى درج المكتب.

قرأ اسم الرجل فى جهاز اللاسلكى، جاء الرد فورا:

ـ خليه يتفضل.

سألت الشخص عن صفة هذا الرجل الذى انفتحت له الأبواب، أخرج البطاقة من الدرج وقرأ من خانة الوظيفة:

ـ مقاول.

وقال الشخص إنه يتردد كثيرا على هذا المسئول.

سألنى الشخص الجديد فجأة بجفاء غير مبرر.

ـ إنت بتشتغل إيه؟.

أخبرته عن صفتى.

لم يتكلم.

عاد زميلاه الذين انصرفا منذ قليل، وفى أيديهما السجائر ووقفا بعيدا عنا يتكلمان فى مشكلة الشخص الذى رفضه أهل الفتاة التى يحبها، وكان زميله الذى يتحدث بلهجة أهل القاهرة لايزال يحرضه على الهروب والزواج العرفى، والثانى يرفض، وقال له:

ـ دى ممكن تحصل فيها مصيبة.

ـ ولايهمك، يزعلوا شوية وبعدين يرضوا بالأمر الواقع.

تكرر رفض الشخص، وكان لايزال مكتئبا ويدخن السجائر بشراهة، وبدا زميلهم الثالث يستجوبنى كأننى مطلوب لديهم:

ـ كنت بتشتغل فين؟.

ـ فى القاهرة.

ـ طيب إيه اللى جابك هنا؟.

ـ بلدى وأولادى هنا.

ـ هنا؟.

ـ مركز........

ـ أنا برضه من مركز........

ـ أهلا وسهلا، إحنا بلديات...

ـ تعرف عبدالموجود أبو غريب؟.

ـ أيوه جارى فى السكن.

ـ دا يبقى جوز بنت خالة أمى.

ـ أهلا وسهلا.. أنا هانتظر هنا كتير؟.

ـ لحظة واحدة.

شعرت فى تلك اللحظة أننى تافه، وكأننى لاشىء، لعنت الظروف التى أجبرتنى على الوقوف فى مثل هذا الموقف، لو أن مواطن يريد أن يبلغهم معلومة تخص الأمن العام أو الإرهاب هل سيتركونه هكذا؟ هل هو الغرور أو الاستهانة بالناس؟ فكرت فى العودة، غير أن سرعان ما أننى عدلت لاعتقادى أننى لن أنتظر أكثر مما انتظرت.

كدت أن أخبر الشخص الذى استجوبنى برغبتى فى كوب ماء أروى به عطشى الشديد، ولكنه تركنى وذهب إلى الشخص الأول الذي كان لايزال واجما، وهمس فى أذنه بكلمات وهو ينظر ناحيتى، وسمعت الأخير يقول له:

ـ أنا ذنبى إيه؟، هو كده أول ماييجى هنا واحد محترم، الراجل اللى فوق يلطعه بالساعة والاتنين.

فوضت أمرى لله وسكت.

★★★

مضى على وجودى ساعتان!

لو كان الموضوع الذى أتيت من أجله يخصنى لضحيت به، ولكننى أخشى أن يكون ابنى قد انخرط فى إحدى التنظيمات المتطرفة، أو اندمج فى أعمال سياسية أخرى لاترضى عنها الدولة، ويعرض مستقبله للخطر فى

الوقت الذى كنت مشغول عنه بعملى، ولم يكن لدى الوقت لمتابعته وملاحظته جيدا، وهو احتمال وارد فى غيبة الرقابة.

ولكن تامر كان طبيعيا ولم ألحظ عليه قط أى مظهر من مظاهر التطرف أو حتى ممارسة السياسة، فقد كان يصلى ويصوم معنا تحت سمعنا وبصرنا، وكان في الوقت نفسه يشاهد برامج التليفزيون، ويحدق فى المغنيات والراقصات.

لولا رغبتى فى التعرف على السبب الذى من أجله لم يتم إدراج اسم ابنى فى كشوف المدينة الجامعية لرفضت أن أنتظر هكذا على هذا النحو المهين، هل يقصد هذا المسئول أن يجعلنى أمل من الانتظار حتى أكون طوع أمره؟، وماذا يريد منى؟، صحيح أن الواحد منا عندما تنتهى خدمته يصبح لافائدة منه، ولا أحد يريدنا.

رأيت المقاول ـ الذى جاء بعدى ودخل قبلى ـ ينزل من على السلم، ثم اتجه فورا إلى الباب، ونسى بطاقته التى تركها عند الشخص.

سمعت الجهاز الذى يمسكه الشخص ينادى اسمى، رفعه ووضعه عند أذنه، وبعدها أشار نحوى، وأشار إلى السلم وقال:

ـ اتفضل.

اتجهت ناحية السلم، قابلنى شخص يرتدى الملابس المدنية، وسألنى:

ـ أنت.....؟.

ـ ايوه.

ـ امشى ورايا.

قادنى إلى غرفة بالطابق الثانى، وأشار إلى مكتب فارغ، وأدخلنى فيه، ثم تركنى وخرج قبل أن أطلب منه ماء لأشرب، فقد كنت أشعر بالعطش الشديد.

جلست على أول كرسى صادفنى، ولأننى كنت واقفا لفترة طويلة فقد شعرت بألم فى ظهرى، وعندما بدأت أستريح وجدت التراب مكدس على الكراسى الأخرى ولم ينفض منذ فترة طويلة، حاولت النهوض ولكننى أيقنت أن هذا لن يفيدنى فقد التصق التراب بظهرى وملابسى المبللة بالعرق، ولو جلست على كرسى آخر فسأحمل تراب الكرسى الثانى، اكتفيت بتراب الكرسى الذى جلست عليه، وبقيت جالسا بلا حراك.

كانت الغرفة خالية من الأثاث إلا من هذا المكتب القديم ويضع كراسى متهالكة، الكرسى الموضوع على المكتب ليجلس عليه صاحب المكان الجديد، ولكنه أيضا يعلوه التراب الناعم، فى الركن دولاب من الصاج مغلق بقفل وفوقه زجاجة مياه معدنية قديمة مملوءة حتى المنتصف بسائل يشبه الزيت، وكان التراب على بلاط أرضية الغرفة كثيفا، طالت جلستى فى مهرجان التراب الذى بدأت استنشق رائحته التى تجلب لى ضيق التنفس.

★★★

فتح الباب فجأة وأطل منه الشخص الذى أحضرنى، وقال:

ـ الباشا طلبك.

ثم قادنى عبر ممر طويل وأدخلنى فى باب مغلق، فتح الشخص الباب، قادنا الباب إلى ردهة مفروشة بقطعة سجاد فخمة، الردهة فى نهايتها باب آخر مكسو بالجوخ الأخضر وفى أعلاه فتحة مستديرة عليها زجاج سميك، نظر منها الشخص، وقال:

ـ انتظر لحظة.

ورأينا الباشا يشرب من كوب ماء، وبعد أن وضع الكوب فتح الشخص الباب الزنبركى، وقال:

ـ خش.

وتركنى أدخل.

فى الناحية البعيدة من الغرفة الواسعة رأيت مكتب فخم من خشب الماهوجنى اللامع، لونه بني، يجلس عليه المسئول الذى أعرفه بملابسه المدنية، كان وجهه أبيض مشوبا بحمرة، زاده الضوء الخافت الذى ينسكب عليه من مصباح خفي تألقا، كان الضوء ينبعث من مكان غير معروف فى الحجرة، عندما اقتربت منه نهض قليلا ولم يكتمل انتصاب جسده، لو كان محتاجا لى لهب واقفا، ولكنه معدوم الذوق، مد يده وصافحنى، علامات الصحة والقوة واضحة عليه، امتلأ قليلا عن الوقت الذى كنت أعرفه فيه، حوله عدد لا يحصى من التليفونات والأجهزة التى تصدر أصوات معدنية خافتة، وفى ركن المكتب رأيت جهاز كمبيوتر حديث شاشته تمتلىء بمربعات الملونة تتداخل بسرعة فى وضع التوقف، وفى مواجهة المسئول من ناحية اليمين جهاز تليفزيون كبير، كان يعمل بدون صوت، قال:

ـ أهلا.

ونطقها بطريقة (خلصنا احنا مش فاضيين).

قلت على الفور:

– فيه عندى موضوع صغير.

قال دون أن ينظر ناحيتى:

ـ اتفضل.

ـ ابنى طالب فى الجامعة فى كلية التجارة.

رن تليفون بجواره، رفع السماعة ووضعها على أذنه ولم يتكلم، وظل يستمع وهو يصدر صوت من أنفه علامة الموافقة على ما يقوله الجانب الآخر، وكان من آن لآخر ينظر إلى، فكرت فى القيام من مكانى والخروج لأتركه يتكلم براحته، ولكننى قررت أن أبقى على قلبه، وليذهب إلى الجحيم.

بعد أن فرغ من التليفون وضع السماعة، ونظر نحوى، وكان على أن أبدأ من جديد.

ـ ابنى طالب فى الجامعة فى كلية التجارة سدد رسوم المدينة الجامعية ولم يجد اسمه فى الكشوف.

سألنى:

ـ كان ساكن فى المدينة قبل كده؟.

ـ ايوه.

ـ طيب إيه اللى حصل؟.

ـ اسمه مش موجود فى كشوف التسكين.

ـ ليه؟.

ـ معرفش، والموظف المسئول طلب منى مراجعة الأمن.

ـ من غير سبب؟.

ـ من غير سبب؟.

ضغط جرسا بجواره، جاء شخص يرتدى (يونيفورم) وقال له:

ـ شوف الباشا يشرب إيه؟.

ـ شكرا.

ـ لازم تشرب.

ـ شاى فتلة وسكر بره.

ـ رفع سماعة التليفون، وقبل أن يتكلم سألنى عن اسم ابني والكلية التى يدرس فيها، أخبرته بها، أملى البيانات على محدثه على الناحية الأخرى، وطلب منه أن يكشف عنه.

مضت خمس دقائق، سألنى فيها ببرود عن صحتى وصحة الأولاد، وسألنى عن كيفية قضاء أوقاتى بعد خروجى للمعاش، أخبرته أننى أستيقظ من النوم لأجل أن أكل، ثم أنام مرة أخرى وأستيقظ من جديد وآكل، وقال:

ـ تعوض اللى فات من الأكل.

ولم أفهم ماذا يقصد، وقبل أن أستفسر منه رن جرس التليفون الذى

كان يتكلم فيه، مد يده وتناول السماعة ولم يقربها من أذنه، ظل فترة يستمع، ثم وضع السماعة والتفت إلي وقال:

ـ مفيش حاجة على ابنك.

نهضت واقفا، وقلت وأنا أمد له يدى مصافحا:

ـ شكرا.

ـ الشاى؟.

ـ اشربه أنت.

وخرجت على الفور إلى الباب وصفعته وهو يغلق خلفى، الحق أنه ما كان ينبغى أن أخرج قبل أن أشرب الشاى، فقد كنت فى تلك اللحظة أحن بشغف بالغ إلى رشفة ماء كان من الممكن أن تأتى بجوار كوب الشاى، ولكننى أسرعت بالخروج لفرط غيظى وضيقى وشعورى بالمهانة.

★★★

وجدت الموظف المسئول عن المدينة يصلى المغرب فى المصلى، دخلت المصلى، ووضعت فمى فى أحد الصنابير وفتحته إلى أن ارتويت، توضأت وصليت، وقفت بجوار المسئول عن المدينة ولحقته فى الركعة الثانية، بعد أن أنهى الصلاة وجدنى بجواره، سألنى عما فعلت أخبرته، لبس الحذاء، ولبست حذائى وخرجنا معا، قادنى إلى مكتبه واستدعى الموظف وطلب منه أن يبحث عن أسم ابنى بجدية واهتمام، بعد أن شربنا الشاى عاد الموظف وأخبرنى أن الاسم موجود فى الكشوف.

(٥)

الأيام بطيئة، ثقيلة، ورتيبة، ومتماثلة، كل يوم مثل الذى قبله والذي بعده، أذهب فى اليوم الثانى عشر من الشهر إلى البنك، أقبض المعاش.

كان موظف البنك الشاب يقابلنى بوجه بشوش فى أول الأمر،

ويصافحني، ويسألني عن أحوالي، وفى المرة الثانية، لم يتركنى أنتظر، وفى المرة الثالثة تجاهلنى، حتى وصلت عنده، ألقيت عليه تحية الصباح، حيانى تحية عابرة، وناولنى الورقة التى سأكتب فيها مبلغ المعاش، لأوقع عليها، ويضاهي توقيعى على التوقيع المسجل فى الكمبيوتر، وكنت أتناول منه المبلغ وأضعه فى جيبى دون أن أعده، وأشكره وأنصرف.

فى المرة الأخيرة، تركنى الموظف حتى فرغ من كتابة أوراق كانت أمامه، ثم بدأ فى عد النقود التى فى عهدته، وأثبتها فى ورقة، ثم بدا يراجع بعض حوافظ الصرف، وبعد أن أنهى كل هذا، حيانى بإيماءة خفيفة من رأسه، وقدم لى الورقة التى سأوقع عليها دون كلام، كتبت الرقم ووقعت، و سألنى عن رقم الحساب، لم أحفظ الرقم، وفى المرات الماضية كان يصرف لى، دون أن يسألنى عن الرقم، وكان يكتفى بضرب الاسم على الكمبيوتر، وتظهر على الفور صفحة الحساب، أخبرته أننى لا أحفظ الرقم، تناول كارت خاص بالبنك، وضرب الاسم على الشاشة، وتناول قلما وكتب فى الكارت رقم الحساب، وناوله لى وقال:

ـ المرة الجاية تجيبها معاك.

ـ حاضر.

الحق أننى شعرت بالغيظ منه، فقد كان كل مرة يصرف لى دون أن يسألني عن رقم الحساب، فهل كان يحفظه ونسيه؟، وعندما ناولنى النقود، لم أضعها فى جيبى مثل كل مرة، وشرعت أعدها، ورقة ورقة، بتأني وهدوء، وأخرجت ثلاث ورقات من فئة العشرة جنيهات كانت بالية وقديمة، وضعتها أمامه، وطلبت منه أن يستبدلها فتناول الأوراق وقلب فيها وقال:

ـ مالها؟.

ـ قديمة ومهلهلة.

لوى شفتيه، وتناول ثلاث ورقات بدلا منها، وضعها أمامى، أخذت الأوراق الجديدة، وضعتها فى جيبى، ومشيت دون أن أحييه، أو حتى أشكره، وقررت فى المرة القادمة أن أجلس فى مكتب مدير البنك، وأطلب منه أن يكلف أى عامل من عنده بإحضار المعاش لى، كما كنت أفعل أثناء الخدمة.



أجلس أمام التليفزيون ساعات طويلة، وقد أكسبني الجلوس الطويل أمام التليفزيون قدرة على نقد البرامج والمسلسلات، الحقيقة أن برامج قنوات التليفزيون الحوارية مسلية، أقصد قنوات الجزيرة، العربية، دبى، وأبوظبى، أما القنوات الفضائية المصرية وباقى القنوات الفضائية العربية فتشعرك أنك تجلس فى حصة درس تاريخ، وكل فعل فيها يتم بتوجيهات من الوزير، المذيعات المصريات ينظرن إلينا باستخفاف واستعلاء أما المذيعون فيعتقدون أن المستمعين كلهم من النساء أو السيدات الجميلات، فتراه يسوى شعره ويعبث بشاربه ويعدل دائما من رباط عنقه، ويبتسم فى كل لحظة كبائع فى محل، أما الضيوف فيتعاملون مع التاريخ كمباريات الكرة، فترى أحدهم يميل إلى جمال عبدالناصر ولايرى فى مصر رؤساء بعده، وأن من جاء بعده جلب للبلاد البلاء والعار، والثانى يميل إلى السادات ولايرى لمصر رؤساء غيره، ولامانع عنده من سب عبدالناصر، والملك فأروق فقط والثالث لايحب هذا ولاذاك، وأى برنامج حوارى لاتستطيع أن تجلس وتستمع أكثر من ربع ساعة، كلها موضوعات مكررة، الضيوف وجوههم مألوفة ومعروفة والغريب أنهم جميعا يعملون فى وظائف حكومية، ويخيل إلى أن الضيوف يعملون فى التليفزيون، لأننا نراهم كل يوم، وينتقلون من برنامج إلى آخر، منوعات واقتصاد والزراعة ورياضة وسياسة وطب وأدب، وكانوا كلهم ينتقدون صدام حسين لأنه لم يستجب إلى أمريكا ويخرج من العراق.

ومع ذلك فأنا أستعرض قنواته التى تزيد عن الخمسمائة قناة، بكل لغات الأرض، أميل إلى البرامج التاريخية، يروقنى التاريخ، أحب أن أرى تلك اللحظات الحية بصور أصحابها الحقيقيين، نابليون بملابسه الملونة الضيقة، وغطاء رأسه الغريب، هتلر بمشيته السريعة ويده الممدودة لأعلى، موسولينى وحركته البطيئة، تشرشل بقبعته العريضة وسيجاره الغليظ. أيزنهاور وطوله الفارع، سفير اليابان الذى تسلم انذار الأمريكيين منذ ستين عاما، الملك عبدالله بقامته النحيفة وحفيده الملك حسين بصوته الأجش، لقطات للزعيم عبدالناصر فى مؤتمر باندونج وقميصه الأبيض الخفيف المفتوح من أسفل الجانبين، ونظرة الثقة التى بهرت العالم، لو كان لايزال حيا، هل كنت أخرج على المعاش فى منتصف العمر هكذا، لقد دخلت كلية الشرطة بنسبة الخمسين فى المائة عمالاً وفلاحين، ولم أخجل حين ملأت الاستمارة وقتها وكتبت فى خانة مهنة ولى الأمر فلاح، لم يتوقف وقتها عندها أحد، كانت كلمة فلاح وقتها تشرف، وكان الأعيان وقتها يتشرفون بالانتساب إلى الفلاحين.

عندما كنت أستعد للترقية من عميد إلى لواء، أعيد تقييمنا من جديد، وكأننا سندخل الكلية من الأول، كنا سبعة ضباط من الذين حل عليهم الدور للترقية إلى رتبة اللواء فى الإدارة التى نعمل بها.

ذهبنا إلى اللجنة نرتدى الملابس الرسمية السوداء، كل شيء فينا يلمع، الكاب الأسود المقصب اللامع، الأحذية السوداء كلها تلمع، العلامات على الأكتاف والأزرار كلها تلمع، جلسنا فى مكتب مدير مكتب رئيس المصلحة التي نتبعها قبل الموعد المحدد للمقابلة التى ستجرى لمن حل عليهم الدور للترقية لاختيار من يصلح لرتبة اللواء العامل ومن لايصلح سيحال إلى المعاش، تكلمنا معا، فجأة قال زميلنا محسن:

على فكرة لجنة التقييم ستضع فى اعتبارها ثلاثة عوامل:

الأول: المظهر العام، والثاني: الجزاءات طوال الخدمة، والثالث: العائلة والأقارب والمسلك العام.

نظرنا بعضنا لبعض، كان محسن مفرطا فى البدانة، ترك نفسه على هواها، لم يكبح جماحها فى الأكل والشرب والجنس، لم يعمل حساب اللجنة التى شكلت هذا العام فقط، أجبر متعهد الملابس على اختراع مقاس خاص به وبكرشه الكبير، لو كان يعلم لأذاب كمية الشحوم التى أثقلت جسده وأنهكته، يبدو أنه فهم مافكرت فيه، التفت إلي وضرب على صدره العريض بيده وقال:

ـ أنتو فاكرين إن ده دهن، أنا تخين بالوراثة، والدى كان تخين، كان ياور فى القصر الجمهورى أيام عبدالناصر، مات فى الخدمة، عمل مع عبدالناصر مدة طويلة، ولما مات حضر عبدالناصر جنازته العسكرية وسلم عليا، وسألنى:

ـ لما تكبر تحب تطلع إيه؟.

قلت له:

ـ ظابط..

كنت فى الابتدائية.. سألنى عبدالناصر عن طموحى، قلت أكون مكان والدى.

وعدنى، ولما مات عبدالناصر شعرت أن أبى مات من جديد، وكنت وقتها فى الثانوية العامة، وسقطت فيها، وفى السنة الثانية نجحت بستين فى المائة، ولم أقبل لولا خالى الذى تدخل.

سكت محسن لحظة وقال: خالى كان فى المحكمة العسكرية مساعد أول الوزير الذى نتبعه والذى سيرأس اللجنة التى ستتولى تقييمنا يعرفنا كلنا

فراد فردا، لأننا نعمل معه وتحت رئاسته منذ مدة طويلة، ونعرض عليه أوراق العمل ويؤشر عليها. فلماذا المقابلة؟

تليفون المكتب الذى نجلس فيه لم ينقطع عن الرنين، صاحبه غير موجود، نحن ضيوف لا يصح لنا أن نرد على تليفونات.

جاء مدير المكتب، رحب بنا دون اهتمام من باب تأدية الواجب، وطلب من عسكرى المكتب وهو يسرع إلى أحد التليفونات الذى يرن أن يسألنا عما نشربه، قال محسن أى شىء إلا الليمون، كان يتشاءم منه، يقول إنه كان يشربه فى مكتب مفتش الداخلية عندما يحقق معه فى الأخطاء الإدارية التى ارتكبها خلال خدمته الطويلة. فاقترن شرب الليمون عنده بسين وجيم ومنسوب إليك.

ضحكنا كلنا إلا مدير المكتب الذى كان يريد أن يبدو أمامنا وقورا ورصينا، مع أنه أحدث منا، مازال فى رتبة العقيد، كنا نضحك من أفواهنا فقط، ولكننا كنا نتوجس من المقابلة عديمة الجدوى، هل يريد مساعد الوزير أن يتفرج علينا مع اللجنة، ويجلسنا أمامه كتلاميذ؟

كنا ننظر بعضنا لبعض. كل منا يقيس زميله على نفسه، هل محسن أطول منى؟ وهل هشام أتخن؟. اللون الأسمر هل يؤخذ فى الحسبان؟، أم يتم اختيار الأبيض والأشقر مثل عبدالسميع؟.

أخيرا جلسنا فترة صامتين.

شعرنا بالمهانة، بعد أن عرفنا أنه تم اختيار ضابط من الدفعة التى ننتمى إليها ليحضر فى اللجنة فأحسسنا بمزيد من القهر، هل يقيمنا زميلنا ابن دفعتنا، وهو من يقيمه؟

أفتى أحد زملائنا بأن هذه اللجنة غير قانونية. لم يكن لفتواه معنى. حاول أن يستند إلى نص دستورى. وقبل أن يدلل على عدم مشروعية اللجنة

دخل أحد المجندين، وقف على باب المكتب الذى كنا نجلس فيه ونادى على أسم واحد منا مجردا من رتبته. كان النداء مستفزا، كأننا فى محكمة، خصوصا وأن الذى ينادى علينا هو عسكرى مجند وينادى على ضباط.

كان النداء حسب الترتيب في كشف الأقدمية، نهض زميلنا الذى سمع اسمه وأتجه إلى مرآة مثبته على الحائط وبدأ يراجع هيئته، لم يفطن إليه أحد وهو يفعلها، ثم وضع الكاب على رأسه واتجه إلى الباب الزنبركى الذى يؤدى إلى المكتب الموجود فيه اللجنة والذى يغلق من تلقاء نفسه، كان زميلنا يسير بخطوة عسكرية بطيئة ومنتظمة ويحرك ذراعيه كأنه يسير فى طابور.

انشغلنا بمدير المكتب الذى يتحدث فى التليفون مع امرأة وكأننا غير موجودين، كان يغازلها، ومن آن لآخر يثنى على ذوقها فى اختيار الملابس، وسمعناه وهو يحسد زوجها.

لم يخجل من وجودنا، ربما دار بخلده أننا سنخرج على المعاش بعد شهر، ولن يرانا بعدها، وحتى لو رآنا فلن نكون فى موقع السلطة لنحاسبه.

مكث زميلنا الذى استدعته اللجنة ربع ساعة ثم خرج. كان وجهه متهللا، نهضنا من أماكننا والتففنا حوله، سألناه عما حدث، لم ينتظر وقال إن أعضاء اللجنة يجلسون متجاورين على مكتب واسع، على شكل نصف دائرة، وقال إنهم ناقشوه وهم يأكلون الجاتوه، وانه جلس على كرسى فى مركز الدائرة بحيث أصبح فى مواجهتهم جميعا. وقال إنه عرف واحد منهم من أبناء دفعتنا، طول عمره على الحجر. وقال إنه تجاهله تماما، وكأنه لا يعرفه.

وفجأة دخل المجند، ونادى على الذى يليه فى الترتيب، هب زميلنا الذى سمع اسمه واقفا واتجه إلى الباب الزنبركى استأذن زميلنا الذى خرج فى الانصراف قبل يخبرنا عن الأسئلة التى وجهت إليه.

كنت أنا الأخير، وعندما جاء دورى دخلت وجدت نصف الدائرة التى تكلم عليها زميلنا. جلست فى البؤرة، فى الكرسى الفارغ الوحيد، وجدت أمام اللجنة بقايا قطع الجاتوه الذى تحدث عنه زميلنا الأول، كانوا لا يزالون يأكلون منه، ودخل عسكرى يحمل أكواب الشاى، ووضع أمام كل عضو من أعضاء اللجنة كوباً من الشاى، لم يعزم على رئيس اللجنة بالشاى. أنتظر رئيس اللجنة حتى انصرف عسكرى الشاى وسألنى وكأنه لا يعرفنى وقال:

– على فرض أنك رقيت إلى رتبة اللواء فأين تريد أن تعمل؟

قلت:

– فى أى مكان.

لم يرد. وسألنى عن الإنجازات التى حققتها فى الإدارة التى أنا مدير لها. وبالطبع لم أعثر على أى إنجازات يمكن أن تسعفنى الآن. لأننى كنت أقوم بعملى فقط ولم أتفرغ لحصر الانجازات، من المفترض أنها محصورة ومعروفة. حاولت أن أتكلم، ولكنه لم يتركنى وقال:

– كنت تعمل بالقرب من بلدك وأولادك حتى تم نقلك فى السنوات الأخيرة إلى القاهرة. صح؟

قلت:

– أيوه

سألنى:

– هل تريد العودة إلى الصعيد؟

قلت على الفور:

– نعم.

ولبى رغبتى بالفعل، وعدت نهائيا إلى الصعيد.

★ ★ ★

ارتداء الجلباب مريح، ويريح الجسم كله، كل أطرافك تصبح على راحتها، لا شيء يكبل ذراعيك ولا ساقيك، ولا تشعر بالقيود التى تفرضها عليك الملابس الإفرنجية الضيقة التي اعتقلت أجسادنا على مدى أربعين عاما. فى الجلباب تصبح حرا.

الجلباب الذى ارتديه من النوع البلدى الواسع، له فتحة مستديرة عند الرقبة والصدر، وله أكمام واسعة، يريحنى فى الجلوس. عند النوم أرتدى جلبابا آخر خفيفاً من نفس النوع أيضا، ولكنه قديم، فقط عيب واحد يغيظنى من ارتداء الجلباب عند النوم وهو أننى عندما أستيقظ فى الصباح أجد ذيل الجلباب عند رقبتي. وكل جسدى عاريا ومع ذلك فهو يضفى على الجسد من متعة التجرد التلقائى.

أما السير بالجلباب فيجعلك تخطو واثقا، تتحرك دون عائق، كما تحس فيه بالتجرد والكبرياء معا، كما أنك تلمس فيه روح العرى، تمشى وكأنك ترفرف، الجسد كله يتحرك بتناغم فى دفعة واحدة، كما أنه يشعرك بالانتماء إلى القرية التى ولدت فيها، والتى أصبحت جزء من المدينة التى أسكن فيها، تحس أنك واحدا من آلاف يرتدون مثلك الجلباب.

★★★

وصلتنى دعوة من وزارة الداخلية من الورق المصقول داخل مظروف من الورق المقوى وعليه شعار الشرطة باللون الذهى البارز، وعليه طوابع بريد. ومكتوب على المظروف اسمى وعنوانى. أما الدعوة فمكتوب فيها:

بمناسبة احتفالات عيد الشرطة

. يتشرف وزير الداخلية بدعوتكم لحضور احتفالات عيد الشرطة بيوم الوفاء حيث تلتقى فيه الأجيال المتعاقبة من ضباط الشرطة فى إطار الأسرة الواحدة فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس.

أسفل الدعوة مكتوب الآتي:

- الدعوة شخصية

ابرز الدعوة عند الدخول

- الدخول من البوابة الرئيسية

- الحضور قبل الموعد بنصف ساعة

- مكان انتظار السيارات

- للاستعلام اتصل بأرقام... و...

شملني شعور بالفخر، فقد تذكرتنا الوزارة، وأقامت لنا حفلاً، أعطيت الدعوة لزوجتي، وقرأها الأولاد، وفرحوا جميعا. وقد أشعرتني تلك الدعوة بأنني مازلت في ذاكرة الوزارة التي استغنت عني. رفعت الدعوة من روحي المعنوية.

★★★

في اليوم المحدد كنت في ميدان العباسية الساعة التاسعة صباحا، دخلت من نفس الباب الذي دخلت منه خمسة وثلاثين سنة، تغيرت ألوانه، مدافع الخديو عباس لاتزال على جانبي الباب، أصبحت أكثر رصانة، رجال العلاقات العامة يقفون على باب الأكاديمية، قدم لي أحد الواقفين ورده صناعية ملفوفة في غلاف ورقي شفاف، وقدم لي آخر كيس من البلاستيك، فيه أجندة ونتيجة حائط مرسوم عليها صورة لسيارة شرطة، يقف بجوارها ضابط يرتدي الملابس الرسمية، وفي يده جهاز لاسلكي بجواره لأمن شرطة يجلس وأمامه جهاز كمبيوتر. وكان في قاع الكيس بلوك نوت صغير وقلم. سار معي أحدهم إلى أن دخلنا في سرادق كبير. الموائد مرصوصة فيه، جلس عليها زملائي الذين جاءوا قبلي، كان العدد كبيرا، وبعضهم كان

أصغر مني بكثير، جلست على أقرب مائدة. سمعت من ينادى على باسمى، اتجهت إلى مصدر الصوت رأيت أربعة من زملائى الذين خرجوا معى هشام زوج الاثنتين وأبو بكر ومعهم اثنين لا أعرفهما، سلموا على، وجلست بينهم، جاء عسكرى يرتدى يونيفورم، وفى يده ترموس مملوء بالماء الساخن، وخلفه آخر يحمل على يديه صينية عليها بعض أصناف الحلويات الشرقية، تناول أبو بكر واحدة، وتناولت أنا واحدة، اعتذر الباقون بسبب السكر، وقال هشام إنه مضطر للمغادرة بعد نصف ساعة، لأنه سيذهب للمستشفى لأجل أن يعمل تحليل صايم، تبادلنا بعض ذكريات العمل، ولاحظت أن بعضهم جاء بصحبة زوجته، ورأيت ضابطاً أعرفه يتأبط ذراع شابة حسناء، قلت لأبى بكر:

- ابنته؟

لكزنى أبو بكر فى كتفى وابتسم قائلا:

- زوجته.!

كان الرجل كبيرا فى السن، غير أن صحته كانت جيدة، وكان مستقيم الظهر من غير انحناء، وشعره الأبيض الكثيف يتوج رأسه، وكانت هى صبية ينسدل شعرها على كتفيها غزيرا، وكانت تتأبط ذراعه بفخر. وتوالى دخول الضباط. كانت مائدتنا بجوار الممر الذى يؤدى إلى الداخل، وهو ما جعلنا نرى كل الداخلين، بعضهم كان يمشى مستقيم الجذع وآخرون انحنوا على العكاز يتكئون عليه، كان واحد من الجالسين معنا يتولى تعريفنا بالداخلين.

ورأيت هشام ينهض من مكانه واتجه إلى أحد الداخلين، وانحنى على يده يقبلها بعنف وشغف، وكان الرجل يستند على ذراع شخص متين

البنيان يبدو أنه ابنه، لأنه كانت له نفس الملامح.

اعتدل الرجل قليلا وخلع النظارة عن عينية، وحدق فى زميلنا الذى قبل يده، يبدو أن الذاكرة لم تسعفه، فربت على كتف زميلنا برفق وسمعناه يقول له:

– والله فيك الخير، أنت محترم وابن ناس، بارك الله فيك.

وفاضت مشاعر الرجل، وانحدرت دمعتين من عينيه. مسحهما الرجل بمنديل كان فى يده، وواصل سيره متكئا على ذراع ابنه الذى كان يحمل له الكيس والوردة.

عاد هشام مبتهجا وقال إن هذا الرجل كان مديرا للأمن فى احدى محافظات الصعيد. كان محترما وواثقاً من نفسه.

كانت الموسيقى تصدح من مكبرات صوت منتشرة حول الموائد، ورجال العلاقات العامة يدورون حولنا وفى أيديهم دوسيهات ويطلبون من كل من يحتاج إلى أى شىء من الوزير أن يكتبه، وقال هشام:

– يعنى هنحتاج منه إيه؟ كتر خيره.

وفجأة قطع الموسيقى صوت أجش يعلن أنه ستجرى أنه ستجرى قرعة لاختيار اثنين لتأدية فريضة الحج على نفقة الوزارة، وبعدها أعلن أسماء الفائزين الذين رشحهم الكمبيوتر، وتحدث شخص عن أعمال صندوق التأمين ومساهماته فى علاج بعض الحالات الحرجة، وكان هذا يحسب له. وبعدها تحدث الوزير. ولم نسمعه بسبب عطل أصاب مكبر الصوت الذى بجوارنا، كان من الصعب رؤية المنصة التى يجلس عليها الوزير بسبب بعد المسافة الشاسع عنا، والعدد الكبير من الضباط السابقين.

سمعنا صيحات عند المنصة، لفرط بعد المسافة لم نتبينها، كان هناك حوار يدور بين الوزير وأرملة أحد ضباط الشرطة. لم نتبين طبيعة الحوار، تركت المائدة التى يجلس عليها زملائى، ومشيت مسافة طويلة حتى وصلت إلى مكان خال يمكننى منه أن أرى المنصة التى كانت مفروشة بالورود والتى يجلس عليها الوزير، دارت علينا زجاجات المرطبات، لم أجد عندى الشهية لها، وسمعنا الوزير يتحدث عن معاناة الوزارة في توفير العلاج، وقال إن الحالات التى تتطلب علاجا مكلفا نحاول أن نجد لها مخرجا. وقال إن الوزارة لا تتوانى عن مساعدتكم . وصفقنا له تصفيقا حادا ومتصلا، وهتف واحد لا أعرفه بحياة الوزير، حياه الوزير بإشارة من يده. ثم ختم الوزير كلامه وجلس.

وكان الجنود قد شرعوا يحملون أواني الزهور والأشجار التى أحضروها من مكان ما. وشرعوا يضعونها فى سيارة نقل لتعود بها.

★★★

وأنا خارج من الأكاديمية، شعرت من يمسك ذراعي ويشدنى، وعندما نظرت إليه وجدته أنور وجدى، لم يتغير فيه شيء. طوله الفارغ. رأسه الصلعاء، وجهه الأبيض، عيناه الثاقبتان، ابتسامته التى لم تفارقه، ربت على ظهرى وقال:

– مش معقول؟

وكنت قد تركته وهو فى رتبة المقدم، وكنت أنا فى رتبة النقيب إبان عملى فى القاهرة، وكان دائما يحلم برغبته فى العودة للعمل في الصعيد موطنه الأصلى، وأنه لولا زوجته القاهرية لما احتمل العمل فى القاهرة بضجيجها وزحامها وتفسخ علاقاتها الاجتماعية، وتحققت أمنيته بالفعل ونقلوه إلى الصعيد واستقر هناك من أسرته، وانقطعت أخباره عنى ، شعره في مؤخرة

رأسه الذى كان فاحم السواد أصبح لونه أبيض كالقطن.

الواقع أن صلتى به لم تكن مجرد زمالة بين ضابط ورئيسه، ولكنها امتدت لتشمل ما هو أعمق من مجرد تلك العلاقة السطحية، كان الرجل يتمتع بتكوين ثقافى جعله أقرب إلى فيلسوف، ولكن رغبته فى الثقافة والفكر تعارضت مع حبه الشديد للعمل الذى انهمك فيه وأهمل الثقافة.

عند لقائى معه لأول مرة، كان يقرأ فى كتاب ضخم اسمه الجريمة والعقاب لديستويفسكى، وكنت لجهلى الشديد أعتقد أنه يبحث فى علم الأجرام والعقاب، وضحك وقتها كما لم يضحك من قبل، وأخبرنى أنها رواية ممتازة لكاتب روسى اسمه ديستويفسكى، وبدأ يحكى لى عن شخصياتها. راسكولينوكوف، رازوميخين، صوفيا والعجوز المرابية، وأعطاها لى، وقرأتها، وانفتح أمامى باب كبير على مصراعيه كنت لا أعرف عنه شيئاً، باب الأدب الروائى، وأعطانى كتاباً آخر اسمه الأخوة كارمازوف، والمساكين، وحدث فى تلك الفترة التى عرفته فيها أن زار الرئيس السادات القدس واحتدم النقاش بيننا حول تلك المبادرة وتداعياتها، وكنت أنا ومعى زميلى صابر نتحفظ على الفكرة ذاتها. فلم يكن من اللائق أن نذهب إليهم وأن نلقى أسلحتنا فجأة بينما عدونا لا يزال يشهرها فى وجوهنا، هذا فضلا عن عدم صفاء قلوبهم التى حفرت فيها العنصرية أخاديد عميقة لا يمكن علاجها فجأة، وقال أنور وجدى أن تاريخنا الطويل لم يعرفنا كمحاربين. وقال إننا مزارعون ومسالمون حتى النخاع، وكان أجدادنا يبذرون الحبوب فى الأرض ويحرثونها ثم ينصرفون إلى عبادة الإله، ولهذا لم تجد المسيحية فى مصر أى مقاومة وكذلك الإسلام، وقد فاجأتنى وقتها تلك الفكرة، بل وبهرتنى طريقته فى التدليل على فكرته.

تذكرت كل هذا قبل أن يسألنى اللواء أنور:

– معك سيارة؟

– لا

– تعالى معى. أنا معى سيارة

كان أنور يميل إلى المزاح وسألنى:

– إنت سمعت كلام الوزير؟

قلت:

– آه

– وإيه رأيك؟

قلت:

– موظف كبير بدرجة وزير.

ضحك ولكزنى فى كتفى كما كان يفعل قال:

– كما أنت لسانك لاذع. سأحكى لك حكاية.

قلت له:

– تفضل.

قال بلهجته التهكمية:

– كان فيه ملك قديم، ذات يوم أحس بالضيق، وشعر بالاكتئاب من شدة الفقر الذى عم البلاد، فقال لوزيره الأول: ياوزير أريد أسمع حكاية أولها كذب، وآخرها كذب، وكلها كذب فى كذب في كدب، فكر الوزير وفكر، ثم جمع الأدباء والكتاب والصحفيين والإعلاميين ونشر إعلان في الجرائد فحواه أن من يحكي للملك حكاية كلها كذب سيكافئه الملك نائبا له، أما من يحكى حكاية فيه صدق فسيقتله الملك حرقا فى قطار الصعيد. طبعا الكتاب والأدباء والقصاصون والمحترفون خافوا، ولم يتقدم أحد سوى شاب فقير تخرج من الجامعة ولم يجد عملا. وسأله الوزير الأول: هل تعرف الشروط؟

قال الشاب: أعرفها. وقادوه إلى مجلس الملك وبدأ الشاب يحكي وقال: من قديم الزمان، قبل أن يتزوج أبى من أمى فى عصر الفاطميين، كنت أسير فى شوارع نيويورك عاريا، وحجرى مملوء بالبيض، والزلط، والقنابل العنقودية، وفجأة سقطت منى بيضة. انكسرت. خرج منها ديك يزأر كالأسد. ركبت الديك، طلع فوق برج من الأبراج التى هدمها سقراط فيما بعد بطائرات البوينج. وجدت هناك من يحفر فى قمة البرج، سألتهم قالوا: نبحث عن كاهن من الأسرة الرابعة قبل الميلاد سرق شيكات سياحية من بنوك العراق. وباع لهم محطة مصر والأوبرا. ودفن الشيكات عند سفح الهرم، فأنا أخبرتهم إن القناة السابعة تنبأت بنفى الكاهن إلى إمارة موناكو ودفنه هناك. ثم ركبنا موتوسيكل. وهو فى الطريق عطل. بحثنا عن خبيرة تجميل تصلح الموتوسيكل فى المحيط. وجدناها. رفضت أن تتحرك قبل أن تقبض دولارات مضروبة، تركناها، وجدنا خبير آثار، أعطانا مفتاحاً مثل حبة السمسم، وقع منى فى المحيط طلعت مكانه نخلة فيها بلح، البلحة الواحدة مثل البطيخة، أخذت واحدة وطلعت المنشار الكهربائى من جيبى وقطعتها نصفين. غرست المنشار فى النصف الأول وأكلت النصف الثانى أنا والكاهن وأحد ملوك الفرنجة. وبحثت عن المنشار ولم أجده. أخبرنى الفرعون أنه بداخل النصف الثالث للبلحة، قمت على الفور بخلع هدومى وقفزت فى جوف البلحة قبل أن يأكلها الكلب.

(٦)

عندما استيقظت فى الصباح، وجدت زوجتى قد ذهبت إلى عملها، وتركت لى الإفطار معدا كالمعتاد. الشاى فى الترمس. البيض الغارق فى السمن موضوع فى فرن البوتاجاز، والخبز موضوع فى كيس نظيف.

لم تعد لى شهية للأكل. تركت كل شيء مكانه. شربت الشاى على المعدة

الخالية. بعد ربع ساعة شعرت أن معدتى تتمزق، لم أجد من أشكو له ، لم أتعود الشكوى من أى أوجاع أو آلام. ولكن ما أشعر به على أى حال ليس له علاقة بأمراض الشيخوخة. لازلت فى الخمسين. لم أجد ما أفعله سوى تناول قطعة خبز صغيرة. بمجرد تناولها سكنت آلام المعدة. وسمعت جرسا عند الباب كان الطارق ابن عمى الكبير سنوسى، أدخلته إلى غرفة الجلوس، كان حذاؤه مملوءاً بالأوحال والطين. لم يمسحه فى الخارج كان التأثر واضحا عليه، أدخلته بحذائه القذر إلى غرفة الجلوس. أعددت له الشاى، جلسنا صامتين فترة، وبعدها قال:

– شفت المصيبة؟

– أى مصيبة؟

– خليل ناوى يبيع الأرض.

– أرضه وهو حر فيها .

– يعنى إيه؟

– يعنى هو حر التصرف فيما يملكه.

– يعنى أنت موافق إنه يبيع؟

– وما دخلى أنا؟

– أنت كبير العيلة وكان واجب ياخد رأيك.

– أنا كبير العيلة؟

– أيوه

خليل ابن عمنا. ورث قطعة أرض عن والده تصلح للمبانى، سعر فدان الأرض قفز من خمسمائة جنيه للفدان فى بداية السبعينات إلى مائتى ألف جنيه الآن، وليس له دخل آخر، ويريد إلحاق أولاده بالجامعات. وله شقيق لم يتزوج، ويريد أن يزوجه. وليس هناك مانع من التصرف فى أرضه بالسعر

المرتفع لمواجهة تكاليف الحياة القاسية. هذا ما لم يفهمه ابن عمى سنوسى الجالس معى، والذى نصبنى كبيرا للعائلة، وعندما أخبرته بذلك اقتنع. وأيقنت أنه مقتنع مثلى قبل أن يأتى عندى ، وهو بلا شك يريد أن يتحدث فى موضوع آخر أفصح عنه فورا وقال:

– أنا قصدى أنك تشترى الأرض؟

وسكت لحظة وقال:

– بدل الغريب.

لم يكن فى تفكيرى أن أشترى أرض، مهما كانت قيمتها لسبب بسيط. هو عدم قدرتى المالية على ذلك. وطوال مدة خدمتى كنت أنفق كل مرتبى على أسرتى، وما تبقى منه لا يصلح لشراء الأرض. أما مكافأة نهاية الخدمة فهى أيضا لا تكفى. تكفى فقط لمواجهة مقتضيات المواقف الطارئة والتى من المحتمل مواجهتها فى الأيام القادمة لشراء شقق للأولاد، كل واحد فى المكان الذى سيعمل فيه، وأيضا لزواج البنت. وغير هذا وذاك فهى ضمان لغوائل الزمن. لأننى لن أكتسب شيئاً بعد ذلك على الإطلاق.

أخبرت ابن عمى بذلك، وقلت له أننى غير مستعد – على الأقل فى الوقت الحاضر – لمثل هذه الأمور.

مد رجليه أمامه متأملا سجادة غرفة الجلوس التى فرك فيها حذاءه الموحل.، ثم رفع بصره إلى صورتى بالملابس الرسمية وقال:

– أنا نفسى أعرف أنت تركت الخدمة ليه؟

قالها بطريقة المحقق. لا بطريقة ابن العم الذى يريد أن يستوثق من أمر ما، وهو ما استفزنى، ولكننى تحكمت فى أعصابى وحاولت أن أبدو طبيعيا وابتسمت وقلت:

– لأننى وصلت إلى آخر رتبة. ولم أخرج وحدى، خرج معى فى نفس

الحركة أكثر من ثلاثمائة لواء إلى المعاش.

ظهر عليه الاقتناع. وحاول الكلام ولكنه تراجع، غير أنه لم يتمكن من كبح جماح رغبته فى الكلام، وقال:

- يعنى إنت وصلت للآخر.

- عليك نور، وصلت للآخر.

- أنا كنت فاكر إنك طلعت من غير ترقية.

- لا. أنا اترقيت وطلعت.

- طيب والمعاش كام؟

- وأنت دخلك إيه؟

وشعر بالحرج. ومع ذلك لم يسكت وقال:

- يعنى ممكن تدخل مركز الشرطة، وتخلص مصالحنا زى الأول؟

- طبعا . زى الأول وأكثر. وطبعا لو فيه أى مشكلة كل الزملاء الضباط فى المركز يعرفونى.

كل ما يشغل ابن عمى أن يظل نفوذى باقياً، ولم أخبره أن نفوذى لا يسرى إلا فى المسائل البسيطة التى يمكن حلها، غير أن ابن عمى يريد أن يطمئن أن فى مقدوره أن يفعل أى مصيبة دون أن تناله الحكومة والعدالة، وكان هذا ما يريد الاطمئنان إليه. مرت بيننا فترة صمت قطعها سنوسى بقوله:

- على فكرة نسيب (صهر) خليل ابن عمك مات فى بنى مفتاح. آخر النهار نروح نعزى.

- إنشاء الله.

شرب سنوسى الشاى وخرج. تاركاً كتلة من الطين لازلت عالقة بالسجاد، لاشك أنها ستزعج زوجتى عندما تكتشفها، وستوجه إلى اللوم

لأننى لم أطلب منه أن يخلع الحذاء قبل أن يدخل إلى غرفة الجلوس.

الصبى الذى كان يحضر من المخبز المجاور لمنزلى جاء هذا الصباح وأخبر زوجتى أنه لن يتمكن من إحضار الخبز من الآن.

سألته عن السبب فقال:

- عمى سليم قال لى كده.

سليم هو صاحب المخبز الذى يرسل لنا الخبز يومياً فى مقابل مبلغ شهرى اتفقنا عليه من مدة طويلة، وكان المبلغ يزيد كل عام. عندما حاول أن يشغل هذا المخبز منذ عشر سنوات استعان بى من أجل استخراج الرخصة، ومن أجل أن يحصل على حصة أكبر فى الدقيق، وكان كلما جاء عنده رجال التموين يدعى أننى قريبه وشريكه فى هذا المخبز، وبالطبع لم يصلنى هذا الكلام إلا بالصدفة منذ سنتين عندما أخبرنى أحد زملائى من مباحث التموين، أنه جاملنى ولم يحرر محضراً لصاحب المخبز وشريكى فى نفس الوقت.

أخبرت زميلى وقتها أننى أدفع ثمن الخبز وأجر الصبى الذى يوصله لى، وأننى لا أمتلك مخابز من أى نوع، ولم أشارك أحداً فى أى شىء أيضاً.

عندما أخبرتنى زوجتى بما قاله الصبى ذهبت إلى سليم فى المخبز، نهض وصافحنى، وقال إنه لم يعثر على صبى لتوصيل الخبز إلى المنزل لأن الولد الذى يحضره لى سيذهب للمدرسة هذا العام ولن يجد من يحل محله. وقال إنه يعتذر، وأشار إلى مخبز آخر بعيداً عنه فى الشارع الآخر وقال:

- يمكن يكون عنده عيل يرضى يوزع الرواتب.

بالطبع فقد عرف سليم أننى خرجت للمعاش، وأنه لا يمكنه الاحتماء فى اسمى كما كان يفعل لو داهمه رجال التموين.

وكانت مشكلة الخبز مستعصية عندنا، فالزحام على المخابز اضطر

الناس إلى الوقوف فى الطوابير منذ صلاة الفجر، ولهم موظفون ومدرسون، ولم أشأ أن أجادل سليم فى مسألة الرواتب ولا الذهاب للمخبز الآخر.

عندما أخبرت زوجتي بذلك، ضحكت وقالت: سأخبزه أنا هنا فى البيت فى فرن البوتاجاز. وقالت:

- من الآن لن نشترى الخبز. سنشترى الدقيق فقط.

كان جمال عبدالناصر في البرنامج الذى أستمع إليه، فى إحدى القنوات الفضائية، يعلن في وسط مجموعة من ضباط القوات المسلحة والطيارين وقادة الطيران فى العريش، أن العدو سيضربنا يوم الاثنين. وظهرت الطائرات الإسرائيلية على الشاشة وهى تنطلق فى السماء وعليها نجمة داود، ثم ظهرت وهى تد مطاراتنا، وظهرت صور لجنودنا وضباطنا وكأنهم بقع في الرمال، وتركزت الكاميرا عليهم وهم يرفعون أيديهم لأعلى، طوابير طويلة في الصحراء لجنودنا الأسرى، كانوا فى حالة بالغة السوء، وجاء جمال عبدالناصر على الشاشة مرة ثانية، وأعلن أنه سيتنحى عن الحكم. كان وجهه صافياً، وخاليا من التجاعيد، والانفعالات. وصوته عميقاً ومؤثراً.

لسبب غامض شعرت انه لم يكن جاداً فى مسألة التنحى، كان يتكلم بحياد وبساطة متناهية، ولم يظهر عليه الحماس الذى كان عليه يوم تأميم القناة، كان سنه وقتها فى مثل سنى وان يقود أمه بكاملها، لم تتح لى الفرصة لأقود أمة مثله، ولو أتيحت لى ما كنت واجهت المصير الذى أواجهه الآن، ثم امتلأت الشاشة بأعداد هائلة من المصريين وهم يقولون لا لعبدالناصر. ويرفعون لافتات عليها صوره، كان مقدم البرنامج يتكلم بلكنة لبنانية وتسائل بخبث: لماذا لم يخبر عبدالناصر قواده بموعد الضرب الذى أعلنه ليتجنبوا الضربة الجوية، ولما لم يضعوا خطة يواجهون بها العدو؟، ولماذا؟.. ولماذا؟.. وكيف جاءت تلك الحشود من الأقاليم لها إلى القاهرة دون

نظام؟، وهل يمكننا أن نصدق أن النظام ان سيسمح لتلك المظاهرات بدخول القاهرة دون تنظيم وتدبير؟. كانت أسئلة المذيع تنطلق بلا هوادة من فمه كالمدافع.

شعرت بالغيظ من هذا الذى ينكأ الجراح التى اندملت. ولماذا يذكرنا بمحنة تجاوزناها منذ سنين؟

ثم ظهر القذافى، كان أصغر منى عندما قام بالثورة فى ليبيا. كان مجرد نقيب ورقى نفسه إلى رتبة العقيد ولم يتخطاها. أنا كنت عقيد، ثم عميد، ثم لواء. لا فرق بينى وبينهم، هم أتيحت لهم الفرصة، أوجدوا لنفسهم الفرصة واستغلوها. كان القذافى يخطب بحماس دون أن أفهم منه كلمة واحدة، يتكلم بسرعة والجماهير تصيح دون أن نعرف سبب الصياح.

الصياح، الصراخ، الهتاف، الزعيق أسماء متعددة لفعل واحد، انقضى عصرها. لم تعد الحناجر قوية كما كانت. أعيتها كثرة الاستعمال.

ثم شرع السادات فى الحديث عن النصر، وهو يرتدى الملابس العسكرية عندما انتقل المذيع إلى موشى ديان الذى كان يضع عصابة سوداء على عينه المعطوبة، كان يتحدث بالإنجليزية، والترجمة العربية الآلية تعلن أن جنوده يقاتلون غرب القناة. وجاء كيسنجر مبتسما وملوحا، كان يقابل السادات فى أسوان، وظهرت صورة للسادات وكيسنجر وآخرين لا أعرفهم.

بدأ الفريق الجمسى فى الحديث، كان فارع الطول وهادئاً، لا أحد يصدق أن هذا الرجل الوديع كتب بيده وخطه كل خطة حرب أكتوبر فى كشكول صغير، وكاد أن يبكى دون سبب واضح، كان يلمح إلى أن السادات لم يكن محنكا مثل كيسنجر، لا أعرف لماذا تأثر الجمسى وهو يتحدث عن فض الاشتباك بين القوات، لكن الجمسى أدى عمله وواجبه. الجمسى وكيسنجر الآن فى المعاش مثلى تماماً.

جاء السادات مرة ثانية، كان يتكلم وينطق الكلمات بصعوبة، كان فى خطبه قبل نصر أكتوبر ملتزماً بالنص المكتوب، الآن يرتجل الكلام.

بعد أكتوبر شعر الرئيس السادات انه لم يعد بحاجة للنص المعد سلفاً، وكان يخرج كثيراً عن النص المكتوب ويرتجل، يتكلم براحته، أصبح يتحدث كمفكر وزعيم، وسرعان ما تذكر أنه الحاكم، وأصدر قراراته المدوية، من سيحيله للمعاش مثلى، أثار الجدل حيا وميتا.

كان الشخص الذى يتحدث عن السادات وجهه أبيض عريض وله لحية بيضاء، عندما دققت فيه تبين لى أننى أعرفه. كان مسئولاً كبيراً أيام عبدالناصر والسادات لم تكن له لحية، عندما مات السادات تفرغ لسبه فى كل المناسبات، خيل إلىّ أنهم أحضروه ليشتم فقط، كان الرجل يهاجم السادات بضراوة ويقول إنه أفسد البلاد، وعطل الحريات، وأعتقل الشرفاء، وأصحاب الفكر والقلم. مع أن السادات عينه فى منصب مرموق، أغلب الذين عينهم السادات فى مناصب مرموقة يشتمونه الآن.

غيرت القناة إلى قناة أخرى على القمر الأوروبى.

فاجأتنى الشاشة بامرأة عارية مستلقية على ظهرها، كانت بمفردها، ماذا جرى لى، لقد أصبحت بارداً، كنت عندما أشاهد جزءاً من ساق امرأة كنت أهتاج وأسيطر على نفسى بصعوبة، وهاهى عارية تماماً ولا تحرك شيئاً، زوجتى نائمة، لم أعرف كيف أحرك البرود الذى هيمن علىّ. ظهر شريك للمرأة على الشاشة وعندما بدأ فى مداعبتها انهالت عليه تمص أصابعه وفمه، وخفت أن أكون قد أصبت بالبرود.

عندما هم شريكها بخلع بملابسه عدت إلى القناة الأولى فى التليفزيون المصرى، لم أجد فيها غير المتحدثين عن المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس.

وانتهى البرنامج.

وبعده جاء طبيب نفسى ومعه مذيعة، تحدث عن الميول العدوانية للأطفال، وكان الناس يتصلون به لعرض مشكلات تعترضهم أثناء تربية الأطفال. كانت المذيعة أحياناً تجيب على أسئلة الناس بدلاً من الطبيب، اتصلت واحدة، وقالت إن طفلها يكذب كثيراً. وأنها تخاف أن يكبر فيه هذا الكذب. وطمأنها الدكتور بأنها حالة طبيعية يمكن استثمارها فى تنمية خيال اطلفل وتنشئته أدبياً ليكون قاصاً أو كاتباً!.

ذهبت إلى السرير، شعرت بضيق فى التنفس، لم أتعود على فتح الشباك أثناء النوم، تحملت، وشعرت أننى لن أنام. وأحسست بجفاف فى حلقى، وأننى أريد أن أشرب، نهضت وشربت، وأحضرت كوب الماء ووضعته بجوارى على «الكومودينو». رغم البرد فقد شعرت بأننى أركل الغطاء عن جسدى ولا أطيقه، اعتدلت وجلست مكانى على السرير.

مكان العضة فى لسانى لا يزال يؤلمنى. سمعت التليفون يرن، نظرت فى الساعة فوجدتها تقترب من الرابعة صباحاً، ذهبت إلى التليفون، كان يرن بإلحاح، رفعت السماعة، لم أجد أحداً، سمعت تنهيدة، انتظرت أن يتكلم أحد. وسمعت صوت كاسيت يتم تشغيله، وانطلقت منه أغنية لنجاة تقول فيها لا تكذبى إنى رأيتكما معا، وضعت السماعة، وذهبت إلى السرير، طار النوم، هل هى واحدة أم واحد، رن التليفون مرة أخرى، فى الليل يصبح رنينه مزعجاً وصارخاً، ذهبت إليه، وتم تشغيل نفس الأغنية، نظرت فى شاشة الجهاز قرأت الرقم، وضعت السماعة وطلبت الرقم، سمعت السماعة وهى ترفع على الجانب الآخر، ولم يرد أحد، سمعت السماعة وهى توضع مكانها قبل أن أتكلم. أدرت الرقم مرة ثانية فلم يرد، وذهبت إلى السرير.

بعد صلاة العشاء رن جرس الباب. فتحت، وجدت سيد شحاتة الذى قابلنى فى القرية، كان وجهه أصفر وبطنه منتفخاً بشكل كبير، عندما فتحت

له الباب لم يدخل مباشرة، خلع حذائه، تركه عند الباب، ودخل حافياً، كان يبدو عليه الخجل. كان يلهث، وعندما جلس كان صوت تنفسه مسموع، وكانت رقبته تغوض بين كتفيه كلما تنفس. شفتاه جافتان وتعلوهما طبقة من القشور.

كان سيد يتمتع بصحة جيدة في صباه الباكر. ولكنه أصيب بالبلهارسيا، كان يعمل منذ صباه الباكر في دائرة إسماعيل باشا أو الدائرة كما كنا نسميها، كان يجمع اللطع مثل كل الأطفال الصغار في قريتنا، وعندما شب قليلاً أوكلت إليه قيادة فريق لوضع الأسمدة الكيماوية تحت جذور النباتات. كان عليه وأعضاء فريقه أن ينتهوا من وضع السماد تحت الجذور في فترة ماقبل الظهر حتى يتمكن الفلاحون من رى الأرض التي وضع فيها السماد. كان رئيسهم يفرغ عشرة أكياس كبيرة من السماد وعليهم أن ينقلوه في حجورهم ليضعونه تحت النباتات، كان سيد لا يستطيع أن يرفع ظهره بعد الانتهاء من العمل في رمى السماد. الأسمدة تصنع من مواد كيماوية تسيل بفعل الحر الشديد والشمس أصابت بطنه وجلده بالإلتهابات الشديدة هو وكل زملائه، كشف عن ذراعه وبطنه وأراني الحروق التي أحدثتها تلك الأسمدة بجلد بطنه. وعندما أصابته البلهارسيا ذهب إلى المستشفى الأميرى أعطوه حقن الطرطير في الوريد، تسرب الدواء من الإبرة إلى العضل فأحدث فيه خراجاً كبيراً. عالجه جبران المزين.. وتحسنت صحته كثيراً.

عندما صرنا شباباً كان سيد يباهي بقدرته على التهام أكبر كمية من الطعام، وحدث أن تراهن مع أقرانه على أن يأكل علبه تزن كيلو جراماً من حلوى الملبن بعلبتها، أكلها سيد كلها وشرب ورائها الماء نظير ربع جنيه.

ذكرته بالأيام التي كنا نلعب فيها معاً ونقذف أشجار النبق والنخيل

بالطوب، وذكرته بصراخ كريمة، الفتاة التى ألهبت خيالنا بالجنس، ظهر عليه الخجل الذى كان يميزه، وقال بأسى:

– كانت أيام.

وانفكت عقدته وبدأ يحكى.

حكى لى عن نوادر الشيخ عبدالبصير الضرير، الذى كان يتعرف على بيوت الفلاحين بعدد الخطوات التى يقطعها منذ خروجه من منزله. كان يحفظ القرآن ويخطب الجمعة ويصلح بين العائلات المتخاصمة، وكان يواسى الفقراء ويطلب منهم الصبر. كما كان يقرأ القرآن فى شهر رمضان فى سراية إسماعيل باشا مكتفياً بوجبتى الإفطار والسحور ومرتب شهرى ضئيل يقبضه من الدائرة، وكمية من الشاى والسكر، وباكو معسل. وعندما كان يقابل الباشا كان يطلب منه جبة وقفطاناً وإعادة بناء الجامع الذى أوشك على الانهيار، وكان الباشا يمنحه الجبة والقفطان فقط، ويطلب منه أن يقرأ الفاتحة على روح الأموات من أقارب الباشا، لم يكن الباشا يسمع من الشيخ سوى بسم الله الرحمن الرحيم، ويستمر الشيخ فى القراءة حتى ينبهه أحدهم بأن الباشا قد تركه ومضى، ومع هذا يصر على قراءة الفاتحة على روح أقارب الباشا.

حضرت الأيام الأخيرة للشيخ عبدالبصير عندما كنت فى المرحلتين الإعدادية والثانوية. كان يأتى عندنا فى البيت، ويطلب منى أن أقرأ عليه خطبة الجمعة من كتاب قديم له غلاف جلدى سميك يحتوى على خطب الجمعة طوال العام، كان يحتفظ به زمن بعيد. وكان يطلب منى أن أستخرج خطبة الجمعة الرابعة من رجب وأقرأها عليه مرة واحدة فيحفظها عن ظهر قلب من أول مرة، كان يعيدها دون أن يخطىء فى كلمة واحدة. وكنت أسمعه وهو يلقيها فى المسجد القديم الذى طالما طلب من الباشا أن يعيد بناءه،

وقتها كانت للجامع القديم بهجة به، فقد كنا فى أشد أوقات النهار حرارة نذهب إليه نلتمس رطوبته والهواء الذى يأتى من صحنه الواسع، كانت شقوق حوائطه واسعة مما كان ينبىء وقتها عن قرب انهياره، ولكن الباشا لم يتحرك إلا بعد أن مات الشيخ عبدالبصير بسنوات عديدة، لولا أن أهل القرية تضافروا فيما بينهم وجمعوا أموالاً قليلة لا تكفى لبناء الجامع، عندها تحرك الباشا الذى ساءه أن يرى المسجد الذى بناه جده قد أصبح آيلاً للسقوط وأوشكت الأوقاف على إغلاقه فأمر ببنائه على حسابه.

حكى لى سيد أن الشيخ عبدالبصير كان يمارس مهاما طبية لصالح أهل القرية، فكان يقرأ القرآن على من لسعه العقرب، ومن أصابته الحمى نتيجة لفحة الشمس، ومن اصابه الأرق، كما كان يقرأ على رأس الطفل الدائم البكاء فيسكت. وكانت بعض العاقرات يستشيرونه فى أمورهن وكان يصف لهن بعض الأدوية والأحجبة التي تساعدهن. وكان فى نفس الوقت ينصح أزواجهن بالزواج قبل أن يتقدم بهم العمر.

ذكرنى سيد بواقعة حدثت عندما انفجرت فجأة إحدى قريباتنا فى الصراخ. وعندما جرى عليها الناس أشارت إلى مكان حساس من جسدها، وقالت إن عقرباً صغيراً لدغها فيه، أشارت قريبتنا إلى المكان ولم تفصح عنه. وكان زوجها حاضراً، أشار عليه العارفون بأن يذهب للشيخ عبدالبصير لأجل أن يقرأ على المكان الملدوغ ليشفى، ولكن الزوج الغيور رفض رفضا قاطعاً أن يضع الشيخ عبدالبصير يده على مكان اللدغ عند القراءة. وأصرت والدة الزوجة على إنقاذ ابنتها والذهاب إلى الشيخ لأجل أن يوقف سريان السم إلى كل الجسد. انتهى النزاع بتبادل الشتائم وتهديد أم الزوجة لزوج ابنتها بسحبها إلى بيتها ومعالجتها بمعرفتها على يد الشيخ، أمام التهديد رضخ الزوج، ولم تطاوعه النخوة ليرى بعينيه كف

الشيخ وهي تستقر على مكان اللدغ. كان هناك حل وسط قدمه بعض الحاضرين وذلك بأن يضع الشيخ عكازه بدلاً من يده على الجزء الملدوغ. ووافق الزوج على هذا الحل.

رأيته وأنا صغير في إحدى المرات عندما نشب الحريق في القرية، وقتها اصعدوه إلى أعلى بيت بالقرب من المنزل الذي يحترق، وظل يتلو القرآن بصوت مرتفع حتى خمدت النيران تماماً تحت بركات الشيخ الذي قاوم النيران مخلصاً.

وفي أوقات الهدوء كانت القرية تنسى خدماته ولا تحفظ له الجميل، وكانت تتركه يجوب شوارعها ليلاً بمفرده بدون دليل من أهلها، صادفته مرات عديدة كتل الطين التي يضعها الفلاحون أمام بيوتهم لصنع قوالب الطوب اللبن، فيدوس فيها الشيخ، وعندما يقترب من النهاية يدرك أنها ممتدة ولن تنتهي، فيعود راجعاً مرة أخرى. ويعود إلى بيته وأكوام الطين عالقة بمداسه وجبته، ويحدث أن يكون صاحب الطين واقفاً أمام باب بيته وحوله أولاده يشاهدون الشيخ وهو يقطع معجنة الطين ذهاباً وعودة، ويكتمون ضحكاتهم الساخرة، ويشعر الشيخ بهم فيطلق لسانه فيهم طاعناً في مروءتهم وانعدام ضميرهم، ويسكت صاحب البيت لأنه يعلم أن الشيخ لن يتركه لو تكلم، وسيحدد موقعه وربما اقتحم عليه البيت في ثورة غضبه.

وقال لي سيد وهو يضحك للمرة الأولى وقد ظهرت أسنانه الصفراء كلها، هل نسيت حكاية جوهرة مع نجاتي، وضحكنا معاً فجأة عندما تذكرنا تلك الحكاية التي أضحكت القرية عاماً كاملاً وتسببت في انفصال نجاتي عن زوجته وقت أن كنا أطفالاً.

كان نجاتي فاقد البصر وله ميراث عن والده. أرض زراعية وعمارات يعيش من ريعها، وكانت جوهرة بيضاء وجميلة ولها شعر أصفر تدعه يطل

من تحت غطاء رأسها الأسود، كنا نشم رائحة العطور كلما اقتربنا منها، وكنا نرى نظرات الحسد التى ترمق بها نساء القرية جوهرة. وسمعنا كثيراً عن حالات طلاق كادت أن تقع بسببها. كان زوجها قبل أن يموت يشغل وظيفة مجهولة فى محلج الأقطان، وكان كثير الاحتكاك بالخواجات. وكان يعقد فى بيته ليلتى الخميس والأحد جلسات لتدخين الحشيش، وكان يحضرها بعض أبناء القرية من القادرين ومعهم نجاتى، كانوا يخرجون من تلك الجلسات فاقدى الوعى، وفى حالة يرثى لها، فى تلك الأثناء، تعلق نجاتى الضرير بجوهرة. وبعد أن مات زوجها بدأ يتردد عليها، وكان يدخل عندها فى بيتها. وكان فى كل مرة يطلب منها أن تعطره بعطورها التى تشتهر بها، بدأت القرية تتهامس على علاقتهما. وعندما صارحوا نجاتى أخبرهم أنها هى التى ترش العطور عليه، هى التى تستدعيه لبيتها، علمت بذلك جوهرة، فأرادت أن تكيد لنجاتى، واستدعته بالفعل، أعطته زجاجة وأخبرته أنها آخر زجاجة عندها. لم ينتظر نجاتى حتى يخرج، وبدأ يسكب منها على رأسه الصلعاء وشاله الأبيض وجلبابه ثم دلك وجهه ورقبته وتحت إبطيه، وبعد أن فرغ رمى الزجاجة وخرج من عندها مزهوا. شاهدناه نحن على الصورة الغريبة التى فضحته بها جوهرة، لم نتعرف على نجاتى فى أول الأمر، كان الحبر الذى تعطر به أزرق. ولم يدرك الشيخ حجم الفضيحة إلا عندما صحنا خلفه:

– المصبوغ نجاتى. المصبوغ نجاتى:

بعد أن انتهينا من الضحك. قال لى سيد

– أنا كأنى رجعت عيل من تانى. ربنا يخليلك العيال.

اخبرنى انه يريد إلحاق ابنه الكبير بالشرطة كعسكرى متطوع وقال:

– أنا صحتى تعبت، ومش قادر اشتغل. يمكن لما يدخل الشرطة يشيل

الحمل عني ويساعدني في المعايش.

وسكت لحظة وقال:

- أنا بعيد عنك عندى فيروس الكبد، والنهاية قريبة.

كنت قد شاهدت سيد شحاتة منذ مدة قليلة، وكانت صحته جيدة، لقد تغيرت ملامحه تماماً خلال أسبوعين، وعندما أخبرته أننى عندما رأيته لم يكن مريضاً أخبرنى انه كان مريضاً بالفعل ولكنه كان يتعاطى العلاج، وفى الأيام الأخيرة زادت حدة المرض عليه، وكان يعلم ان نهايته قريبة.

أخبرنى انه كان له ابن آخر، غير ابنه سعداوى الذى يريد إدخاله الشرطة، اسمه جابر، وصل فى التعليم إلى الإعدادية وتوقف.، وسافر للسعودية مع وفد من الشباب قاصدين أداء العمرة، والحقيقة أن نيتهم لم تكن خالصة تماماً للعمرة، كان يريد أن يعمل هو ومن معه هنا. وهنا التحق بعمل فى مستودع أسمدة.

قال إن ابنه مات هناك بطريقة غامضة، لم يعرف إن كان قد قتله أحدهم، أو صدمته سيارة، أرسلوا إليه الجثمان دون توضيح. ولم يتحمل سيد أكثر من هذا وتوقف عن الكلام.

وعدته بأننى سأحاول.

وخرج سيد وهو يسير ببطء، وعندما وصل إلى الباب أدخل قدميه فى حذائه الذى تركه عند الباب.

تمر الأيام بطيئة، متشابهة. كل يوم يشبه اليوم الذى سبقه والذى يليه، أجلس كل يوم أمام التليفزيون أقلب فى قنواته، حفظت كل برامج المحطات الفضائية ومواعيد المسلسلات والحفلات ونشرات الأخبار. أتجول بين قنوات التليفزيون طول الوقت. برامج جديدة اخترعتها القنوات الفضائية العربية، تستضيف الكتاب والمثقفين والمسئولين السابقين من كل البلاد، بعضهم أثار

الجدل خلال فترات وجوده في السلطة.

لا أقرأ الجرائد إلا نادرا. أحيانا أطلب من ابنى تامر أن يحضر لى الجرائد عندما يعود من الجامعة. لقد أمضيت شهراً كاملاً بدون جرائد أو مجلات، شعرت أن شئ ما ينقصنى.

بعد أن تناولت طعام الافطار لبست ملابس الخروج وخرجت.

عندما أصبحت فى الشارع عطست. ربما لعدم اعتيادى الخروج، انعطفت مع الشارع يمينا، قابلني جميل البقال، كانت فى يده حقيبة كبيرة، سلم علی، وقال لی إنه ذاهب إلى المحطة، وبإمكانه أن يحضر لی من هناك ما أريده. شكرته مستمرا في السير.

بعد نصف ساعة وصلت إلى المكان الذى تجلس فيه بائعة الجرائد بجوار محطة الأتوبيس السريع القادم من الصعيد والمتجه للقاهرة ومحافظات الشمال.

كانت تجلس على رصيف ترعة الإبراهيمية وتحتمى بالسور الواطى الذى أنشاه مجلس المدينة ليحجب به الزبالة التى يرميها السكان على شاطئ الترعة عن أعين المسئولين العابرين فى السيارات.

وضعت البائعة أمامها رزم الجرائد الأهرام والأخبار والوفد والأهالى وجرائد أخرى لم أتبينها، أما المجلات فقد وضعتها بالقرب منها وتلتصق بها.

خفير يعلق بندقية آلية فى كتفه، ويرتدى معطفاً من الصوف الكاكى الثقيل يتحدث مع البائعة بصوت مرتفع يسمعه الجميع.

أسندت ظهرى إلى السور الحديدى ووقفت أنتظر.

قال الخفير:

- أنا بلغتك طلبات البيه الوكيل وخلاص، وما على الرسول إلا البلاغ.

قالت البائعة:

- الله يستر عليك، سيبني ساعة الصبح آكل عيش.

نظر الخفير إلى مبنى المحكمة القريبة ووضع يده الخالية من السلاح في وسطه متحديا وقال:

- يعني أقول إيه للبيه الوكيل والبيه المعاون؟

تناولت البائعة النقود من زبون مد يده صامتا. قربت النقود من وجهها حتى كادت أن تلتصق بعينيها لفحصها، ثم وضعتها بحرص في صندوق صغير تخفيه تحت فخذها، كانت المرأة ترى ما أمامها بصعوبه، وتركت المشترى يأخذ ما يريد، مد الزبون يده إلى رزمة الأخبار وتناول واحدة وانصرف.

جلس بجوارها ثلاثة أو أربعة رجال. كل منهم أمسك في يده جريدة ويبسطها أمام عينيه ويبدأ يقرأ فيها، آخرون يتصفحون المجلات التي تحتوى على الصور الملونة.

كان الخفير الذى كان لايزال واقفا يرقب البائعة قلقاً، التفت إليها وقال بحدة:

- خلصيني يا وليه. أنا مش فاضي.

تنهدت البائعة كبيرة السن باستسلام، وتناولت جريدتين من رزمة الأهرام، ومثلهما من الأخبار والجمهورية.

وضع الخفير الجرائد تحت ابطه عند كتفه الذي يعلق فيه البندقية، ثم رفع وجهه لأعلى وقال بكبرياء:

- المجلات؟

مدت يدها وتناولت مجلات حواء وصباح الخير والمصور، ناولتها للخفير الذى كان منهمكا في عد الجرائد، ظلت يدها ممدودة حتى فرغ من العد

وقال بعد أن خطف المجلات ووضعها مع الجرائد:

- ناقص اتنين.

قالت البائعة باستسلام:

- أنا معرفش. اللى ناقص كمله، الفرش قدامك.

قال الخفير:

- الوفد والأهالى.

قالت البائعة بغيظ:

- الوفد والأهالى للبيع، وأنت هتتأخر.

أمام احتدادها سكت الخفير، لم يتكلم ولم يتحرك ووقف ينظر إليها فى تحد. وأمام إصراره لم تجد البائعة أمامها سوى الرضوخ، ومدت يدها إلى الفرش الذى أمامها وناولته الوفد والأهالى وهى تتمتم بكلمات غامضة.

انصرف الخفير وبندقيته في كتفه وتحت إبطه الصحافة القومية والمعارضة.

مر الخفير من أمامى وهو فى طريقه إلى المحكمة وسمعته يقول ليسمع جميع الحاضرين:

- مرة سافلة بصحيح تخاف متختشيش.

لم تسمعه البائعة، لأنها كانت مشغولة بزبون آخر أصر على أنه أعطاها ورقة من فئة الخمسة جنيهات ويريد منها الباقى، وهى تصر على أنه أعطاها فقط ورقة من فئة الخمسين قرشاً، أخرجت الصندوق وفتحته أمام الزبائن الواقفين والجالسين وقالت:

- ولا خمسة جنيه فى الصندوق.

أقسم الرجل أنه اعطاها ورقة من فئة الخمسة جنيهات ودار بعينيه على الجالسين يستشهد بهم.

أخبرها أحد الجالسين من الذين يتصفحون المجلات أن الرجل أعطاها ورقة من فئة الخمسة جنيهات ولم تضعها فى الصندوق لأنها لاتزال تحتفظ بها فى كفها المضمومة، تنبهت البائعة إلى كفها وفتحت أصابعها، قربت الورقة من عينيها وتأكدت أنها من فئة الخمسة جنيهات، رفعت الصندوق من تحتها وقربته من وجهها أخرجت أربعة وربع وناولتها للزبون الذي تناول جريدته ومشى.

وقفت أرقب حركة الناس والسيارات فى الشارع الرئيسى «القاهرة أسوان». لم يتغير فيه شئ منذ كنت تلميذا فى الإعدادية والثانوية ومدرسة التجارة والزراعة والصنايع، نفس الأماكن، ونفس المباني، تغييرات طفيفة فى ألوان الطلاء، وألوان ملابس الناس، الزحام اشتد فى الشوارع التى كانت لا تمتلئ إلا عند ذهابنا إلى المدارس أو خروجنا منها.

المحكمة كثر روادها وزبائنها، الزحام شديد على بابها، لم نكن نشاهد أحداً يدخل المحكمة ونحن طلاب، كنا وقتها نعتقد أنها مكان مهجور، لأننا كنا نراها قبل أن تبدأ أعمالها فى الصباح، وعندما نعود من المدارس تكون قد أنهت قضاياها.

بعض شقق الدور الأرضى فى العمارات المقابلة لى تحولت إلى محلات الإكسسوارات وقطع غيار السيارات، وبعضها تحول إلي ورش لإصلاح أعطال الكهرباء والميكانيكا. كانت هناك مكتبة لا تزال كما هى «مكتبة الاشتراكية» سماها صاحبها بهذا الاسم تيمنا بالحكم الاشتراكى الذى أعلن فى عام افتتاحه: اللافتة التى كانت بيضاء طمست حروفها وأصبحت لا لون لها وتخلل العنكبوت الفراغات بين حروفها البارزة، وقتها كانت فخمة، كنا نتفرج على محتوياتها بألوانها الرصينة، الآن علاها التراب، وبهتت ألوان الكتب، أرففها أصبحت خالية من الكتب والكراسات، لم يهتم صاحبها

بإزالة التراب عنها، أو تنظيفها، دبت فيه الشيخوخة، وآل إلى نفس المصير الذى آلت إليه الاشتراكية والمكتبة، وأضاف عليه الزمن كمية من ترابه الذى لا لون له..

كنت أراه وهو شاب أكبر داخل المكتبة، لم أشاهده خارجها قط، كان يتحرك كثيراً، يصعد على درجات سلمها الصغير ويهبط بحيوية وسرعة، كان يلبى طلباتنا دون كلل، كنا أحيانا نأخذ منه الكراسات ونعيدها إليه فى آخر اليوم لعدم حاجتنا إليها، وكان يستردها راضيا ويعيد إلينا قروشنا القليلة التى دفعناها.

ها هو يجلس داخل مكتبته وفى يده منشة قديمة يطرد بها الذباب والتراب وقد انحنى ظهره قليلا، لم نكن نعرف وقت أن كنا تلاميذ أنه كان يحفظ القرآن الكريم كاملا وكان يقرأه على أرواح الموتى فى الجنازات وسرادقات العزاء، رأيته بالصدفة فى احدى المرات وهو يضع العمامة على رأسه ويرتدى زى المشايخ الوقور، الجبة المفتوحة من الأمام وتحتها قفطان من الحرير الأبيض ويضع على كتفه شالا من الصوف الأصفر، كان مهيبا ووقورا، وفوق رأسه عمة بيضاء ناصعة يتوسطها طربوش أحمر وزر أسود يتأرجح خلفها، وأضفت عليه قراءته المحكمة للقرآن جلالاً ورصانة، وقتها شعرت نحوه بتقدير واحترام لا حدود له. لو كنت رأيته وأنا طالب لأحجمت عن شراء مستلزماتى المكتبية والدراسية من مكتبته، لا لشئ حتى لا أشعر أننى أثقل عليه، كان الرجل عندى أكبر بكثير من مجرد بائع.

إنه نفس الرجل الذى يقف بقامته المنحنية، وقد فعلت السنين فعلها فى ظهره وبطنه ووجهه الذى أصبح كرغيف بلدى محروق. هل لايزال يقرأ القرآن؟

فى مواجهتى وأنا واقف أمام شركة بيع المصنوعات، كنا نشترى منها

ملابس أول العام الدراسي، ولا ندخلها بعد ذلك، لقد ارتبطت الشركة عندى ببداية العام وطقوسه الخاصة والحذاء الضيق الذى كان يدمى كعبي. نفس الباب ونفس الألوان، الآن أبوابها مغلقة، وقد أعلنت الحكومة عن بيعها مع باقى ممتلكاتها للمستثمرين من مصر والخارج..

على حوائط الشركة رأيت إعلانات لأفلام سينمائية يظهر فيها رجل فارع الطول وصدره مكشوف ويلمع بدون شعر، ويضع فى فمه سيجاراً وعيناه تقدحان الشرر، كان الرجل يمسك في يده سوطاً جلدياً مطوياً على شكل حلقات وهو يتأهب لرميه.

بجوار هذا الإعلان قرأت إعلاناً آخر على ورقة كبيرة مكتوب فيها:

– صلاة عيد الأضحى فى الساحة الشعبية، يوجد مكان مخصص للنساء وهدايا للأطفال،

وبجوارها ورقة أخرى مكتوب فيها:

– الإسلام هو الحل. صلاة العيد في النادى الرياضى اصطحب أطفالك. يوجد مكان للنساء . بجوار الإعلانين إعلان ثالث أكبر حجما من السابقين، مكتوب على الحائط بخط بدائي ردئ:

– صوتك أمانة، انتخب الرجل الحق....

ومحا الزمن اسم المرشح، ومع ذلك فقد كنت أعرف أنه لا يزال عضوا بالمجلس ويمثل الدائرة منذ الأزل فى كل الانتخابات. ويبدوا أنه شعر أنه لم يعد بحاجة إلى الإعلان.

بهذا الإعلان تكون حوائط الشركة كلها قد اختفت، ولم يعد يتسع إلا لبقايا كتابة لا تقرأ مكتوبة على نفس الحائط منذ مدة طويلة بالحبر الأزرق.

قرأت بصعوبة كتابة باللون الأسود على لوحة من الخشب السميك المدهون باللون الرمادى ويحتل واجهة محل آخر بجوار بيع المصنوعات

مكتوب فيها «صيدلية» بابها مغلق.

كان اليوم هو الأحد.

رأيت مستور منادى السيارات، أعرفه منذ زمن بعيد، له وجه عريض أسود خالٍ من الشعر، وجسد ضخم، كنا ونحن صغار نقف لنتفرج على جسده الهائل، كان يبدو وقتها كعملاق، وكانت أقدامه تشبه أقدام الفيل، وقيل وقتها أنه لم يجد أى مداس على مقاسه.

لم تتغير هيئته منذ أكثر من ثلاثين عاما، ولم يتمكن الزمن رغم قسوته من التأثير في جسده الذى بدا منتصبا وقويا ولكنه فقط كان مترهلا.

ها هو قادم نحوى. بدا وجهه جامدا كجورج واشنطن المرسوم على الدولار بأذنيه العريضتين.

اكتشفت أنه يعرفني. هنا في مدينتنا لا يكون مجهولا من كان ضابطا، أو ثريا، أو في وظيفة مرموقة، والناس أيضاً تعرف كل القتلة واللصوص والمخبرين وأطباء الولادة والجراحين وكبار المزارعين والمرشحين في الانتخابات.

سلم مستور علي بحرارة، يعرفنى منذ وقت بعيد. وقال:

– حضرتك منتظر اللوكس؟

– لا.

– لسه معداش

كنت أقف في موقف الأتوبيس اللوكس الذاهب إلى القاهرة، وسرعان ما ذهب مستور لإحضار كرسي، ووضعه بجوار بائعة الجرائد، كان هو المكان الوحيد الذى يمكن الجلوس فيه، وسألنى:

– حضرتك حجزت؟

– لا.

- تحب أحجز لك؟

- لا

- حضرتك منتظر حد؟

- لا

وشعرت أن إجاباتي له جافة ولا تتناسب مع الحفاوة التى قابلنى بها، وشعرت أننى كنت مستفزا دون أن أدرى، فإذا لم أكن مسافرا ولا حاجزا ولا منتظرا، فلماذا أقف فى هذا المكان المزدحم؟

وجد مستور أنه لا فائدة مني، ولكنه مع ذلك وقف بجوارى كحارس.

في موضع جلوسى كنت أسمع ثرثرة بائعة الجرائد مع بعض الجالسين حولها، وقد تبين لى أنهم فراشين فى مكتب الضرائب العامة القريب، وبعض موظفى الشهر العقارى، وبعض المخبرين، والخفراء، والحجاب، وعساكر المراسلات المنتظرين خروج الضباط من استراحتهم فى العمارة المقابلة.

كان يقف بجوار مستور حاجب محكمة بملابسه الزرقاء، كان ينتظر قلقاً وينظر إلي الناحية اليمنى من الطريق، ربما فى انتظار أحد القضاة أو وكلاء النيابة الذين يأتون فى أتوبيس اللوكس القادم من الصعيد والذاهب للقاهرة. وسمعته يسأل مستور:

- اللوكس وصل؟

ورد عليه مستور دون أن ينظر إليه:

- لسه.

جاء رجل يحمل على يده صينية عليها كوب ممتلئ بسائل أصفر ترسبت فى قاعه بعض الحبوب وبجواره كوبا ماء، وما أن أقترب حتى أسرع مستور وتناول منه الصينية ووضعها بجوارى على الرصيف. وقال وهو يمد يرفع يده لأعلى يحيينى:

- أنا طلبت لحضرتك حلبة، أعرف أنك لا تشرب الشاى.

ثم وقف بالقرب منى، ولاحظت أنه يمسك فى يده دفتر به تذاكر يعطيها لسائقى سيارات الأجرة ويأخذ مقابل ذلك جنيها من كل سائق، وكان بعض السائقين يعطوه الجنيه ولا ينتظرون حتى يقص لهم التذكرة. بعد أن فرغ من اعطاء أحد السائقين تذكرة قال لى:

- ابنى جاء له إعلان من المحكمة العسكرية.

ابنه الأكبر كان مجندا فى الأمن المركزى، اشترك فى أحداث التمرد الشهيرة التى وقعت فى معسكرات القاهرة والجيزة منذ سنوات بعيدة فى منتصف الثمانينيات وحوكم عسكريا، وللآن لم تنتهى قضيته.

قلت له أواسيه:

- ربنا يأخذ بيده.

امتعض قليلا، لم يكن يريدنى أن أجامله بكلمات، ولكنه كان يريد منى أن أتدخل من أجل قضية ابنه، كان يعتقد أن لى نفوذا يمكنه من انقاذ ابنه من المحاكمة، كان هذا الأمر بعيدا عن قدرتى، هذا فضلا على أن هذا الموضوع مضى عليه أكثر من خمسة عشر عاماً.

بادرنى مستور قائلا:

- أنا اتفقت له مع محامى أخذ ألفين جنيه.

ولم أعرف ما إذا كان مستور بهذا الكلام التدليل على قدرته المالية أم أنه يريد أن يبين لى مدى جسامة القضية، على كل حاولت أن أطمئنه وقلت له:

- كل زملائه أخذوا البراءة.

قال مستور بأسى:

- إلا هو!

كان يتكلم بطريقة تنبئ عن مدى النحس الذى يتمتع به ابنه.

إلا أن مستور عاد وأخبرني أن ابنه يريد شهادة تأدية الخدمة العسكرية لأجل أن يقدمها للعمل قاطع تذاكر في الموقف بدلا منه. لأنه - أي مستور - سيحال إلى التقاعد بعد شهور لبلوغه سن الخامسة والستين. وإنه - أي ابنه - عندما تقدم بأوراقه تبين أن شهادة تأدية الخدمة كانت رديئة، ويريد استبدالها.

لم يكن من اللائق أمام هذا التوضيح أن أخذله، سألته عن سن ابنه، أخبرني أنه تسعة وثلاثين سنة، وقلت إنه في هذه الحالة غير مطلوب منه الموقف من الخدمة العسكرية.

لم يصدق مستور وتهلل وجهه، وقال دون أن يدري:

- ينصر دينك.

طلبت منه أن يعطيني اسم ابنه لأجل أن أتكلم مع صديقي مدير إدارة المرور عساه أن يفعل له شيئاً.

مزق مستور ورقة من الدفتر في يده -الرقة قيمتها جنيه- وكتب عليها اسم ابنه. ولا أعرف ما إذا كان هذا الدفتر حقيقياً أو وهمياً. وعندما بسطت الورقة أمامي وجدتها مختومة بخاتم المحافظة وقيمتها جنيه واحد.

كانت بائعة الجرائد تتكلم مع حاجب المحكمة الذي يقف في انتظار اللوكس والذي اصابه اليأس من طول الانتظار فجلس القرفصاء بجوارها وتناول مجلة وبدأ يقلب في صورها، وسمعتها تقول له:

- والنبي يا أبو حسيبه تكلم البيه الوكيل عن الغلبان اللي كلمتك عنه.

كانت في يده مجلة فيها صورة ملونة كبيرة لليدي ديانا أميرة ويلز وزوجه ولي عهد بريطانيا، قال أبو حسيبة دون أن يرفع عينيه عن الصورة:

- إنشاء الله السميع العليم ويطلع من سراي النيابة.

واستطردت البائعة:

- يعنى هو المسكين عمل إيه، دا طيره مغمضة لا يعرف يسرق ولا يعرف يمد ايده، ظلموه هو واللي معاه منهم لربنا، لكن التاني طلع منها زى الشعرة من العجين، أصل مرته بتخدم عند ضابط المباحث في البيت.

قال أبوحسيبه دون أن يرفع عينيه عن الصورة:

- اطمنى يا أم انصاف، دا اجدع ظابط مباحث يقف قدام البيه الوكيل ويعظم له.

رغم هذا لم تطمئن إنصاف لأنها أمسكت بيدها ورقة من فئة الخمسة جنيهات وبدأت تبرمها مثل السيجارة، كان أبوحسيبه يرمقها بطرف عينه، وعندما فرغت منها كانت يدها تقابل يده في منتصف المسافة التي تفصل بينهما، ومع ذلك فلم يرفع عينيه من على المجلة، وسرعان ما أدار عينيه علي الجالسين والواقفين، وعندما اطمان أن أحدا لم يشاهد العملية سأل أم أنصاف قائلا:

- هي انصاف عامله ايه؟

سكتت البائعة لحظة، ونظرت إلي أبو حسيبه نظرة لم تكن مريحة على الإطلاق، ولكنها وازنت الموقف، وابتسمت ابتسامه خبث وقالت:

- أسكت يا واد يا أبوحسيبه، جوزها مشربها المرار، المتعوس سابها وسافر مصر يشتغل.

رفع أبو حسيبه رأسه عن المجلة للمرة الأولى، ولمعت عيناه وقال:

- سابها لو حدها في البيت؟

تنمرت أم إنصاف وقالت:

- اسمع يا أبو حسيبه كله إلا كده، أوعى مخك يروح كده ولا كده.

قال أبو حسيبه:

- أشوفها تكون محتاجة حاجة.

- هو أنت مكفى اللى عندك؟

مسح حاجب المحكمة شاربه وأشار إلى الصورة وقال:

- فيها ملامح من حسنيه مرتى.

خطفت البائعة منه المجلة، وقربت الصورة من عينيها الواهنتين وقالت:

- أخص عليك، دى أميرة بنت ملوك، تروح فين حسنيه اللى زى البرص، معاك حق تلف بديلك ع النسوان.

ناولها أحد الزبائن جنيها، وضعته في الصندوق تحت وركها، وتركت البائع يأخذ الجريدة التى يريدها، ولاحظت أنها لم ترد الباقى للزبائن. كانت تبيع الجريدة بجنيه مع أن ثمنها جنيه إلا ربعاً.

قالت البائعة لأبو حسيبه:

- أوعى تنسى يا أبو حسيبة، إنت الكل فى الكل.

وسكتت لحظة وقالت:

- على فكرة يا أبو حسيبة أنصاف هتشتكى جوزها.

لمعت عينها أبو حسيبة بوميض غامض وقال:

- خليها تشتكيه، دا عيل صايع، وما يعرفش قيمتها، أنا هاكلم البيه الوكيل يجيبه من هدب عنيه.

سكت لحظة وهو ينظر إلى أم انصاف نظرة المنتصر وقال:

- إحنا برضة نعرف نخدم.

ابتسمت البائعة بمكر وقالت:

- أنت رجل مفضوح، كل همك فى ديلك، واحد غيرك كان بناها عمارات. وأنت تخلص بحقك لحم نى يا نجس.

شعرت أن جلوسى على النحو ليس له ما يبرره. طلبت منها اعطائي

الأخبار والأهرام، تناولت الجرائد بسرعة قائلة:

- أتفضل.

رفضت أن تتناول منى النقود، ولكننى رميت النقود فى حجرها، وعدت إلى البيت.

وأنا فى طريقى إلى البيت ، شعرت أننى لا أريد أن أعود إليه، سأبقى فيه بمفردى حتى تعود زوجتى من عملها، ولا شئ أفعله سوى قراءة الجرائد والجلوس أمام التليفزيون، وهى متعتى الوحيدة، الغريب أن زوجتى عندما لاحظت أننى أطيل الجلوس أمام التليفزيون قالت لى:

- أنت غلبت العيال.

كان هذا بعد أن اتبين لها أننى لم أعد أصلح لشئ، وهو ما آلمنى. وقتها قررت عدم الجلوس أمام التليفزيون قط، ولكننى مع هذا لم أتمكن من منع نفسى من مشاهدته خصوصا فى فترة الليل. فقلت لنفسى:

- إذا كنت لا أريد الذهاب إلى البيت فإلى أين أريد الذهاب؟

لم يكن فى ذهنى مكان محدد، ورأيت فى طريق عودتى لافتة لطبيب مكتوب عليها «الدكتور فخرى حنا- أستاذ ورئيس قسم الجلدية والتناسلية بكلية الطب».

الحقيقة أنا فكرت فى الصعود إلى عيادته، ولكننى خفت أن يرانى أحد ممن يعرفوننى وأن أدفع الكشف، وربما سألنى عن السبب، فيكون موقفى محرجا، وفكرت فى عرض نفسى على أطباء مستشفى كلية الشرطة عندما أسافر للقاهرة قريبا.

عندما عدت إلى البيت شعرت بضيق فى التنفس لم أكن معتاداً عليه. ربما من آثار الجلوس الطويل أمام التليفزيون، وعدم الحركة، فضلاً على أننا أغلقنا نوافذ البيت من آثار موجة البرد التى جاءت مبكرة وعنيفة هذا العام.

استلقيت على الأريكة التي تعودت الاستلقاء عليها في الصالة، وشعرت بألم في عنقي وكتفي.

(٨)

في الصباح بعد أن استيقظت من النوم في الساعة التاسعة. سمعت صراخا، النوافذ مغلقة. فتحت النافذة التي تطل على الشارع، اقترب الصراخ قليلا، ومع ذلك لم أتبين مصدره. يجب أن أنزل إلى الشارع لأعرف مصدر هذا الصراخ.

عندنا يحدث الصراخ في حالات الكوارث، وكلها تسبب إزعاجاً وقلقاً، تصرخ النسوة عندما يموت أحد الناس، كما تصرخ المرأة وتولول عندما يضربها زوجها، وينطلق الصراخ عندما تندلع النيران في أي بيت أو جرن، وعندما تنشب معركة بين شخصين، وفي الحالة الأخيرة، تعلمنا من أهلنا منذ أن كنا أطفالاً، عندما يكون هناك صراخ المعركة، فلا ننزل من البيت بدون سلاح، ابتداء من الهراوة الغليظة حتى البندقية الآلية.

من نوع الصراخ نعرف نوع الكارثة.

إذا كان هناك ميت، يكون الصراخ طويلا وراسخاً، ثم تعقبه فترة راحة ويعود من جديد، وإذا كان حريقاً، يكون الصراخ متقطعاً ومتباعدا ومتعددا، ويكون بصوت استغاثة لأن كل واحدة تصرخ من مكان يختلف عن الآخر. وعندما تكون معركة يكون الصراخ متتالياً وسرعان ما ينقطع.

كان الصراخ الذي اسمعه طويلاً وراسخا، صراخ ميت.

لبست الجلباب المكوي، وضعت قدمي في حذاء، وكان الصراخ يتزايد، بحثت عن المفتاح، لم أجده في أول الأمر، بحثت عنه، الساعة الآن العاشرة صباحاً، لن تعود زوجتي قبل الواحدة والنصف أو الثانية، وجدت المفتاح، فتحت، ونزلت إلي الشارع.

في فترات مراهقتنا الأولى، وقبل أن تلتصق قريتنا بالمدينة، وتصبح مدينة مثلها، كانت لصراخ نساء قريتنا خصوصية، وكنا نتعرف عليهن من صراخهن. لكل واحدة منهن صرختها المميزة والتي لا تخطئها أذن..

صرخة كريمة معروفة، فيها بحة واضحة. عندما مات خالها منذ أكثر من خمسة وثلاثين سنة، وقتها كانت كريمة متزوجة حديثا من قريب لها بعد قصص حب متعددة مع معظم شباب القرية من جيلنا، سيد، مرعي، كمال، عثمان، داخلي وطه، تكللت كل قصص الحب معها بالفشل، كل واحد منا كان يعتقد أنها تحبه فقط دون الآخرين، وفي الليل كنا نكتشف أننا نحب أنوثتها الفائرة وشفتيها النهمتين، وجسدها اللدن، لم تبخل كريمة على واحد منا، أعطت الجميع بمقدار ما يستحق، بعضننا ظفر منها بكلمة، كداخلى ومرعى، ومنا ظفر بقبلة فى الظلام تحسس فيها نهديها مثل كمال، عثمان أخبرنا أنه رآها عارية وهى تستحم فى حجرة لا نوافذ لها تحت ضوء مصباح، رآها من سطح منزلهم المجاور لها، أما سيد، فذهب لمطالبة أمها بثمن البوص الذى أخذته من حقلهم فوجد كريمة، لم تحرمه كريمة من مائدتها العامرة، أخبرنا وقتها أنه فوجئ بها كلها بين يديه، فنزل عليه أمر الله ولم يعرف ماذا يفعل بها، وخرج مسرعا. وقال طه إن أمها كانت عندهم تساعد أمه في الخبيز، جاءت كريمة لتناديها، وقال إنه «عكمها» عند باب البيت، عصرها حتى كادت أن تصرخ، ولم يتمالك نفسه وانسابت منه النجاسة على ملابسه. واحتار بعدها في ملابسه التى تبللت بالنجاسة، وخاف أن يتخلف عن صلاة العصر خلف والده الشيخ عبدالبصير الضرير.

كلنا تعرفنا وقتها على صرخة كريمة يوم مات خالها، كنا نجلس بالقرب من باب بيت خالها المتوفى فى انتظار خروج الجنازة، كنا معا، سيد ومرعى وكمال وعثمان وداخلى وطه، كلنا تعرفنا على الصرخة من دون أن نرى

صاحبتها، كان يونس ابن عم الميت أكبر منا، يجلس بجوارنا، سمعنا ونحن نتعرف على صرخات النسوة، صاح بصوت مرتفع مزق قدسية وجلال انتظار الجنازة:

– قوموا من هنا يا أنجاس ياولاد الكلب.

شعرنا وقتها بدنو الفضيحة، اتجهت أنظار المنتظرين مستفسرة عن موضوع النجاسة، خفنا أن يبوح يونس بما سمع، ولكنه يونس كان رزينا وسكت، لم ينطق كلمة واحدة، ولم يرد على عشرات الاستفسارات الصامتة التى قرأها فى أعين المنتظرين، لم يفضحنا وقتها، وخيم السكون المقدس على الجميع، ابتلع صمت الانتظار الفضيحة التى كانت وشيكة، وبعدها خرجت الجناز محمولة على الأكتاف، يصاحبها الصراخ الجنائزى الذي يميز لحظات خروج الميت الأخيرة من المنزل الذى تربى فيه.

كان الصراخ وقتها يشعرنى برهبة الموت وقدسيته يسبب لى نكدا خاصا لا يطاق، وهو النكد الذى وعيته يوم مات عمي وأنا صغير. شعرت بتأنيب الضمير لأننى تعرفت على بحة صوت كريمة التى كانت تنعى خالها بصراخها، نهضنا جميعاً دفعة واحدة واقفين، وأسرع الناس إلي النعش، يتسابقون من أجل الحصول على ثواب حمله إلى مثواه الأخير.

من عادات النسوة عندنا، أن يسرن صارخات خلف الرجال أثناء توديع الميت، كانت هناك نقطة محددة يتوقفن عندها ولا يتعدينها، الشارع الفاصل بين الزراعة والمنازل وأول الطريق العمومي، يرجعن بعدها إلى البيوت، ويتركن الرجال يودعن الميت إلي المقابر، غير أن النسوة عندنا لا يرجعن من تلقاء أنفسهن، ويتظاهرن بأنهن يردن السير خلف الميت حتى القبور، وهى بعيدة، ويتطوع واحد أو أكثر من أقارب الميت لمنعهن من تخطى النقطة الفاصلة حتى لايزعجن الميت بالصراخ، وتستميت النسوة قريبات الميت من

أجل السماح لهن بالسير خلف قريبهن لتوديعه والبكاء عليه، ويستميت الرجال أيضاً فى منعهن، ويستدعى الأمر أن يمسكهن الرجال من أيديهن، أو أكتافهن، أو أى مكان يتمكن منه الرجل، ليجبرها على العودة، تكون المرأة منهن غارقة فى البكاء والحزن غير متنبهة إلى الأيدى الكثيرة التى تحاول منعها، وتترك الرجل يصدها من أى قطعة فى جسدها يتمكن منها، كان يونس يتولى تلك المهمة باقتدار، وكان علينا أن نهب لمساعدته فى المهمة، عندما حاولت منع كريمة وهى تستميت من أجل توديع خالها إلى مثواه الأخير، وجدت حولى سيد ومرعى وكمال وعثمان وداخلى وطه، تركوا الأخيرات وجاءوا من أجل التصدى لكريمة ومنعها. وكانت كريمة تلقى حزنها ولوعتها على أول من يصادفها منعم، وترجوه أن يسمح لها بوداع خالها، وبعدها اكتشفنا أن حزنها على خالها لم يكن مبررا، وعاتبتنى بعدها بأننى لم أكن رجلا بما فيه الكفاية لمنعها وصدها، وأننى كنت خجولا ومتهاونا في عملية المنع والصد.

عندما اقتربت من مركز الصراخ، قابلنى أحد أقاربى، وأخبرنى أن سعداوى ابن سيد شحاتة الذى كان يريده أن يتطوع فى قوات الشرطة مات.

كنت أعتقد أن الذى مات هو سيد شحاتة نفسه.

عندما اقتربت من البيت، رأيت النسوة يصرخن. الرجال جلسوا صامتين بالقرب من منزل المتوفى، فى انتظار وصول أولاده ومعهم الجهاز وتصريح الدفن، أفسحوا لى مكانا، جلست بينهم، بالصدفة جاءت جلستى بجوار مرعى وكمال وعثمان وداخلى وطه، شلة المراهقة والطفولة، تذكرت جلستهم فى انتظار خروج الجنازة ومحاولة صد النساء. كدت أضحك. فهموا ما يدور بذهنى. جلال الموقف وقدسيته حالا بيننا وبين الضحك. مد لى داخلى يده

وسلم على دون أن يتكلم، كان واجما، بعد فترة تنهد كمال وقال بصوت منخفض:

– ربنا يكون في عون سيد. كل سنة تأتيه مصيبة تنزل عليه. السنة اللى فاتت مات ابنه جابر في السعودية والنهاردة سعداوى.

وقال إن سيد مريض بالكبد، وتطور إلى التهاب كبدى وفشل كلوى. وقال إن سيد مريض بالكبد، وتطور إلى التهاب كبدى وفشل كلوى. وقال مرعى إن حزنه على ابنه الكبير جابر الذى مات فى السعودية منذ عام مضي، عندما جاءت برقية من الكفيل بأن جابر سيد مات وليس لديه أى مستحقات قبل الكفيل، وقع سيد على البرقية، لم يتحمل الخبر، أخبرهم الكفيل فى البرقية أن «شحن الجثمان يتكلف خمسة آلاف ريال وإن لم ترغبوا سيدفن فى البقيع مع آل البيت». ولكن سيد رفض أن يدفن ولده بعيداً عنه، ورد على البرقية بأنه سينتظر الجثمان مهما تكلف.

قال كمال إن سيد كان فقيرا، رهن خمسة قراريط لا يمتلك غيرها، نظير عشرة آلاف جنيه، وضعها فى جيبه لأجل أن يسافر للسعودية لإحضار جثمان ابنه، ولكنهم في القنصلية رفضوا أن يعطوه تأشيرة، رغم أنه أظهر لهم البرقية، وأنتظر سيد سبعة أيام، وفى اليوم الثامن أبلغوه أن الجثمان وصل المطار، وسافر سيد للقاهرة ومعه أقاربه، وفى المطار أظهروا له الصندوق الذى فيه الجثمان، وقالوا له: هذا ابنك، وحاول سيد أن يفتحه ليرى ابنه، ولكن أقاربه منعوه، واستأجر سيارة اسعاف دفعوا لها خمسمائة جنيه، وعند القبر فتحواْ الصندوق، وجدوا جثة جابر سليمة وفيها جرح نظيف فى الرأس، لطم سيد على رأسه ووجهه، ومن شدة اللطم وقع على الأرض، ورفعوه، ومن ساعتها وهو مريض.

بعد أسبوعين، أرسل الكفيل برقية أخرى، يعلمهم فيها إن «المغفور له

جابر سيد شحاته. ليس له أى متعلقات، ولا مستحقات، وأنه مدين لنا بمبلغ خمسة آلاف ريال، استعوضنا الله فيها.

وقال كمال إنه بعد شهرين من وصول جثمان جابر ابن سيد، وصل مهنى أبو جمعه، وكان يعمل في منطقة المدينة المنورة بالسعودية، وهى نفس المنطقة التي كانت يعمل فيها جابر، وقال مهنى، أن ابن الكفيل هو الذى ضرب جابر، وأخبرهم مهنى أن ابن الكفيل سمع زوجة ابيه تذكر اسم جابر مرتين. وقال مهنى أن زوجة الكفيل كانت تحب المصريين، وأنهم هناك «داسوا» على الموضوع، وقالوا إنه وقع من السيارة بيك أب أثناء سيرها بسرعة.

توقف كمال عن الكلام.

اقترب منى طه. كنت أعرف ابنه مدحت انضم للجماعات المتطرفة ولايزال هاربا ومطلوب القبض عليه، وكنت أعرف أن طه نفسه اعتقلوه أكثر من مرة ليخبرهم عن عنوان ابنه، أنكر طه أنه يعرف مكان ابنه. كان طه فعلا لا يعلم أين يوجد ابنه، وقتها كان هاربا فى زراعات القصب والجبال. ينزل الوادى يقتل رجال الشرطة ويخطف السلاح منهم ويعود إلى الجبل وزراعات القصب جلس طه بجوارى، سألته عن ابنه أخبرنى أن كل زملاء ابنه ماتوا وعدد منهم مقبوض عليه إلا هو وقال إنه يريد أن يسلم نفسه. وأنه يريد أن يتكلم معى فى هذا الأمر، أخبرته أننى مستعد لاستقباله فى بيتى في الوقت الذى يريده لنتكلم فى هذا الموضوع.

تزايدت اعداد الجالسين فى انتظار الجنازة، وبعضهم لم يجد مكانا ليجلس وفضل الوقوف، بعد ساعة، وصل أقارب سيد ومعهم تصريح الدفن والجهاز، كان أحد الأشخاص يحمل صرة بيضاء كبيرة فيها الكفن، هنا يسمونه الجهاز من تجهيز الميت وتكفينه وإعداده للدار الآخرة، كان سيد

معهم، وعندما وصل إلى البيت انهار، تعاونوا معا من أجل أن يسندوه. وبمجرد وصولهم ودخولهم البيت أخرجو كل النسوة، وأدخلوا خشبة عريضة، ووضعوها فوق طشت، وبدءوا عملية الغسيل، وبعد أن انهوا عملهم، وضعوه فى الكفن، ثم رفعوه ووضعوه فى النعش..

طلب منى مرعى أن نذهب إلى المسجد قبل أن يزدحم بالراغبين فى الصلاة على الجنازة والانتظار هناك، ولأجل أن نشارك فى الصلاة، كنت متوضئا ذهبت معه، وجدنا عدداً كبيراً من الناس كانوا فى الانتظار، كلما مر الوقت كان العدد يزداد، سمعنا لغطاً عند الباب. وصل النعش، كانوا يحاولون إدخاله من الباب، وقفنا متجاورين، تكون داخل المسجد أربعة صفوف، وقف شخص ملتح يرتدى جلباباً قصيراً. سألنى الذى يقف بجوارى عن هذا الشخص الذى لم يرونه من قبل، أخبرته أننى لا أعرفه، قالوا إنه غريب عن المكان، كنت أحسبه الإمام المعين من قبل الأوقاف، التفت الرجل إلي المصلين وقال:

– استغفروا الله للميت، واطلبوا له المغفرة من ربه، هذا مصير الدنيا من يتمسك بها فهو خاسر، ومن تدثر بها فهو حاسر.

سمعنا أحد الأفراد يصيح:

– انتظر خمسة يا سيدنا الشيخ.

هوى سيد على الأرض، بعد أن أعلن لهم أنه سيصلى على ابنه مع المصلين، بصعوبة أوقفوه، لم أجرؤ على النظر إليه، كان الموقف عصيبا، كبر الإمام التكبيرة الأولى، وانتظر قليلا ثم كبر التكبيرة الثانية، كان الصمت يخيم على المسجد الواسع، الذى بناه إسماعيل «بيه» بعد الحاح الناس..

حملة الرجال وساروا خلفه إلي المسجد.

المسافة المؤدية إلي المقابر، قطعناها فى ساعة كاملة من السير المتواصل

فى طريق ترابى غير معبد كان الرجال يتناوبون حمل النعش، وكانوا يندفعون إلى هذا العمل بإخلاص، اقتربت من النعش،، وجدت نفسى أسير خلف شخص يحمل الطرف الأيمن الخلفي من النعش، سرت خلفه مدة قليلة، ورأيته ينظر خلفه..

دون وعى منى، وجدت نفسى أتقدم خلف الرجل، وأضع كتفى تحت ذراع النعش، وعندما استقرت الذراع على كتفى الأيسر، وجدت نفسى أسير تلقائيا، الغريب أننى لم أشعر بثقل النعش، وخيل إلى أننى لا أحمل شئ على الإطلاق، كان النعش خفيفا، وكانت خطوتى منتظمة، على نفس إيقاع خطوات الثلاثة الآخرين الذين يحملون معى النعش، وشعرت أننى أمشى بخشوع لم أشعر به من قبل، شئ ما مقدس فى تلك الطريقة من السير التي تسير بها وأنت تشعر أنك تحمل على كتفك أمانة غالية، وتحدوك رغبة فى توصيلها إلى مستودعها الأخير، وتذكرت أن الأمانة ستصبح بين يدى الله، وأنا أسير فى اتجاه المقبرة خيل إلى أننى قد أصبحت قريبا من الله، شعرت براحة غريبة لم أشعر بها من قبل، وتخيلت نفسى مكان الميت فى النعش ويحملنى الأهل والأقارب بتلك الطريقة المبجلة والمقدسة. وهى نفس الطريقة التى حمل بها قدماء المصريين موتاهم، وساروا بها إلى القبور بنفس الخشوع والقداسة التى نسير بها نحن. إنه نفس الجسد الإنسانى الذى أضفت عليه كل الديانات الإنسانية القداسة والتوقير.

لم أعرف كم مضى في الوقت عندما شعرت بمن يسير خلفى يتناول ذراع النعش، ويستدير ليدخل أمامى واضعاً كتفه الأيسر تحت الذراع الذى كنت أحمله، تحررت من النعش ووجدت نفسى أسير خلف الجميع.

عندما وصلنا إلى المقابر بدأت سرعة النعش تقل، ورأيت الذين يحملون يبذلون جهداً فى دفعه للأمام، من بعيد سمعت صوتاً يصيح:

- سعداوى.. انتظرنى يا سعداوى.

وتوقف النعش تماما.

ورأينا رجل طاعن فى السن، يركب حمارا ويحثه على السير، كان عبدالبديع، خال سعداوى، وكان يضرب حماره بعنف، وعندما وصل إلى جوار النعش، توقف الحمار، ولكنه ضربه بعصا كانت معه، وقال:

- حا.. حا

- وسار النعش فى طريقة، وسمعنا عبدالبديع يقول معاتبا:

- برضه كده يا سعداوى، تسيبنى وحدى وتمشى.

كان عبدالبديع يخاطب سعداوى، وكأنه لايزال حيا، أما كيف استجاب له سعداوى، وهو داخل النعش وكاد أن يتوقف، فهو السر الذى لم أفهمه، والذى استعصى على. وفوجئت بالرجال الذين يحملون النعش وهم يبكون بحرقة، وهو ما دعا آخرين إلي التقدم لحمل النعش بدلا منهم، حتى توقفوا بجوار القبر الذى سيدفن فيه سعداوى.

ذهبت إلى مقبرة أسرتي، وجدت عدداً من أقاربى سبقونى إليها، ووقفوا يقرأون الفاتحة، قرأت الفاتحة لوالدى، ووالدتى، وجدي، وجدتى، وأعمامى، وأقاربى، وتذكرت ابنى الصغير المدفون فى تلك المقبرة، قرأت له الفاتحة بمفرده.

فى طريق العودة سار معى فتح الباب، وسار معنا سنوسى ابن عمى، وعدد من أقاربنا، أشار فتح الباب إلى شخص رفيع البدن، ظهره منحن قليلا ويضع على كتفه شالا كبيرا، ويرتدى جلباباً من الصوف الغالى وله لحية طويلة أسفل ذقنه، كانت تشبه ذيل ماعز، وقال:

- ذكرى.

التفت فتح الباب إلى ذكرى وقال له:

- سلم على الباشا، بس أوعى تعمل فيه حاجة.

وجدت ذكرى يعانقني عناقا حارا، وبعد أن فرغنا أمسك يدى وقال:

- والله زمان. أنت نسيتنى؟

الحق أننى لم أكن نسيته، فقد ذكرنى به فتح الباب عندما زارنى منذ شهرين، وأخبرنى أنه تخصص فى العلوم السفلية وأنه يفهم فى مسائل السحر. فك الربط وفك الأعمال.

لم يكن ذكرى الذى يمسك يدى ويسير بجوارى هو ذكرى الذى كانت آخر مرة أراه فيه يوم أن نجحنا في المرحلة الإعدادية، وقتها أخبرنى أنه لا ينوى استكمال تعليمه العام، وأنه ينوى أن يتجه إلى التعليم الفنى.

تذكرت أننى رأيت ذكرى مرة أخرى بعد أن تخرجت، حاولت أن أتذكر أين رأيته ومتى ولكننى لم أتذكر.

قال لى ذكرى وهو يمسح العرق عن جبينه إنه أخطأ عندما لم يحضر سيارته الشيروكى ليركبها بعد عودته من تشييع الجنازة، وقال إنهم أخبروه أن الطريق غير ممهد ولا يصلح لسير الشيروكى.

وقال له فتح الباب.

- كله بثوابه يا شيخ ذكرى.

كنت كلما حاولت أن أنظر فى وجه ذكرى يبتعد عنى بعينيه، أنا واثق أننى رأيته. قال ذكرى إنه يريد أن يشترى منزلاً فى القاهرة.

كان فتح الباب قد أخبرنى عندما زارنى فى البيت أن ذكرى ينوى الترشيح لعضوية مجلس الشعب. سألت الشيخ ذكرى:

- صحيح يا شيخ ذكرى؟

- الحزب عايز يرشحنى.

كنت أريد أن أسأله عن مسألة الربط. سبقنى فتح الباب وقال:

– لكن يا شيخ ذكرى صحيح حكاية الربط أدى؟

ضحك ذكرى، وقال:

– صحيح، تدفع كام وأفك لك الربط.

– تأخذ مني أنا يا شيخ ذكرى، يا شيخ الدجالين.

شعرت بنوع من الحرج، وخفت أن تفلت مني كلمة لتكشف عن حالتي، وتركت فتح الباب يتكلم مع ذكرى.

عدت إلى البيت منهكا. ما إن رأتني زوجتي حتى صاحت في قائلة:

– كنت فين؟

أخبرتها أنني ذهبت للوداع في جنازة سيد أبو شحاته. قالت وهي تبدو مشغولة علي:

– طيب مش كنت تسيب خبر، أنا قلت الراجل راح فين؟

أخبرتها أنه لم تكن هناك فرصة، لأنه سيد مات بعد أن خرجت هي إلى عملها، وأنني نسيت أن أكتب لها ورقة وأضعها عند الباب. نظرت إلى جلبابي وقالت:

– إيه كل التراب ده؟

– أصل الطريق كان كله تراب.

قالت على الفور بصيغة الأمر.

– أقلع هدومك في الحمام واستحم.

قالت مستسلما:

– حاضر.

دخلت الحمام. غيرت ملابسي، وعندما خرجت وجدت طعام الغذاء وقد وضعته لي زوجتي، أكلنا، ذهبت زوجتي لتنام قليلا في القيلولة. لم أجد ما أفعله.

فتحت التليفزيون، فضائية عربية، ظهرت مذيعة، ومعها رجل له لحية مدببة كأنها مرسومة، لم تظهرَ الكاميرا كل جسده. كان يرتدي ملابس غريبة تشبه ملابس الأطفال، وبينهما منضدة، كانا صامتين ويستمعان باهتمام إلى صوت امرأة تتحدث وغير موجودة معهما.

كان الصوت لسيدة شابة تبدو من نبرات صوتها في منتصف العمر، تتكلم ببطء وفي صوتها نبرة أنثوية لذيذة ومشوقة، ذكرتني بالذي كان. غير أنني شعرت بشئ ما يشدني إلى هذا الصوت المثير، وسمعتها تقول:

– حلمت أني مع جوزي المتوفي، كنا نايمين مع بعض ومبنعملش حاجة، يعني كنت طاهرة، ودخل واحد عارفاه، كان عايز يخطبني من زمان، وكان ماسك في إيده شمعة مولعة وتخينة وطويلة، وكان بيقربها على جسمي، وحسيت أنه كان عايز يحرقني بالشمعة التخينة. وبصراحة أنا كنت مبسوطة، وكنت عايزاه يحرقني، لكن خايفة جوزي يضربه. لكن بعده حسيت إني خايفة بجد لحسن يحرقني. وصحيت من النوم وأنا خايفة خالص.

سألها الرجل:

– إنتي متزوجة؟

– كنت متزوجة، بس هو أتكل.

– اتكل أمتي؟

– من تلات سنين.

– بتشتكي من أمراض؟

– عندي صداع شديد بيحضر ويغيب، ويزيد علي في الليل وأنا نايمة لوحدي، جسمي بيوجعني في أماكن محددة في الليل.

– أنا ها قولك حاجة لكن ما تزعلي مني.

– لأه. مش حازعل.

– يعنى هو كلام سيئ، أنتى قعدتى فى يوم تتكلمى كلام مش حلو فى مكان ما، كلام مش طيب، وفيه سب لإنسان أو إنسانة، صح؟

– صح. أنا تكلمت على واحدة جارتى. أصل هى مش محترمة خالص، وبتحب الرجالة أوى.

– هو طبعاً الواحد يستحسن يخليه فى حاله، وإنشاء الله ربنا هيصلح حالك، والبشارة ظهرت من الرجل اللى فى ايده شمعه مولعة، دى شارة كويسة، يمكن فيه واحد فى الطريق.

– متشكرين خالص، ربنا يطمنك زى ما طمنتنى.

– مع السلامة.

قالت المذيعة:

– معايا تليفون من نجلاء.

وجاء صوت نجلاء غير واضح، وقالت المذيعة:

– ألو نجلاء، من فضلك يا نجلاء ابعدى عن التليفزيون، ووطى الصوت شوى.

وبالفعل جاء صوت نجلاء نقيا وواضحا وقالت:

– سلام عليكم.

وقالت المذيعة:

– عليكم السلام.

– إزيك يا ريهام.

– إزيك يا نجلاء.

– بصراحة البرنامج بتاعكم حلو كتير. بتسووا فيه كلام حلو.

– شكرا نجلاء.

– أنا بصراحة عندى حلم.

– اتفضلى يا نجلاء.

– أنا ابنى توفى وعمره يومين. من سنة تقريبا، وأنا شفت أنى لابسة أبيض، ورحت لبلاد بره باريس يعنى، ودخلت بيت، وكنت مشغولة بالهدوم واللعب بتاعة العيال الصغيرة، ولبست هدوم بيضا، وقلت لنفسى: معقول أنا لابسة كل ده؟ وبعدين صحيت.

. قال الرجل:

– ها أسألك وتجاوبينى بصراحة ؟

– أتفضل حضرتك.

– إنتى متزوجة؟

– بقول لحضرتك عندى ابن ومات من سنة.

– سورى. أنا آسف ما أقصدش.

– يعنى حضرتك متزوجة.

– آه.

– وبتقولى كان معاكى ابن ومات؟

– آه.

– وانشغلتى بالهدوم واللعب بتاعة العيال الصغيرة؟

– آه

– منيح. إمنيح. يعنى إنك انشغلتى بالدنيا، ودا معناه أنه فيه رسالة. وفى الحقيقة أن كان فيه عيل ومات؟

– آه.

– قولى الحمد لله.

– الحمد لله.

– كل اللى شفتيه فى الحلم لصالحك، وفيه حمل إنشاء الله قريب لأنك

بتجهزى هدوم ولعب للعيال، وقولى الحمد لله.

– الحمد لله.

– مع السلامة.

– شكراً.

وقالت المذيعة:

– معايا تليفون من الأردن، آلو، آلو.

–..........

– مش سامعة حاجة خالص. ممكن توطى التليفزيون وتبعدى عنو شوى.

– أنا عراقية، أستاذة فى كلية الإعلام، جامعة اليرموك فى الأردن، ساكنة فى بغداد فى الكرخ، حلمت إنى رأيت شارون ومعاه فرقة هدم، كان جاى يهد الكرخ فى بغداد العراق، وكليتى اللى فى الأردن، وأنا كنت زعلانة خالص، عينى شافتو، وأعطانى قلم هدية، أنا كنت مو فرحانة، جربت القلم ما بيكتب، ولا كتب زين بعد هيك، من ساعتها وأنا مو مرتاحة، مو مبسوطة.

قال الرجل:

– أهلا بيكى، الرؤيا فى الحقيقة فيها تأويلين، تأويل فى حق من شاف الرؤيا، وتأويل فى حق شارون نفسه، مين اللى شافت الرؤيا؟

– أنا بعينى اللى شفت الرؤيا. ما حدا غيرى.

– يعنى إنتى اللى شفتى شارون؟

– فى الحلم، لكن فى الحقيقة ما شفته ولا رأيته وما أعرفه.

– إنتى متزوجة؟

– مو مزوجة.

– فى الحقيقة سيرزقك الله بشخص مثل شارون، مخاتل وخبيث ومخادع، يعطيكى من طرف اللسان حلاوة الكلام. أما قلبه فهو والعياذ بالله

أسود، على المستوى الآخر، شارون يضع السم فى العسل، لأنه أعطاكى قلم لم يكتب، لكن للقلم رمز آخر غير مناسب لواحدة مثلك لسه عزبا.

قاطعته المذيعة وقالت:

- ألو معانا تليفون من الإسكندرية، ألو، أرفع الصوت من فضلك.

- أنا رشدى من الإسكندرية. مصور فوتوغرافى.

- أهلا وسهلا. أتفضل.

تدخل الرجل وقال:

- تفضل.

- والله ما أنا عارف أحكى، لكن ببساطة أنا شفت حلم غريب.

- أتفضل أحكي، أنا سامعك كويس.

- أنا راجل متزوج، وشفت إن مراتى قاعدة فى الكوشة فى النادي، يعنى فرحها، وأنا قاعد مع الناس أتفرج على الفرح بتاع مراتى، ومبسوط لأنها هاتتزوج.

- خير، إنشاء الله خير كتير جاى لك فى الطريق، ورزق واسع، أبشر، أبشر.

حولت محطة التليفزيون إلى محطة أخرى.

....

اليوم يوم جمعة، أخبرتنى زوجتى إنها استأجرت سيدتين من القرية وجهزت فرناً فى حجرة السطوح، وقالت أنها ستخبز لنا الخبز، وبالفعل جاءت احدى السيدتين وبعدها جاءت الثانية، أخذتهما زوجتى وصعدت إلى السطوح.

عندما انتهت زوجتى من عملية خبز العيش البلدى، كانت منهكة. دخلت الحمام وخرجت، وشعرها ملفوف بالفوطة، ودخلت إلى غرفة النوم رأسا،

كنت أنا أشاهد التليفزيون وكان المذيع قد أعلن أن الرئيس الأمريكي قد أمهل صدام حسين ٢٤ ساعة لمغادرة بغداد هو وعائلته، كانت رأسي وقتها تلف وتدور، فقد نقلت المحطات الفضائية انذار الرئيس بوش للرئيس صدام على الهواء مباشرة، وكان وجه بوش لا ينبئ عن جديته، كما كان يخلو من الصرامة المفترضة في رئيس دولة على وشك إعلان الحرب..

شعرت بخيبة أمل، ولم ألتفت إلى زوجتي وهي تعبر الصالة في طريقها إلى حجرة النوم، ولم أسألها كما هو المعتاد عن حكاية الخبز، كما أنها لم تحك لي هذا الأمر من قبل . صحيح أنها قالت قبل ذلك أنها ستخبز لنا العيش، بعد أن امتنع سليم صاحب المخبز عن امدادنا بالخبز اليومي الذي كان يرسله لنا وأنا في الخدمة، ولم تكن زوجتي معتادة على تلك القرارات الفجائية.

تذكرت أنه من المحتمل أن يكون ما حدث معي قد أحدث شرخا كبيراً في علاقتنا الزوجية، وأنه من الممكن ألا علاقتي الحميمة بزوجتي كالمعتاد، بدليل عدم إخباري بتفاصيل عملية الخبيز ومقدماتها والتجهيزات التي سبقت عملية الخبيز، من شراء الغلال وغربلتها وغسيلها وطحنها وتحليلها وعجنها وخبزها، كل هذا لا يمكن أن يتم في يوم وليلة.

كانت والدتي -رحمها الله- تنفق يوما كاملا من آذان الفجر حتى بعد صلاة العشاء في عملية الخبيز يساعدها عدد من النسوة قريباتنا، وأحيانا كانت تساعدها راعوث القبطية جارتنا زوجة فلتس التي زارتنا بسب القبض على ابنها روماني، كانت أمي تعلن حالة الطوارئ في البيت قبل عملية الخبيز بيوم أو يومين للتجهيز والإعداد، وبعد الخبيز للتنظيف والترتيب، حيث كانت تبدو مرهقة من آثار هذا اليوم، وقتها نحسب ليوم الخبيز ألف حساب، وكانت له أطعمة معينة لا نأكلها إلا في فيه، المدمس المدفون في

الفرن، الفطير المشلتت، العدس أو جبة، وفى أحوال الرواج طواجن السمك.

لو أخبرتنى زوجتى أنها تنوى الخبيز لكنت نصحتها بأن تفعل لنا شيئاً نأكله من هذا، ولكننى تذكرت أن الفرن الذى كانت تخبز فيه أمي يختلف تماما عن الفرن الذي خبزت عليه زوجتي، فقد كانت أمي تجهز الحطب والبوص وأكوام الجلة. وكان لنا مستودع للوقود فوق منزلنا. أما الفرن الذى خبزت عليه زوجتي فهو مزود بأنبوبة بوتاجاز، ولا يحتاج لمن يراقبه، ولا دخان ولا صماد، وها هى أنهت عملية الخبيز، وبدأت تستعيد رونقها.

وفكرت فى عتابها، لأنها أعدت وجهزت ونفذت، دون أن تتفوه أمامى كلمة واحدة، ولكن ما شأنى أنّ بتلك الموضوعات النسوية التى تتصل بشئون البيت ومملكة النساء؟

هل أنا فعلا كما قالت زوجتى أصبحت فارغا بلا عمل وبدأت أتفرغ للبيت وأنازعها مملكتها؟

معها حق زوجتى عندما تبرمت من تدخلى فى تلك الأمور. ينبغى أن أكون رجلا وأترك لها شئون البيت تديره كما تشاء. لقد أدارته بحنكة واقتدار عندما كنت مشغولا بعملي. لم أسمع كلمة واحدة عن البيت وما يحدث فيه،، كما أنها لم تشك ولم تتبرم، وكانت تدير البيت برضا وحب. حتى الأولاد خيل إلى أنهم كبروا فجأة دون عناء، وعندما كنت أعود بذاكرتى للخلف كنت أتذكر أنها كانت تسهر عليهم عند مرضهم فى الشتاء والصيف. ولم يكن دورى سوى السؤال عنهم.

دخلت عندها فوجدتها تسرح شعرها الطويل، جلست على السرير، أراقبها، نظرت إلى وابتسمت كان هذا فيما مضى يعنى الاستعداد لأمر ما، ولم أكن من ناحيتى مستعدا لوضع رجولتى محل اختبار آخر قد يفشل، وكنت أتحاشى الحديث فى هذا الموضوع، وخيل إلىّ أننى لم أكن يوما ما

رجلا على الإطلاق، ونسيت كل ما سبق، قلت وأنا أتأمل حيويتها وصحتها ووجهها الذى أكتسى بلون مبهج:

– كان لازم تتعبى نفسك؟

– أحسن من قرف المخابز. عندنا الدقيق والفرن

– أحسن. لأن الحرب ها تقوم.

– الحرب. حرب إيه؟

– بوش أنذر صدام بمغادرة بغداد هو وأسرته فى ظرف ٢٤ ساعة...

– وبعدين؟

– طبعاً هو لن يخرج وسيضربوه.

– خسارة.

وخيم علينا الصمت.

(٩)

قالت لى سميحة ابنتى :

– بابا . فيه مشكلة صغيرة .

– مشكلة إيه ؟

– فيه استاذ فى الكلية يضايقنى .

– إزاى ؟

– يقول لى غطى شعرك وحاجة زى كده .

سألتها عن اسمه ومكان تواجده ، وقلت لها :

– سأقابله .

ابنتى سميحة بكلية الهندسة ، فى السنة الإعدادية ، اختارت الهندسة برغبتها ، وليست متبرجة وتغطى شعرها بإيشارب ولا يظهر منه شئ ، كما أن ملابسها محتشمة ، ومضبوطة على جسدها أحيانا تبدو ملابسها واسعة

عليها ، وهى هادئة ، أخذت كثيرا من والدتها شكلها وطباعها التى تميل إلى الهدوء والاعتدال ، كما أنها رقيقة الجسم ، وكنت أنا ووالدتها نحثها على أن تأكل كثيرا حتى يمتلئ جسدها .

شعرت بالقلق مما أخبرتني سميحة ، لقد حكت لى سميحة المشكلة ببساطة ، ولكننى كنت أميل إلى الاعتقاد أن المشكلة اعقد مما حكته لى ابنتى ، وليست بالبساطة التى حكتها فى كلمتين فقط ، وإلا ما كانت قد أخبرتنى لو أن المشكلة سهلة أو هينة .

كما أننى لم أحاول الاستفسار كثيرا منها حتى لا تعتقد ابنتى أن المشكلة فعلا كبيرة.

سافرت سميحة يوم الجمعة ومعها تامر إلى الجامعة ليستقرا فى المدينة الجامعية.

بعد أن تناولنا الغذاء رن التليفون ، رفعت السماعة ، وقلت :

– آلو .

– حضرتك اللواء ...

– نعم .

– أنا الشيخ محفوظ رئيس مجلس إدارة جمعية كفالة اليتيم.

– أهلا وسهلا .

– كنا عايزين نقعد مع حضرتك شويه.

– حضرتك تشرف فى أى وقت .

– الليلة .

– إنشاء الله بعد صلاة العشاء.

– تحت أمرك.

وأغلق السماعة.

الشيخ محفوظ أعرفه معرفة جيدة . منذ أن عين شيخاً فى مسجد قريتنا بعد وفاة الشيخ عبد البصير ، استمعت إليه وهو يخطب خطبة الجمعة عندما كنت فى الثانوية ، وقتها قرأ بعض الآيات وشرع فى تفسيرها مستخدما لغة سهلة وبسيطة أقرب إلى العامية ، ولكنها لم تكن عامية ، واسترسل فى الشرح والتفسير حتى أنهى الخطبة ، شعرنا وقتها أنه قريب منا . والتففنا حوله . وكنا ننتظر يوم الجمعة لنتابع معه تفسير القرآن الكريم . وتوطدت معرفتى . وبعدها اخبرنا أنه سيذهب إلى الصومال ، وغاب عنا فترة طويلة ، وجاء إمام غيره كان ضريرا وطالب أهل القرية بأن يتكاتفوا فيما بينهم ليشتروا ميكروفون للمسجد ، وقتها كانت الميكروفونات قد بدأت تغزو المساجد . وبالفعل اشترينا الميكروفون واكتشفنا أن صوت الشيخ بدأ يتحول إلى زعيق صارخ . وبعد أن كان لا يعظ الناس إلا يوم الجمعة بدأ يعظ عقب كل مغرب مستخدما الميكروفون وهو مفتوح على آخره. لم يجرؤ أحد على الشكوى أو التبرم ، وعندما اشتكى أحد الجيران من ضجيج الميكروفون اليومى كاد الشيخ أن يصف الرجل بالزندقة والكفر . من الذى يتبرم من ذكر الله ؟

وعندما جاء الشيخ محفوظ تمكن من إقناع إسماعيل (بيه) نجل الباشا الذى كان يمتلك كل الأراضى بزمام القرية بالتبرع لجمعية كفالة اليتيم ، وبالفعل تبرع بقطعة من الأرض مساحتها سبعة قراريط .

فجأة ظهرت جمعية أخرى بنفس الاسم أسستها مجموعة أخرى وضمت فى عضويتها بعض الأشخاص ذهبوا إلى إسماعيل (بيه) لإقناعه بالتبرع للجمعية بمبلغ مالى .

ثار الرجل واعتبر أنه تعرض لعملية ابتزاز بإسم الجمعية . وسألنى عن سر جمعيات كفالة اليتيم التى ظهرت فى المدينة التى لم يعرف عنها أبداً

رعاية يتيم . ضحكت ، وأخبرته أن المدينة إستيقظ ضميرها فجأة ، ولكنه رفض أن يتبرع لأى جمعية أخرى . وقام بالتبرع لمعهد الأورام بالجامعة بمبلغ مليونى جنيه . كما تبرع للمستشفى بمبلغ مالى لشراء أجهزة غسيل كلوى . واكتشفنا بعدها أن يعضا من تلك الأموال اشترى منه وكيل آل بيه أجهزة تكييف لمأمور المركز وقام بتبليط أرضية هيئة شرطية بالسيراميك.

★★★

بعد صلاة العشاء رن جرس الباب . عندما فتحت وجدت الشيخ محفوظ بزيه الأزهرى وعمامته ولحيته الكبيرة ، كان معه ثلاثة آخرين .

رحبت بهم وأدخلتهم إلى غرفة الجلوس . قدم لى الشيخ الذين جاءوا معه، وقال إنهم أعضاء في مجلس إدارة جمعية كفالة اليتيم ، الأول ناظر مدرسة والثانى مدير في التربية والتعليم والثالث موظف فى الشئون الاجتماعية.

حدثنا الشيخ عن أحوال المسلمين وقضية الجمود الفكرى ولآراء الأخيرة التى تتناولها وسائل الإعلام . قتل وأنه أكمل بناء مقر الجمعية وأنه يزمع إنشاء قسم لتعليم الكمبيوتر والتفصيل للأطفال اليتامى ، وأنه جمع تبرعات عينية من القادرين وهى عبارة عن ملابس مستعملة ولكنها كالجديدة وتم كيها وطيها ووضعها فى أكياس لكى توزع على الفقراء والمحتاجين من اليتامى فى المدارس والجامعات ، وعندما بدأ فى توزيعها على اليتامى والفقراء فوجى بأن الذين يتقدمون الصفوف للحصول على تلك الملابس من القادرين وبعضهم من صغار الموظفين ، وقال إن حالة الناس المالية والدينية أصبحت فى الحضيض ، وقال إنه شيد هذا المقر على أراضى الرى المتروكة بدون إستخدام ، وأنه حصل على حق إنتفاع الجمعية لقطعة أرض كانت تلقى فيها الزبالة على شاطئ الإبراهيمية بعد أنْ رفض إسماعيل (بيه) أن

يفرج عن قطعة الأرض التي تبرع لهم بها مع أنها مسجلة في الشهر العقارى . أخبرتهم أن الرجل في النزع الأخير بين الحياة والموت ولا يمكن أن نتحدث معه فى هذا الموضوع . ومادامت الأرض مسجلة فلا خوف من عدوله عن التبرع وهو بين يدى الله.

وفجأة ابتسم الشيخ وقال :

– كنا نريد رأيك في موضوع حدث معنا.

حكى الشيخ عن مقر الجمعية الذى أسسوه وقال إنهم أحضروا بعض الأدوات الصحية من مواسير وحمامات وخلاطات وحنفيات ولوازم السباكة ، ووضعوها في الجمعية في انتظار أن يتم الاتفاق مع أحد السباكين لتركيبها، وذات صباح فتحوا الجمعية فوجدوا اللصوص قد حاولوا كسر باب الغرفة التى فيها أدوات السباكة ، وعندما فشلوا فى فتح الباب أشعلوا النيران فيه حتى أتت عليه وسرقوا المعدات كلها وهربوا.

وقالوا إنهم يحمدون الله لأن النيران لم تمتد إلى الغرفة المجاورة والتى فيها التبرعات التى جمعوها من أهل الخير ، كما أنه لا توجد بجوار الباب المحترق مواد قابلة للاحتراق .

وقال الشيخ أنهم قاموا بإبلاغ الشرطة على الفور ، ولم يتهموا أحدا

وقامت الشرطة على الفور بجمع أرباب السوابق والمشبوهين من اللصوص والنشالين والمعروف عنهم ممارسة هذا النوع من السرقات ، وبدأت تستجوبهم على أمل التوصل إلى الفاعل الحقيقي . وقال الشيخ إنه لا يعرف أسماء الذين شملتهم تحريات الشرطة ولا الذين خضعوا لاستجوابها ، فضلا على أنه لم يتهم أحدا ، وقبل آذان الفجر فوجئ الشيخ بمن يطرق عليه باب منزله بعنف ، وعندما فتح الباب فوجئ بأنهم ثلاثة أحدهم محام يعرفه الشيخ والأخيران لا يعرفهما أحدهما قزم حسبه الشيخ

طفلاً . أبلغوه بأنه إن لم يسحب بلاغه الذى تقدم به إلى مركز الشرطة بخصوص سرقة الجمعية فإنهم على استعداد لإلحاق الأذى به .

الحق أن الأمر هذا ممكن الحدوث في مدينة مثل مدينتنا التى لا تتورع عن ممارسة البلطجة على المسالمين ، وهى إحدى مساوئ المدينة التى لم تتمكن رغم تحضرها من التخلص من هذا العيب الخطير من عيوبها ، إلى جانب عيوب أخرى منها عدم نصرة الفقير وأكل مال اليتامى والتحريض على القتل والنهب ، والافتخار بالسرقة والخطف ، وبيع الأرض من أجل السلاح ، أخبرنى الشيخ بأنه جاء لكي يأخذ رأيي فى مسألة التنازل عن البلاغ.

أخبرته أن لابد من إبلاغ مركز الشرطة بالتطورات الجديدة . أما مسألة التنازل عن السرقة فهذا ليس فى استطاعته . لأن البلاغ أصبح بين يدى النيابة وهي وحدها صاحبة الحق فيه . هذا فضلا عن أن الشيخ لم يتهم شخصا محددا .

أطرق الشيخ قليلا إلى الأرض ، وقال إن المحامى الذى جاء معهم ينتمى إلى عائلة قوية ومن المحتمل أن ينعكس هذا على علاقة تلك العائلة بعائلته وربما تسبب في ما لا يحمد عقباه.

كنت أشعر بمخاوف الشيخ الذى لا يريد أن يزج بعائلته فى نزاع لا ناقة لها فيه ولا جمل ، لأن النزاع عندنا من السهل أن يبدأ ، ولكنه من الصعب أن ينتهى ، ولا يمكن التكهن بالحدود التى ينتهى عندها .كان علينا التصرف بحكمة.

وقال لى الشيخ إنه سيعتبر مجلس إدارة الجمعية فى حالة اجتماع دائم حتى لا يتعرض بمفرده للتهديدات ولابد من التعاون لدرء هذا الخطر . أقره الحاضرون معه على هذا الرأى.

اتصلت بمأمور المركز ، وأخبرته بالموضوع الذى ذكره الشيخ . أخبرنى أنه يتفهم لمخاوف الشيخ ، وأن دورية شرطية اشتبهت فى ثلاثة لوجودهم بالقرب من منزل الشيخ فى توقيت مريب ، وبالفعل قبضت الدورية على الذين زاروا الشيخ قبل الفجر بعد خروجهم من عنده بالصدفة ، وقادهم الضابط رئيس الدورية إلى مركز الشرطة واعترفوا بأنهم كانوا فى زيارة للشيخ لأجل أن يعرضوا عليه أن يقوموا هم بالشراء بدلا من الأشياء المسروقة.

وقال المأمور أن رجال المباحث يستجوبونهم الآن حول علاقتهم بالفاعلين المجهولين ، والسبب الذى من أجله تطوعوا لشراء تلك الأشياء ، وأخبرنى المأموا عن أسمائهم.

فعلا كان معهم المحامى الذى ذكره الشيخ والذى ينتمى إلى تلك العائلة . وكان معهم شخص بمجرد أن ذكر أسمه المأمور تذكرته على الفور . كان هذا الشخص بالغ القصر (قزم) وكنت أراه دائما وهو يبيع الفاكهة على كوبرى القنطرة . وكنت قد رأيته فى إحدى المرات وهو يضع أمامه صندوقا لجمع التبرعات فى قطعة أرض من أملاك الحكومة على شاطئ الإبراهيمية كان يجرى العمل فيها لإنشاء مسجد بالجهود الذاتية ، وكان هذا القزم ينادى فى الميكروفون ويحث الناس على التبرع لبناء المسجد . وأخبرنى المأمور أنهم قد أخذوا التعهد اللازم عليهم بعدم التعرض للشيخ بعد أن اعترفوا بأنهم كانوا عنده .

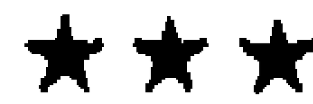
وأخبرت الشيخ بما أخبرنى به المأمور.

وقال أحمد هداية أنه يفكر فى إنشاء جمعية لرعاية المسنين ، وأنه فى قطعة أرض مكان الرياح الذى ردمته الحكومة لإنشاء الجمعية عليها وأنه بصدد تكوين مجلس إدارة للجمعية ويريدنى أن أدخل معهم فى الجمعية

لأديرها ، وقال إنه مشروع يعود بالثواب العظيم على المشاركين فيه . حاولت التعلل بأنني مشغول . ولكن الرجل نظر إليّ غير مصدق ولسان حاله يقول (مشغول في إيه ؟) ، ولكن الرجل أخبرني صراحة إن وجود أسمي سوف يجعل المسئولين في الشئون الاجتماعية وأمن الدولة والمحافظة يوافقون على الفور . وعدته بالتفكير .

وانصرفوا شاكرين بأن حصلوا على موافقتي على الانضمام إلى جمعية كفالة اليتيم.

لو أخبرت زوجتي بحكاية جمعية رعاية المسنين فإنها ستنهار على الفور. لأنها ستصدق أنني فعلاً أصبحت مسنا واحتاج إلى رعاية الجمعية . وهي التي تعتقد أنني مازلت شابا . فضلت عدم إخبارها بهذا الموضوع .



سافرت إلى مقر الجامعة بالقطار لزيارة ابنتي سميحة في المدينة الجامعية والتحدث مع الدكتور الذي ذكرت أنه يريدها أن تلم شعرها . واستغرقت الرحلة حوالي ساعة واحدة في قطار مكيف . وصلت في تمام الساعة الثالثة.

اشتريت لها كيلو من الكباب والحلويات الشرقية التي تحبها وتفاح وموز . سألت عن المبنى ، كان يقع في مكان وسط متوسط من سلسلة عمارات ومباني مخصصة لسكنى البنات ، وللوصول إلى المبنى (ع) الذي تقيم فيه سميحة ينبغي أن تسأل لأن كل المباني متشابهة.

توصلت إلى المبنى ، نادتها المشرفة بعد أن تأكدت من بطاقتي الشخصية بأنني والدها ، النظام هنا في منتهى الصرامة ، ويطبق بكل دقة، فلا يسمح لأي طالبة بأن تقابل أحداً خلاف المصرح لهم بمعرفة ولي الأمر. وتتم المقابلة في حجرة المشرفة وتحت بصرها .

فرحت سميحة بالزيارة . كانت زميلاتها ينظرن إليها . بعضهن جئن ليسلمن على ، وكانت سميحة تتولى تعريفهن لى.

أخبرتها أننى سأقابل الدكتور . أبدت عدم الاهتمام وقالت :

– مش لازم تتعب نفسك . الموضوع لا يستحق.

مكثت معها نصف ساعة وخرجت.

وأنا خارج من مقر مدينة البنات الجامعية سألتنى سيدة فى منتصف العمر عن مبنى (ع).

كان نفس المبنى الذى تسكن فيه سميحة . السيدة بيضاء وترتدى ملابس سوداء عصرية مضبوطة تماما على جسدها المتناسق ، وكانت خصلة شعر ذهبية اللون تطل من تحت غطاء شعرها المحكم ، وتحمل فى يدها كيساً كبيراً من البلاستيك ، كانت الطريقة التى سألتنى بها رقيقة وهامسة.

أشرت إلى المبنى الذى كنت فيه . سألتنى :

– مدينة الطالبات ؟

– أيوه .

– والزيارة ممكنة ؟

– أيوه .

وتركتنى وسارت إلى الباب الذى خرجت أنا منه .

★★★

ذهبت إلى كلية الهندسة ، سألت عن الأستاذ الذى ذكرته لى سميحة..

شاب فى الأربعين أو يزيد قليلا ، يميل لونه إلى الأسمر ، بدأ الشعر الأبيض يغزو رأسه وفوديه ، يرتدى الملابس الكاجوال والجينز ، يبدو متحررا ، شعره طويل ويغطى جزءاً كبيراً من أذنيه وقفاه ، يرتدى نظارة

طبية.

قدمت له نفسي باعتباري والد سميحة ، نهض واقفا ، مد يده وصافحني لمحت سلسلة كبيرة يخفيها قميصه ، وبعدها سوى شعره وأزاحه قليلا عن أذنيه ، ولفه خلفهما ، وقال :

أهلا وسهلا تشرب إيه ؟

– شاى سكر خفيف .

نادى على أحد العمال ، طلب منه شاى سكر خفيف وطلب لنفسه قهوة.

عندما دخلت كان مشغولا برسم أحد الأشكال الهندسية على شاشة جهاز كمبيوتر ، ابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

– دقيقة واحدة.

ونطقها بطريقة أهل القاهرة ، انشغلت أنا بالنظر إلى الصور المعلقة على الحائط ، كانت صورا لماكينات عملاقة لحفر الآبار وتجريف الأرض ، ورأيت لوحات مرسوم بها اشكال هندسية لمعدات لا أعرفها وبياناتها مكتوبة باللغة الإنجليزية . سرعان ما أغلق الجهاز وقال مرة ثانية :

– أهلا . أهلا .

– شكراً .

– حضرتك بتشتغل إيه ؟

– فى المعاش .

لم يرد ودخل فى الموضوع مباشرة دون تمهيد وقال :

– سميحة طالبة مجتهدة وممتازة وبنت ناس محترمين . وأنا منذ أن رأيتها عرفت أنها تنتمى إلى عائلة محترمة . وحاولت أن ألفت نظرها إلى ضرورة أن تغطى رأسها بغطاء شامل ، فهى اعتبرت أن هذا الموضوع يخص حريتها الشخصية ، وطبعا حضرتك تعلم أننا هنا فى الصعيد ،

وهذه الموضوعات فى منتهى الحساسية ، وحاولنا أيضا عن طريق إحدى عضوات اتحاد الطلبة الملتزمات التى حاولت أن تتحدث معها ، لكن سميحة تمسكت برأيها ، وأنا عن نفسى تركت هذا الموضوع لحريتها الشخصية ؟ لكن أنا شعرت أن بعض زملائها يتضايقون من هذا الوضع باعتبارها مسلمة ، وهى كما علمت تصلى وتصوم ، ولا شئ إطلاقا يمس سلوكها العام ومستقيمة ومتفوقة.

كان الرجل يتحدث بطلاقة، وكأنه يحفظ الموضوع ، أو على الأقل تكلم فيه عدة مرات قبل ذلك ، كما أنه دخل فى الموضوع دون أن يعرفنى بنفسه ، كما لم يذكر وظيفته فى الكلية أو الجامعة ، ولا المادة التى يدرسها ولا صفته التى تتيح له أن يحشر نفسه فى هذا الموضوع ، وشعرت أننى أخطأت ، وكان ينبغى أن أذهب رأسا لعميد الكلية أو رئيس الجامعة للحديث معه فى هذا الموضوع الخطير .

ولكننى وجدت نفسى أسأله ببرود :

– أنت بتشتغل إيه ؟

نظر إلى بغيظ ، ولكنه مع ذلك كظم غيظه وقال :

– أنا حاصل على الدكتوراه من جامعة كمبردج ومدرس مادة الهيدروليكا.

– وما دخلك أنت فى موضوع غطاء الشعر ؟

– أنا المسئول عن اتحاد الطلبة والأنشطة الطلابية فى الكلية.

وسكت لحظة ، كان يحسب فيها ما سيقوله.، ثم قال :

– وطبعا من الناحية الدينية الحجاب أحسن من التبرج.

– وهل ابنتى متبرجة؟

– طالما هى لا تغطى شعرها بالحجاب فهى متبرجة .

وجدت نفسى أرد عليه منفعلا :

– عموما أنا لا أسمح لك بأن تصف ابنتي بهذا الوصف الذى يفتقر إلى الذوق ، وأنك كما هو واضح لا تفهم أبسط القواعد الدينية التى تحرم على الرجال ارتداء الذهب . ولا أعتقد أنك ذهبت إلى تلك الجامعة العريقة ، ويراودنى الشك أنك لم تسافر أبداً خارج تلك المدينة الصعيدية ، كما أنك تفتقر إلى لغة الحوار السليمة.

ونهضت واقفا منهيا الحوار .

وقف مثلى ووجدته يبتسم ولكن ابتسامة غامضة وغير مبررة ولا مجال لها ، وهو ما دعانى إلى الشك فى قدراته العقلية . ولكنه مع ذلك استطرد قائلا :

– المسألة بسيطة أبسط مما تتصور ، وهى لو غطت شعرها بالحجاب فسينتهى كل شئ ، أنا أنظر لمصلحتها بدلا من استنفاد جهدها فى الرد على منتقديها وتتفرغ لدراستها .

وصل العامل الذى يحمل صينية الشاى على راحته ، ووجدته يقول :

– ممكن حضرتك تستريح وتشرب الشاى ؟

جلست ، والغيظ يخرج من جسدى كله ، وحاولت جاهدا أن أظهر أمامه بمظهر الوقور حتى لا أتسبب فى تفاقم الأمر ، وهو بلا شك فى غير صالح ابنتى . سألته محاولا تلطيف الجو :

– هل تقبل أن أحدا يوجه انتقادا إلى شقيقتك ؟

– شقيقتى محجبة .

– وابنتى أيضا محتشمة ، ولا يظهر شئ من شعرها ولا جسدها ، ولا أسمح أن تتكلم معها فى هذا الموضوع .

اقترب منى وقال :

– المسألة بسيطة تغطى شعرها بحجاب داخل الكلية ، وخارج الكلية هى حرة .

– وهل هذا حل ؟

– طبعا على الأقل يمنع المشاكل فى الكلية .

– وهل فى الكلية مشاكل من هذا النوع ؟

– لا ليست مشاكل ، ونحن لا نتكلم إلا مع المؤدبات الملتزمات ، أما الأخريات فلا كلام لنا معهن .

الحق أنه غاظنى بسبب إصراره على التدخل فى هذا الموضوع ، كما لم يكن أسلوبه مهذبا على الإطلاق ، ولم يحاول أن يتخير الألفاظ المناسبة لدقة الموضوع الذى يتحدث عنه ، وهو ما جعلنى أفكر فى جدوى التعليم الذى حصل عليه فى كامبردج كما يدعى . وإذا كان هذا اسلوبه معى . فكيف كان يتحدث مع سميحة ؟ . ولا شك أن ابنتى تحملت الكثير من فظاظته ، وفكرت فى الذهاب إلى عميد الكلية ، ولكننى سرعان ما عدلت وقررت الذهاب رأسا إلى رئيس الجامعة.

★★★

المبنى الذى فيه مكتب رئيس الجامعة بعيد عن المبنى الذى توجد فيه كلية الهندسة ، مشيت المسافة بينهما سيرا على الأقدام ، فقد كان الجو شتويا والشمس ساطعة وطرقات الجامعة مسفلتة بطريقة جيدة وخالية من السيارات السريعة وعلى جانبيها الأشجار العالية ، كما أن الطريق لا يخلو من السائرين طلبه وأساتذة وعمال ، وهو ما شجعنى على السير فيه.

عندما وصلت إلى المبنى ، وجدته بالغ الفخامة ، وحوائطه الخارجية مغطاة بنوع من الطوب الملون يسمى الطوب الفرعونى لا يتوافر إلا فى مناطق طره وأبو زعبل بالقاهرة ومكلف بشكل مبالغ فيه ، ولكنه أضفى على

المبنى رونقا مميزا .

المدخل عبارة عن بوابة على شكل قبة هائلة ترتكز على أعمدة تشبه أعمدة المعابد الفرعونية تتوسطها بوابة كبيرة مغلقة من الحديد السميك مزخرفة بأشكال زهرة اللوتس ، ساعد مزج الأعمدة الفرعونية بالقبة الإسلامية والألوان المتعارضة التى طلى بها على إضفاء نوع من القبح فى الشكل العام على مدخل الجامعة.

على جانبى البوابة بابان صغيران يدخل منهما الناس ، وعلى كل باب وقف حارس من رجال الشرطة بالزى الرسمى ، كما انتشر بعض الأفراد من الشباب بالزى المدنى ، ولا شك أنهم من العمال ، ولكننى قرأت لافتة نحاسية صغيرة على صدر أحدهم ومكتوب فيها اسم كل واحد مسبوقا بكلمة «فرد أمن».

كان الحارس الذى يقف على الباب العمومى يرقبنى من بعيد وأنا أتطلع إلى المبنى ، وعندما اقتربت سألنى :

– على فين ؟

– مكتب رئيس الجامعة .

أشار إلى ممر واسع مفروش بالسجاد الأحمر الفاخر وقال :

– رابع مكتب يمين .

عندما وصلت إلى المكتب الذى كان بابه مفتوحا وجدت لافته مكتوب عليها «السكرتارية».

دخلت ، رأيت سيدتين إحداهما محجبة بحجاب يغطى كتفيها وصدرها وجزء كبير من بطنها وأمامها جهاز كمبيوتر تكتب عليه ، والأخرى شعرها طويل فى يدها كوب شاى ، كانت المحجبة قريبة منى ، أخبرتها برغبتى فى مقابلة رئيس الجامعة ، أحالتنى إلى حجرة أخرى بجوار مكتبها مكتوب

عليها «مدير مكتب رئيس الجامعة».

توجهت إلى مدير المكتب ، وجدته يتكلم فى التليفون ، انتظرت حتى فرغ، وقال على الفور :

– أهلا ، أهلا .

– أريد مقابلة رئيس الجامعة .

نظر فى ساعته وقال :

– ممكن بعد ساعة واحدة . سيادته فى اجتماع مع السيد المحافظ .

– ممكن .

– جلست على كرسى أمام مكتبه .

نظر إلى نظرة طويلة بعد أن جلستُ وقال :

– سيادته هيتأخر . لو حضرتك مش مستعجل إستريح .

لم أعرف بماذا أجيبه ، وكنت قد شعرت بنوع من الارهاق من المشى الطويل وأردت أن أستريح ، يبدو أن جلوسى أقلقه . ومع ذلك فقد سألنى :

– تشرب إيه ؟

– مفيش داعى .

– لازم تشرب حاجة ، ، عندنا قهوة وسحلب وكاكاو وعصير فواكه فرش ودوم .

– دوم ؟

ابتسم وقال مؤكداً :

– أه . عندنا دوم.

وقالها بثقة وكأنه يقول : «عندنا كباب حلة» ، وكدت أضحك ، غير أنه لم يتركنى وقال :

– على فكرة حضرتك عرفت تختار المشروب المناسب ، الدوم ينقى الدم ،

ويعدل الضغط ، ويقلل نسبة السكر فى الدم ، ومطهر للبطن . ويقوى الذاكرة ، ويقتل جراثيم الفم . واستعمله قدماء المصريين فى القضاء على البكتريا.

قلت له وأنا أغالب الضحك :

- شكراً .

- على فكرة أحتمال إن البيه الريس يتأخر لأن الاجتماع قد يطول .

- زى بعضه . أنا منتظر .

نظر إلى نظرة لم تكن مريحة ، وقال :

- ممكن ناخذ فكرة عن موضوع المقابلة ، ونتشرف بالاسم .

- اللواء .....

- أهلا . أهلا . حضرتك من عيله .... فى الجيزة.

- قرايبنا .

- طيب حضرتك فيه حاجة تحب تقولها لمعالى الرئيس ؟

- أولادى فى الجامعة وفيه مشكلة صغيرة.

- ممكن ناخد فكرة ؟

- بخصوص بنتى فى كلية الهندسة .

- مشكلة تحويل ، تسكين ؟

- لا .

- المصاريف ، الكارنيه ؟

- لا .

- أمال مشكلة إيه يا فندم ؟

- مشكلة مع أستاذ الهيدروليكا .

- تحرش ؟

- أعوذ بالله .

- أمال مشكلة إيه ؟

الحق أننى لا أعرف وصفا دقيقا يمكن تطبيقه على مشكلة سميحة ، وحيرنى هذا التطفل الفج من جانب مدير المكتب الذى يصر على إقحام نفسه فى أمر سأعرضه على رئيس الجامعة ، ووجدت نفسى أقول له :

- مشكلة خاصة .

نظر إلى نظرة لم أفهمها ، ثم لوى شفتيه وسكت.

هذا الرجل أخبرنى أن رئيس الجامعة فى اجتماع مع المحافظ ، ثم أخبرنى الآن أن الاجتماع قد يطول ويمتد ، عموما لن أبرح هذا المكان حتى أقابل رئيس الجامعة.

أخرج ورقة صغيرة وقلما وسألنى :

- معلهش . نتشرف بالأسم مرة تانية ، أصل ذاكرتى ضعيفة .

ذكرت له الاسم ، كتبه فى الورقة ، ونهض واقفا ودخل فى باب جانبى .

قبل أن أتأمل المكتب المزدحم بالكتب والمذكرات الجامعية على هيئة رزم كبيرة الحجم ومربوطة بالدوبارة والآلات الكاتبة وماكينات التصوير والدواليب المشحونة بالملفات .

عاد على الفور وقال :

- اتفضل .

(لماذا أخبرنى أن رئيس الجامعة فى اجتماع مع المحافظ ، وأن الاجتماع سيطول ؟).

بمجرد دخولى نهض الرجل واقفا ، وقال :

- أهلا وسهلا سيادة اللواء.

ومد يده وصافحنى وأشار إلى كرسى أمام مكتبه وقال :

- أتفضل .

في مقابل الكرسي الذى جلست عليه كان يجلس شخص آخر ، كان قد وقف أيضا بمجرد وقوف رئيس الجامعة ، قدمه لى رئيس الجامعة قائلا :

- الدكتور عبد المالك نائب رئيس الجامعة.

مددت له يدى مصافحا وقلت :

- أهلا وسهلا تشرفنا.

لم أضيع الوقت في المجاملات ووجدت نفسي أقول للرئيس :

- فيه مشكلة بسيطة بخصوص إبنتى في كلية الهندسة ، أستاذ الهيدروليكا يطالبها بتغطية شعرها بالحجاب ، وهى فعلا تغطى شعرها بإيشارب صغير أو طرحة صغيرة ، ولكنه يصر على أن تغطى شعرها بالحجاب . فقلت أتكلم مع حضرتك .

- حضرتك بتشتغل فين ؟

أخبرته عن مكان عملى السابق . قال :

- حضرتك في المعاش ؟

- أيوه .

قال :

- عموما أنا لم أسمع شيئاً عن هذا الموضوع .

ونظر إلى نائبه وقال :

- حضرتك سمعت عن الموضوع ده ؟

قال النائب :

- فعلا طرح أمامى موضوع مشابه في كلية الهندسة . والشخص المقصود ليس أستاذا ، ولكنه مدرس مساعد ومشرف على الأنشطة الطلابية. ولو حضرتك فاكر إحنا طلبنا من عميد هندسة في أول السنة إنه

لا يسند إليه الأشراف على الأنشطة ، وطلبنا من الأمن أن يراقب تصرفاته.

ضغط رئيس الجامعة جرسا وقال :

– آه . افتكرت . مش هو ده بتاع المسيرة ، أنا ساعتها قلت لازم يروح للتحقيق ، وأنت قلت لى ننتظر عليه شوية ، وساعتها أنت قلت لى إنه قريب مش عارف مين . آه أفتكرت .

قاطعه النائب .

– مفيش داعى.

كان ينظر نحوى ولسان حاله يقول (مش قدام ده) واستطرد قائلا وهو ينظر إلى رئيس الجامعة :

– يا معالى الرئيس علشان يروح التحقيق لازم يكون فيه خطأ مسلكى نحاسبه عليه . لكن مثل هذه الموضوعات التى يتكلم عنها سيادة اللوا ليست محلا للمساءلة.

قال الرئيس :

– التدخل فى الحرية الشخصية للطالبات ألا يعد سببا للمساءلة ؟

قال نائب رئيس الجامعة :

– إحنا سألنا بتوع الحقوق فى واقعة بنت وكيل وزارة الزراعة وهى نفس مشكلة بنت سيادة اللواء ، وحولناها لوكيل الحقوق ، وقال لنا الأخطاء الإدارية معروفة ومقننة على سبيل الحصر ، وهى تتعلق بتأديه العمل الإدارى الذى يؤديه الموظف ، أما المعتقدات والآراء ما لم تكن مجرمة بطبيعتها فليس هناك محل لمسائلته عليها .

– ولما يطلب من طالبه إنها تغطى شعرها ألا يعد هذا سببا للمساءلة ؟

– فى حالة تقديم شكوى من الطالبة ، ويمكن اعتبارها تحرشاً بشرط أن تذكر الطالبة الشاكية هذا صراحة.

نظر إلى رئيس الجامعة وكأنه يسألنى رأيى . قلت على الفور :

– لا طبعاً ، دى مسألة تانية.

قال الدكتور عبد المالك :

– المسألة بسيطة تغطى شعرها بطرحة كبيرة شوية ، لأن التقاليد الجامعية يجب أن تراعى .

قلت:

– هل توجد تقاليد جامعية تحدد زى الطلبة؟

قال النائب :

– المفروض أن تكون محتشمة ولا تخرج على العرف والتقاليد .

– ولكننى رأيت فى جامعة القاهرة وعين شمس وغيرها من الجامعات طالبات وعضوات هيئات التدريس لا يغطين شعورهن.

دخل ساعى المكتب وسألنى عن المشروب الذى أريد أن أشربه . ووجدت أن الموضوع عند هذا الحد يدور فى حلقة مفرغة ، وحاولت أن أنهى هذا الموضوع . قال رئيس الجامعة :

– لا تنس حضرتك أننا فى الصعيد ودى تقاليد الصعيد . عموما كلام الدكتور بتاع الهندسة لحمايتها من الجماعات المتطرفة التى لا تزال تطل برأسها من آن للآخر ، ونحن نعمل لمصلحتها ، والموضوع ممكن يوصل للأمن .

– الأمن ؟

ضحك رئيس الجامعة وقال :

– طبعا حضرتك تعلم أننا نعمل من خلال منظمة حكومية متكاملة ، بمقتضاها يجب أن نخطر الأمن بكل ما يحتمل أن يشكل خطراً على الأمن العام أو يمكن أن يشكل بؤرة للمشاكل الطلابية .

وسكت لحظة وقال ليطيب خاطرى :

– لكن أنا هشوف الأستاذ ده ، وأنبه عليه ألا يتدخل فى تلك الموضوعات.

وسكت لحظة نظر فيها إلى جريدة موضوعة على مكتبه وقال :

– تفتكر ممكن يطردوا صدام ؟

– أكيد .

– فين أسلحة الدمار الشامل ؟ على الأقل يدافع عن بلده.

– الله أعلم .

– عموما الموقف غامض .

ونهضت واقفا واستأذنتهما فى الخروج.

الحق أنا أشفقت على ابنتى من عنادها ، فهى لا تتحمل كل هذا العناء ، وأيقنت أنها يجب أن تقتنع بالحل الذى ترتضيه الدولة حتى تصبح حرة فى شأنها .

★★★

وأنا خارج من الجامعة كان الوقت متأخراً والساعة تقترب من الخامسة مساء . رأيت سيارة أجرة ، أشرت إليها فتوقفت . قلت للسائق :

– المحطة ؟

قال :

– آه .

فتحت الباب الذى بجوار السائق وركبت .

كانت تركب داخل السيارة سيدة لم أتبينها فى أول الأمر ، كانت ترتدى الملابس السوداء . كنت أريد أن ألحق قطار الخامسة والنصف الذى يقف فى كل المراكز بدلا من سيارات الميكروباص التى يقودها شباب متهورون .

انطلق سائق التاكسى فى شوارع المدينة ، السيارة تترنح فى سيرها من تأثير الحفر والمطبات التى امتلأت بها المدينة ، وكان السائق من آن لآخر يطلق نفيره المزعج ويسب زملاءه السائقين بأفظع الشتائم .

كنت مشغولا بما سمعته فى الجامعة ، وكنت أحاول تقليب الأمور على كافة وجوهها فيما لو أصرت سميحة على رأيها ورفضت أن تضع الحجاب . وقررت الاستعانة بوالدتها فهى أقدر على إقناعها بشرط ألا تخبرها أننى طلبت منها ذلك ، وشعرت أننى ألقيت بالمسئولية فى مكانها الصحيح ، وفكرت فى الطريقة التى سأتحدث بها معها ، لأننا فقدنا القدرة على الحديث الهادئ منذ اليوم المشئوم الذى صاحت فيه زوجتى للمرة الأولى : ساكت ليه؟

لم أتصور وقتها أنها من الممكن أن يصدر عنها سؤال كهذا ، وهى الرومانسية الحالمة ولم أسمع صوتها مرتفعا قط ، بعد تلك الواقعة أصبحت كل حواراتنا تلغرافية ، هذا إذا تبادلنا الحوار أصلا ، كما أنها بدأت تتجنب إثارة أى موضوع يمكن أن يجر إلى حديث متصل ، فكانت تترك لى طعام الإفطار فى الصباح . وعند الغداء والعشاء كنا نأكل صامتين . كان تامر وسميحة غائبين فى المدينة الجامعية . وكان خالد هو محور كل الأحاديث ، كانت أمه تكلمه كلما أرادت أن توجه لى الكلام ، وكنت أنا أكلمه كلما أردت مخاطبتها .

سائق السيارة يسب كل شئ ، وعندما لم يجد من يسبه قال :

– صحيح طارق عزيز هرب ؟

الحق أننى لم أسمع أى أخبار منذ ليلة أمس ، والأخبار تأتى بجديد كل لحظة . وشكل سؤاله المباغت مفاجئة لم تكن متوقعة . قلت للسائق :

– لا أعرف .

قال :

– سمعنا إنه هرب ومسكوه على الحدود ، وصدام حسين أعدمه .

قلت له : أنا لم أسمع .

شغلنى الهروب المفاجئ لطارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقى واحد رموز حزب البعث ، وهو الذى رفض أن يسلم رسالة تهديد من جورج بوش الأب الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية إلى رئيسه صدام حسين عن طريق وزير خارجية أمريكا جيمس بيكر فى أوائل التسعينات ، وقتها فتح طارق عزيز الرسالة وقرأها ثم ردها إلى وزير الخارجية الأمريكى ، وقال إنه لا يقبل أن يحمل رسالة تهديد تفتقر إلى الذوق والكياسة إلى رئيسه ، استبعدت أن يهرب طارق عزيز ، وفى نفس الوقت شعرت بقلق حقيقى على العراق ، وكنت قد رأيت الطائرات وهى تدك بغداد فى اليوم الرابع للحرب التى شنتها أمريكا وبريطانيا وما يعرف بدول التحالف على العراق . قال السائق :

– المحطة .

أعطيته الأجرة ، ونزلت ، ونزلت السيدة التى كانت تركب فى التاكسى.

كانت نفس السيدة التى قابلتنى عند مدخل مدينة الطالبات . كانت تنظر إلى لعلها تذكرتنى .

★★★

ذهبت رأسا إلى شباك التذاكر ، كان الشباك مزدحما ، وقفت فى الطابور ، ولمحتها تتجه إلى نفس شباك التذاكر ، عندما شاهدتنى ابتسمت واتجهت نحوى ثم مدت لى ورقة من فئة المائة جنيه وقالت هامسة :

– لو سمحت ممكن تذكرة درجة أولى مكيفة مصر.

تناولت منها النقود ، ووقفت بعيداً عن الشباك تنتظر .

عندما جاء دورى ناولنى موظف الشباك تذكرتين مكيفتين ، واحدة لى لمدينتي ، والثانية لها على نفس القطار ، أخبرنى عامل الشباك أنه ليس لديه فكه ، أعطيته من جيبى ثمن التذكرتين ، وبقيت الورقة المالية معى ، وخرجت من الطابور ، كانت تقف تنتظر بالقرب من الشباك . ناولتها تذكرتها والورقة المالية وأخبرتها أن موظف الشباك لم يجد معه باقى المبلغ .

وضعت التذكرة فى حقيبة يدها الصغيرة ، ورأيتها وهى تحاول البحث عن نقود ، تركتها وذهبت لمحتنى وأنا أتأهب للسير ، قالت :

– من فضلك لو سمحت . مش ممكن . طيب خد رجع التذكرة.

ابتسمت وأخبرتها أننى ذاهب إلى البوفيه ومن المحتمل هناك أن نجد الفكه . اكتسى وجهها بحمرة زادتها جمالا . كانت لا تزيد عن الأربعين من العمر .

اتجهت أنا إلى بوفيه المحطة ، وقفت هى قليلا على الرصيف ، كانت تنظر يمينا ويسارا واخيرا دخلت واتجهت إلى حيث أجلس ، نظرت حولها وجلست ، لم يكن بداخل البوفيه غيرنا وعامل البوفيه العجوز .

كانت الورقة المالية لا تزال في يدها ، تركت حقيبتها وذهبت إلى عامل البوفيه وطلبت منه فكه ولكنه اعتذر لها ، كانت مرتبكة وزادها الارتباك جاذبية .

عادت للجلوس وهى تنظر حولها .

أخبرتها ألا تشغل نفسها بهذا المبلغ ، وسألتها عما تشربه ، تمنعت فى أول الأمر ، ولكن مع استمرار وقوف عامل البوفيه العجوز قالت :

– بيبسى .

طلبت بيبسى مثلها .

رأيتها تبتسم بخجل عن فم رائع الجمال وشفاه بارزة كثمرتى التوت الأحمر ، كانت امرأة كاملة ، قلت لها :

- من القاهرة ؟

ما كان ينبغى أن أسألها هذا السؤال التافه المعروف ، ولكننى وجدت نفسى مدفوعا برغبة عارمة إلى الحديث معها . ابتسمت وهى تنظر بعيدا عنى وقالت :

- آه .

وجدت نفسى أسألها عن سبب حضورها إلى الصعيد ، قالت :

- إبنتى فى كلية الفنون وتسكن المدينة الجامعية .

سكتت لحظة وقالت بأسى :

- مجموعها هو *اللى* جابها هنا ، أصلها غاوية فنون .

سألتنى :

- إنت فى الجامعة ؟

- لا .

- موظف؟

- كنت .

- ودلوقتى ؟

- فى المعاش .

- فى المعاش ؟

- أيوه .

- مش باين عليك . أصل بتوع المعاش عواجيز ومكحكحين .

ثم وضعت يدها على فمها وضحكت تلقائيا .

وجدت نفسى أضحك ضحكا صافيا وعميقا ومستمرا ، انتقلت عدوى الضحك منى إليها، وكانت تلك هى المرة الألى التى اضبط نفسى فيها ضاحكا ، كان ضحكى مستمرا ، خيل إلى أن ضحكى لن ينتهى ، وبالفعل كنت كلما انتهيت من الضحك انخرطت فيه من جديد ، ولم يقطعه إلا عامل البوفيه الذى وقف يرمقنا وعلى يده صينية المشروبات .

وجدت نفسي أطلب منه أن يأتى لها بعلب البسكويت التى عنده لتنتقى منه ما تريد . لم تمانع وقالت :

- مرسى خالص . دا كتير أوى.

وسكتت لحظة كأنها ندمت على نوبة الضحك المباغتة ، ورأيتها تنظر بعيدا وكأنها تعاقب نفسها .

وعادت ونظرت إلى وقالت :

- اللهم اجعله خير .

قلت لها !

- إن شاء الله خير .

سألتها :

- حضرتك مدرسة ؟

- ياريت . أنا معايا بكالوريوس خدمة اجتماعية .

كانت ملابسها تنبئ عن سيدة راقية ، اختارت نوعين من البسكويت المحشو بالشكولاته ، أضفت لها قطعتين من المحشو بالكريمة ، ودفعت الحساب للرجل مع حساب المشروبات . وضعت كمية البسكويت فى حقيبتها وقالت :

- كنت موظفة وجوزى أعدنى فى البيت وستتنى .

وسألتنى :

- أنت من الصعيد ؟

- آه . لكن اشتغلت فى القاهرة مدة طويلة :

- فين ؟

- فى الهرم .

- عندك أولاد .

- بنت فى المدينة الجامعية اللى بنتك فيها ، وولد أكبر منها فى المدينة أيضا ، وولد صغير فى الإعدادية .

ولاحظت أن فى عينيها نظرة انكسار مغرية ، كانت صفحة وجهها صافية وتبدو خجلى . أعلن الميكروفون عن وصول القطار إلى الرصيف ، ونهضنا معا .

★★★

بدأ ظهور القطار على الشريط ، وبدا تحرك الركاب .

توقف القطار .

أرقام التذاكر فى العربة الثانية من عربات الدرجة الأولى . جاء باب العربة التى فيها أرقام التذاكر بعيداً عن المكان الذى وقفنا فيه ، وصلنا إلى الباب ، تزاحم الركاب عليه ، انتظرنا لحين نزول النازلين ، وقفت بجوارى ، شعرت بالتصاقها بى ، أمسكت يدها ، كانت رقيقة وملساء وجدت نفسى أقبض عليها ، صعدنا إلى العربة بحثت لها عن رقم كرسيها ، كان كرسيها مفرد بجوار النافذة التى تطل على الرصيف . أمسكت يدها حتى جلست ، وضعت حقيبتها على حجرها ، قالت وهى تبتسم :

- مرسى خالص . مش عارفة نشكرك إزاى ؟

- فرصة سعيدة .

- لو نزلت مصر أسمع صوتك .

كانت التذكرة لا تزال فى يدها وتذكرتى فى يدى وقالت :

- حتى على الأقل ندفع لك ثمن التذكرة.

وأخرجت من حقيبتها قلما ، أخذت التذكرة من يدى وكتبت عليها رقم تليفون ولم تكتب اسمها ولا العنوان . وقالت :

- نسمع صوتك .

ابتعدت عنها لأذهب إلى الكرسى الذى حجزته لنفسى ، كان قريبا منها، نظرت ناحيتها كانت لا تزال تنظر إلى .

بمجرد جلوسى فى الكرسى وجدتها تطل على أيضا .

كان ملمس يدها الناعم لا يزال فى يدى . خيل إلى أننى عدت مراهقا من جديد .

كانت رقيقة وجريئة فى آن واحد ، شعرن بنوع من تأنيب الضمير ، مغامرة عاطفية فى سن الخمسين ، عنوان مثير لمغامرة . ولكنها لا تصلح فى الحقيقة . بدت لى امرأة كاملة . أخرجت الورقة من جيبى وتأملت الأرقام الموجودة فيها ، الأرقام صغيرة ومكتوبة بطريقة مرتبه ورقيقة ، شعرت بأشياء تتحرك فى داخلى . وشعرت بالخوف من شئ غامض . هيمن على القلق ، كان تنفسى متسارعا ، وأطرافى ترتعش ، جف فمى . احسست بالعطش . خيم على نوع من الارتباك.

عندما بدأ القطار يتحرك عادت إلى التعاسة من جديد . وتذكرت مغامرات بعض زملائى فى فترات الشباب ، لم تكن لى أبدا أى مغامرات ، كما لم أنظر إلى أى واحدة خلاف زوجتى ، وخيل إلى أننى أهوى فى بئر عميق ، وأنطلق القطار بأقصى سرعته .

★★★

بعد ساعة توقف القطار عند المحطة التى سأنزل فيها ، داهمتنى رغبة فى استكمال الرحلة إلى القاهرة . غير أننى اكتشفت أن ما معى من النقود لن يكفى لقضاء ليلة واحدة فى القاهرة.

عندما توقف القطار فى المحطة نزلت.

وأنا أسير على الرصيف بجوار القطار قبل أن يتحرك رأيتها تجلس بإنكسار بجوار النافذة الزجاجية والتقت أعيننا ورأيت ابتسامة دهشة

عريضة ، لا شك أنها تستغرب نزولي . لم تتوقع أن تراني على الرصيف ، كانت عيناها تلمعان ببريق غامض ، وتحرك القطار من جديد . أشارت بيدها ملوحة وعلى وجهها ابتسامة عريضة ، ثم وضعت يدها على أذنها للتأكيد على الاتصال ، تحسست مكان التذكرة ، أخرجتها من جيبي تأكدت من التليفون ، وضعتها في جيبي .

★★★

في الليل اجتمع عندي في المنزل عدد كبير من أقاربي وأهلي ومعهم عبد الجابر وسنوسي وخليل أولاد عمي.

كان تجمعهم دون مناسبة ، وتم بالصدفة البحتة ، توافدوا واحداً بعد الآخر . يغيظني أن يزورني أحد دون سابق إنذار ، لأن هذا يسبب لي ارتباكاً .

كانت زوجتي تصنع الشاي وتقدمه لكل من يحضر منهم .

الحق أنني مقصر تجاه أقاربي ، كان ينبغي على زيارتهم في بيوتهم ، هم زاروني أكثر من مرة ، ولم أرد اليهم الزيارة.

سألني خليل عن سبب عدم خروجي من المنزل ، وبقائي في البيت لفترات طويلة ، اكتشفت أنني بالفعل لم أخرج من البيت طوال أسبوعين . أخبرتهم أنني كنت أتابع في التليفزيون أخبار الحرب على العراق ، فضلا على أنه ليس هناك ما أخرج من البيت بسببه . أقترح على أحدهم أن أنضم للحزب الوطني ، وفيه يمكنني أن أقدم الخدمات لهم ولغيرهم من أهل القرية التي التصقت بالمدينة ، أخبرتهم أنني على استعداد لخدمتهم بعيدا عن الحزب .

كانت فكرة الحزب قد طرحها على فتح الباب قبل ذلك ، وكانت وجهة نظر فتح الباب أنها ستجعلني أتحرك وأخرج وأقابل الناس بدلا من الجلوس

الطويل فى البيت ، إلا أننى لم أكن متحمسا لهذا الأمر ، باعتبار أن الحزب تسيطر عليه العائلات التى وزعت نفسها على الحزب ولجانه ومستوياته القيادية وبنائه التنظيمى ، ولا مكان لشخص لم يبدأ معهم منذ مدة طويلة ، ومن يدخل بينهم يعتبر كجسم غريب مزروع عنوة ، وبدون تفكير سيتصرفون تلقائيا نحو طرده والتخلص منه ، هذا هو حال السياسة ، كل واحد منهم يتطلع إلى مكان يرثه من مسئول سابق ويضع عينه عليه ، ولأجل ذلك تتكون المناورات السياسية والتكتلات ، كل عائلة تستحوذ على مركز فى الحزب ، وإذا لم يكن المركز فى الحزب الحاكم فيكون مركزاً قيادياً فى الجماعات المتطرفة ، وتجد العائلة التى منها فرد فى الجماعات المتطرفة هدفا لكل رجال الحزب لمعرفة اخبار ابنها عضو الجماعات الهارب لجمع معلومة تقدم للمسئولين عن الأمن .

لأجل هذا لم أتحمس لموضوع الحزب . فضلا على أن طبيعة عملى السابقة لم تجعلنى صالحا للسياسة . كما أن الحزب له قيادة مركزية فى القاهرة تملى السياسات من هناك ، والتعليمات تأتى من فوق ، وكل الأعضاء ملتزمون بسياسة الحزب حتى ولو تعارضت مع رأيهم.

الجلوس مع الأهل ممتع ، والأكثر إمتاعاً أنك تشعر أنك تجلس فى وكالة أنباء .. تسمع النبأ وتحليله وتسمع وجهات متعددة تقودك إلى لا شئ .

★★★

انتهز عبد الجبار فرصة انشغالهم فى الحديث ، وأخبرنى أنه يريدنى فى موضوع خاص .

أخذته إلى مكان آخر فى نفس القاعة ، وانتحيت به جانبا ، قال لى :

– أنا كنت عايز رأيك فى موضوع.

– اتفضل .

- بنتى ناعسة جالها عريس.

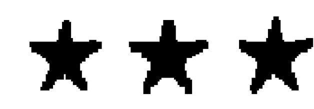
- ألف مبروك .

- يعنى إنت موافق ؟

- طبعا موافق . ربنا يتمم بخير .

ظهر عليه الضيق بدون سبب ، سألته عما إذا كان يحتاج إلى نقود ، نظر بعيدا وقال :

- أنا مش عايز فلوس .



عندما عدت إلى الجلسة أنا وعبد الجابر ، كانوا يتحدثون عن واحد من ابناء القرية ظهر عليه الثراء المفاجئ ، ويريد أن يرشح نفسه فى مجلس الشعب ، وقالوا إنه اشترى عشرة فدادين من أجود الأرض الزراعية كانت مملوكة لأسرة متوسطة الحال مثلنا ، وسدد ثمنها مليون جنيه دفعة واحدة ، كما اشترى منزلاً واسعاً حديث البناء من مالكه ويعمل مديرا لأحد البنوك ورفضت زوجته أن تقيم فيه لأنه على أطراف المدينة دفع فيه أكثر من نصف مليون جنيه ، وقالوا إنه أنفق على تشطيبه ودهانه ، وأحضر مصمما للديكور من القاهرة ليجعله أقرب إلى شكل قصور الخليج ، كنت قد شاهدت هذا البيت ، فهو قصر فعلا ، وكنت أتمنى أن يكون لى منزل مثله ، كان يطل على ثلاثة شوارع فسيحة وتحيطه حديقة صغيرة ، وقالوا إن والده كان رقيق الحال ، ويعمل خفيرا فى سراية إسماعيل (بيه) .

اكتشفت أنهم يتحدثون عن ذكرى . لم أخبرهم أننى أعرفه .

كان ذكرى قد قابلنى أثناء عملية الوداع فى جنازة ابن سيد شحاته إلى مثواه الأخير . وتذكرت أننى قابلته قبل ذلك فى مكان ما . وحاولت وقتها أن أتذكر المناسبة التى قابلته فيها ، وكنت متأكداً من أننى قابلته بعد تخرجى ، ولم أتذكر .

الآن تذكرت .

كنت وقتها أعمل في القاهرة ، وكنت في أول خدمتي ، وجاءني ذكرى وأخبرني أنه يريد أن يبحث عن عمل بعد حصوله على الدبلوم ، وقال إنه رفض أن يعمل كاتبا في الجمعية الزراعية في البلد . وتصادف أثناء وجوده عندي وجود مواطن خليجي ، تحرش بممثلة كانت صاعدة وقتها . الآن هي ممثلة محترمة لها حضور سينمائي هائل وتختار بنفسها المخرجين والممثلين الذين يقفون أمامها . قدمت الممثلة بلاغاً ضد المواطن الخليجي متهمة إياه بأنه حاول يعتدي عليها ، وكان معها تقرير طبي يفيد أقوالها . كان المأمور يميل إلى الحل الودي خصوصا بعد أن أعلن الخليجي عن رغبته في تقديم الترضية الكافية لها . كان ذكرى وقتها عندي في المكتب . ولسبب ما تدخل ذكرى في الحديث وأخبر الخليجي أنه سوف يفعل شيئاً ما للممثلة دون أن تدري ويجعلها تقبل الترضية ، وخرج ذكرى وتحدث مع الممثلة دون أن يعرفها من قبل ، الغريب أن الممثلة قبلت الترضية وانصاعت لما يمليه عليها ذكرى ، وقبلت عن طيب خاطر ما عرضه عليها الخليجي ، وبعد تنازلها عن المحضر وتصالحها معه خرجت مع ذكرى والخليجي . وقتها سألني المأمور عن هذا الشخص الذي يعرفني وسيطر على الممثلة بتلك السرعة سيطرة تامة ، كانت تبدو أنها مخدرة أو مسحورة . أنا أيضا استغربت ولم أعلق ، عاد ذكرى بعد يومين وأخبرني أنه يريد استخراج جواز سفرَ مكتوب فيه وظيفة معالج روحاني ، وقال إنه ذهب إلى الجوازات وهناك رفضوا إضافة تلك الوظيفة لأنها غير مدرجة في سجل الوظائف الرسمية المعروفة .

أخبرته أنه ينبغي أن يختار وظيفة أخرى ولتكن مندوب مبيعات ، وبالفعل استخرج جواز السفر بتلك الصفة.

سألته عما فعله مع الممثلة والخليجي ، وقال إنه لم يفعل معها شيئاً ، لأنه عندما نظر في عينيها عرف أنها ستقبل الترضية المالية ، واعتقدت أنه من

كبار المسئولين . وقال إنه عندما ركز عينيه عليها اعتقدت أنه يريد أن يقيم معها علاقة ووافقت على الفور.

وانقطعت أخباره حتى ذكرنى به فتح الباب .

أخبرنى أحد الحاضرين أن الشيخ ذكرى انشأ فريقا لكرة القدم فى كل قرية من قرى المركز التى تزيد عن الثلاثين قرية ، وتبرع بمبلغ خمسة آلاف جنيه لكل فريق لشراء الملابس والأدوات اللازمة للتدريب ، وقام بالاتفاق مع إدارة الشباب والرياضة على تمويل مسابقة دورى لأبناء القرى ، ويمنح الفريق الفائز مبلغ عشرين ألف جنيه . وتبرع بإجراء تجديدات شاملة لكل المساجد والكنائس الموجودة فى دائرة المركز وفرشها بالموكيت والسجاد . وشارك فى بناء أسوار للمدارس التى تحتاج إلى أسور وتبرع بشراء وحدات غسيل كلوى للمستشفى المركزى ، وتبرع بمبالغ مالية للمرضى أنفسهم ، وطلب من بعض أعوانه أن يحصروا المرضى والفقراء وأعطاهم مبالغ مالية . وذهب إلى جميع المدارس وسدد كل مصروفات المدارس التى لم يسددها أولياء أمور التلاميذ غير القادرين على السداد ، وأخبرونى أنه سينجح بسهولة لأنه يعمل تحت غطاء الحزب.

وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة .

انصرفوا .

★★★

فيما بعد سألتنى زروجتى بفتور عن سبب حضور أقاربى ، أخبرتها بأنهم جاءوا ليطمئنوا على ، قالت بخبث :

- واطمأنوا عليك ؟

- طبعاً .

شئ ما غاظنى فى طريقها فى الكلام ، غير أننى شعرت أنه ليس من مصلحتى التمادى فى الكلام على النحو المخزى ، فقد كان بمقدورها أن

تفرسني لو تمادت في هذا النوع من التلميح وهي تبدو بريئة كل البراءة ، أخبرتها بما قاله لي عبد الجابر من أن هناك عريساً جاء لأبنته .

ضحكت وقالت :

- وإنت قلت له إيه ؟

- قلت له مبروك.

- أحسن.

- هو كان بيسألني أنا ليه ؟

- تامر كان عينه منها .

- تامر ؟

- أيوه . أصل البنت حلوة شويه.

- متعلمة ؟

- لسة في تانية ثانوي .

- جالها عريس وهي في تانية ثانوي ؟

- لا ، هو مش عريس ، دي عملية وضع النقط فوق الحروف ، شغل نسوان ، مراته شاطرة شوية.

- يعني إيه ؟

- يعني تامر كان عينه منها . وكان دايما داخل وطالع عندهم .

- وبعدين ؟

- تامر لسه عيل ، ولما يتخرج ويلاقي وظيفة نبقى نتكلم في الموضوع .

شعرت بنوع من الخوف لأن أبني تامر بدأ يعرف طريق البنات ، كان متفوقا في دراسته في السنة الأولى في الكلية وحصل على تقدير جيد جداً ، وفي السنة الثانية حصل على جيد فقط . وها هو شب فجأة وبدأ يمارس غرامياته .

(١٠)

استيقظت فى الصباح . كان الراديو بجوارى يصدر صوتا كماكينة قديمة . شعرت بدوار فى رأسى وانعدام الرغبة فى النهوض .

بقايا الأحلام لامزعجة والكوابيس أرهقتنى . خيل إلى أننى قضيت الليل كله استمع إلى زبيدة وزوجة طه هما تتبادلان الصرخات المزعجة .

استيقظت عدة مرات وشعرت بالصداع يعصف برأسى كله .

وماذا سأفعل بعد أن أستيقظ ؟

لاشىء ينتظرنى ، ولا يوجد عندى ما أفعله ، يتساوى نومى ويقظتى .

لم تعد لى فائدة .

عظامى كما لو أن منشاراً يحز فيها ، مطرقة تدق فى جوانب رأسى .

الخمول والوخم يهيمان علىّ .

وكلها علامات الانتظار فى الوقت الضائع الذى لاينتهى .

انتظار المجهول القادم الذى أتوقعه ولا أعرفه ، ننتظره متمهلين دون رغبة منا فى استقبال هذا المجهول .

نزعت الغطاء عن جسدى ونزلت من على السرير .

أدخلت قدمىّ فى الشبشب .

أخذت غيارات داخلية نظيفة جهزتها زوجتى بدلا من الغيارات القذرة .

ذهبت إلى دورة المياه .

خيل إلى أننى أسير وأنا نائم .

نهضت واقفا ، وخلعت جلباب النوم وعلقته على الشماعة ، أدرت مفتاح الدش ، وانهمر الماء من الصنبور باردا فى أول الأمر ، وسرعان ما تدفق ساخنا ، لم أتحمله ، أدرت مفتاح البارد جاءت امرأة مجهولة ، لسعة برد ، وضعت إصبعى تحت الصنبور لأختبر سخونتها ، وصلت المياه لدرجة

معقولة أستطيع أن أتحملها ، كنت أنظر إلى رجولتى المنكمشة ، وبدأت أمرر الصابون على جسدى والماء المنهمر الرغوة عن جيدى وتدفق على أقدامى .

غسلت قدمى بوضعهما تحت الماء المنهمر .

توضأت . أقفلت الصنبور وبدأت أمسح الماء من على جسدى .

وجاءت المرأة مرة ثانية ، فى هذه المرة لم تكن مجهولة ، ولكنها معروفة لى بوجهها الأبيض ، وابتسامتها التى كانت تلقيها على كل صباح ، وهى ذاهبة إلى عملها .

أقابلها كل صباح وأنا فى طريقى إلى العمل ، لم تربطنى بها سوى الابتسامة الرقيقة والنظرة المشتهاة ، خيل إلى أن أحدا كان يرسلها لى لتبتسم .

طويلة وبيضاء وملابسها ملونة مبهجة .

كل علاقتى بها انحصرت فى الابتسامة فقط ، وعندما تطورت بدأت بإيماءة خفيفة وابتسامة هامسة كل صباح فى بعض الأحيان كانت تزورنى قبل النوم .

جففت جسدى ، جاءت الممثلة ذات الوسط الضيق والصدر الممتلىء ، ارتديت ملابسى النظيفة وخرجت من الحمام .

أحضرت السجادة وفرشتها ونويت الصلاة ، صليت الصبح ركعتين .

بقيت على السجادة بعد الصلاة أفكر فيما أفعله طوال اليوم ، طويت السجادة، عندما تذكرت أن زوجتى تركت لى الإفطار فى المطبخ .

نهضت وذهبت إلى المطبخ ، وجدت رغيفاً وبيضة وقطعة من الجبن .

فى اليوم الأول لدخولى الكلية وقفنا أمام الحلاق ، كان فظا وله عين

واحدة ، وعندما جاء دورى جلست أمامه على كرسى ، وضع أصابعه الطويلة على رأسي ، وبدأت يده اليمنى في تشغيل ماكينة جز الشعر عند مقدمة رأسى .

بدأت الماكينة تعمل عندما ضغط عليها بإصبعه ، كان يحركها بالسبابة ، كان شعرى خفيفا فلم أشعر بوطأتها ، أخذت الماكينة فى رأسي ممراً كالطريق شاهدته في المرآة ، شعرت بشعر رأسي وكأنه ينتزع عنوة بفعل الماكينة ، كانت الماكينة تقتلع بدلا من أن تقص ؛ وكانت تتعثر أثناء سيرها في رأسى ، وضعت جنيهين خلسة في يده اليمنى .

استدار بوجهه كله ليرى النقود ، التى أصبحت فى يده التى تضغط على رأسي ، وبدأ ضغط أصابع يده على رأسي يخف ، ثم عبث بالماكينة ، ونفخ فيها ، وعاد واستبدلها بأخرى تسير الهوينى ، ولم تتعثر ، ولم تنزع الشعر، ولم أشعر بوطأتها ، وبعد لحظة تركها ، وأمسك المقص ، وبسرعة أنجز المهمة ، بدأت أحسب له ، وعرفت أنه قد يأخذ فى اليوم أكثر من مائة جنيه ، ثم انتظمنا أمام المخزن .

استلمت بطانية ، وبدأ أمين المخزن يلقى المهمات على البطانية ، لا أعرف شيئا عنها .

وبعد أن فرغت أعطيته خمسة جنيهات .

كان زملاؤنا القدامي قد أخبرونا أن ندفع لأمينى العهدة ، حتى يعطينا المقاسات المناسبة لأجسامنا ولأنه سيملأ الأستمارة بمعرفته ، ومن الممكن أن يكتب فيها أشياء لم يسلمها لنا ، وتصبح عهدتى ، وندفع ثمنها عند التخرج، وبعد أن أعطيته الجنيهات الخمسة ، وبعدها ثاب إلى رشده ، وتدارك الخطأ ، وبدأ فى اختيار المقاسات المناسبة ، التى يعرفها بمجرد النظر .

نسيت أن أفتح البوتاجاز لأصنع لنفسى كوب الشاى .

أكل البيض يشعرنى بالعطش والمغص .

أين كوب الماء ؟

مكثنا خمسة وأربعين يوما هى فترة المستجدين .

فى الإجازة الأولى ، رأيت فتيات ينتظرن الطلاب فى سياراتهن .

كل طالب يركب بجوار فتاته ، ربما كانت أخته .

كان جارى فى الطابور والسرير أمجد قد حدثنى عن فتاته ، كانت تسمح له بالعبث بها .

قال لى إنه كان يخاف عليها لأنه سيتزوجها ، ولكنه لم يلتزم ، ولم يتمالك نفسه ، وتركها كأنها لعبة وأفسدها ، خطبت له أمه غيرها وقال إن السيدة إيزيس المتزوجة والتى تعمل فى مكتب أبيه ، علمته كيف يتعامل مع خطيبته ، أخذته فى حضنها أول مرة ، عندما كان فى أولى ثانوى ، وظلت تداعبه كلما زار والده ، وكان يتعمد زيارة أبيه بعد الظهر ، فى الفترة التى يهدأ فيها المكتب من الزوار ، قال لى إنها كانت جريئة وقبلته فى فمه ، ومصت شفتيه ، وفى مره ترك والده المكتب إلى اجتماع فى الإسكندرية ، انصرف الموظفون ، وبقيت إيزيس ، أغلقت باب مكتب أبيه وجلست على كرسى والده وجعلته يلف أمامها وفتحت له قميصه ودلكت صدره وكان أمجد خائفا .

– أين الكبريت ؟

فتحت أنبوبة البوتاجاز ونسيت الكبريت . الكبريت على الرف أمامى .

وبدأت إيزيس تداعبه وفتحت بلوزتها وأدخلت يده .

ولم يتمالك نفسه ، وفاجأها بقذارته ، وأزاحته بسخط ، وقالت له دون وعى :

أنت مقرف زى أبوك .

المريض نام وبدأ يحكى للطبيب النفسانى :

- البنت فتحت الباب .

- وبعدين ؟

- دخلت .

- وبعدين ؟

- قفلت وراها الباب .

- وبعدين ؟

- شالت الطرحة .

- وبعدين ؟

- حضنتها .

- وبعدين ؟

- بوستها .

- وبعدين ؟

- رفعت الفستان .

- وبعدين ؟

- أمى دخلت .

- يلعن سلسفيل أمك

لا أعرف الكمية المناسبة من الشاى الجاف التى تكفى لصنع كوب شاى أعرف السكر فقط .

فاتن صديقة خطيبة أمجد كانت ساخنة دائما ، كانت تنتظر مبادرتى وكنت مغفلا فى أول الأمر ، ولا أفهم ، لهذا لم تستمر معى ، حاولت أن أحضنها من أول مرة .

لم أعجبها ، كانت بدينة وصدرها وافراً .

أمجد قال لي :

مش على طول كده . لازم يبقى فيه كلام حلو وكل حاجة تيجى بعد كده .

لم تكن مثل راعوث .

أم مجدى ، عندما كنت أزورهم . كانت تتحدث معى كثيرا ، حتى فى وجود والدي مجدى ، وتسألنى أحوال الكلية ، وعندما لايكون مجدى موجودا ولا والده ، كانت تسألنى عن البنات ، طلبت منى أن أحدثها عن أول بنت تعاملت معها ، فجأة قالت إن كعب رجلها يوجعها .

رفعت قدمها أمام وجهى ، ظهر بياض وركها ، أمسكت كعبها بيدى ، كانت تتألم ، أعرف ماتريد ، ولكننى لا أريدها ، قالت اضغط بشدة مكان الألم ، كدت أكسر كعبها من شدة الضغط ، كانت تنظر فى عينى وتتأوه ، رأيت ملابسها الداخلية حتى بياض منطقة التقاء الوركين ، وقالت :

بالراحة هتكسر رجلى ، وقبضت بيدها الصغيرة على كفى ، كانت تعرف أن مجدى فلاتى .

كان مجدى قد أخبرنى أن أمه ضبطته وهو يرفع جلباب الخادمة ، كان وقتها فى المرحلة الإعدادية ، لم تفعل له شيئا فقط طردت الخادمة ، فى نوبة غيظها منه قالت له : أبوك عملها قبلك . كلكم أنجاس .

سألتنى عن مغامرات مجدى .

كنت أتجنبها ، ولكنها تتعمد أن تسألنى . لم أحك لها . كنت أريد أن أحكى لها عن إيزيس سكرتيرة زوجها .

والتى كانت تتعامل مع مجدى وأبيه .

ولكننى ترددت . وخفت أن تحدث مشكلة . أمجد أستأمننى على سره ،

كانت أمه تتعمد أن تتحدث معي بطريقة هامسة ورقيقة ومريبة ، كان صوتها أجش ، وكانت تحاول أن تلمسنى ، وكنت أجاهد حتى لا أنظر إليها ، وكنت أقاوم رغبتى فى النظر إلى نهديها الصغيرين ، بيضاوان ومكوران .

كنت أرى استدارتهما عندما تنحنى لتقديم الشاى ، ضبطتنى متلبسا بالنظر إليهما ، وضعت يدها عليهما وعاتبتنى بعينيها وابتسمت .

المشكلة أن رجولتى متيقظة دوما ، كنت أشعر بالحرج ، ولكنها كانت تبتسم ، ولم تعلق .

فى أوقات كثيرة كنت أنسى أنها والدة صديقى ، وكنت ألوم نفسى على التفكير فيها ، كان جسدها صغيرا ورشيقا كأنها لم تحمل ولم تلد ، كانت تزورنى فى نومى ، وفى الصباح كنت أشعر أننى سافل ولا أستحق اهتمامها .

آخر مرة رأيتها فيها كانت منذ عشر سنوات . أصبحت عجوزا بالمعنى الحرفى للكلمة ، ليس فيها شيء لم يشمله كبرها ، طريقة كلامها ، مشيتها ، الأخاديد العميقة حول فمها ووجهها ، حيزبون لا تطاق .

الشاى لايغلى بسرعة . وضعت السكر فى كوب الشاى ، لاينفع أن أعمل شاى كشرى بعد أن وضعت الشاى فى الغلاية .

البيض يشعرنى بحرقان فى فم المعدة . لم تكن والدة أمجد تحب الملابس الثقيلة ، وقالت :

طول عمرى أحب إسكندرية .

إسكندرية تلبسنى الملابس الخفيفة ووضعت يدها عند صدرها .

الغريب أن المساحة الظاهرة حول ثدييها لونها أغمق من لون ثدييها ، سألتها مرة قالت :

طول عمرى ألبس سوتيان . لم أخلعه إلا من شهر واحد ، مش كده أحلى؟

الباب خبط .

المفروض إن يرن الجرس ، تكرر الخبط . أغلقت البوتاجاز بسرعة . ذهبت عند الباب فتحت الشراعة .

رجل عجوز ذو عاهة ، يربط يده بلفافة بيضاء عليها بقعة ملونة بلون أحمر ، لكنه يختلف عن لون الدم ، وفى يده كيس به سائل أصفر يمتد منه خرطوم شفاف ينتهى تحت ملابسه ، ونصف وجهه محروق . يتحدث بصعوبة، قال :

– حاجة لله . راجل محتاج ، مريض بيعد عنك عندى فشل كلوى . عايز أجرة عملية الغسيل .

لم أسمع بقية كلامه ، ابتعدت لأجل أن أبحث له عن ربع جنيه ، بحثت فى جيوبى ، لم أجد ، وجدت جنيها على الشيفونيرة ، أعطيته له . طمع أكثر، وعيناه تتلصصان داخل البيت ، قال :

– العملية تتكلف كثير . طيب ممكن تمن العلاج ؟

شعرت بالغيظ منه . وقلت له :

– الله يحنن عليك .

ألح . فكرت فى غلق الباب وطرده ، ولكنه استدار من تلقاء نفسه ونزل مبتعدا . لاشك أنه يلعننى فى سره . ولاحظت أنه ينزل بسرعة ، لا تتناسب مع الأمراض التى ذكرها .

أولاد كلب . يشحتون بالعافية .

الشاى يحتاج للسكر ، أول رشفة لا تهم . المهم الجزء الأخير من الكوب.

أين أجلس ؟

فى الصالة ؟

فى حجرة الجلوس ؟

فى الأنتريه ؟

أين كان يجلس الزعيم بعد أن صار ملكا ؟ .

طيب . أين كان يجلس الأمير ؟ ، أين يجلس ولي العهد ؟. لا أعرف ولماذا أشغل نفسي بالملوك والأمراء والرؤساء ؟ .

كل واحد له ناس تكرهه ولا تتمنى ألا تراه حتى يوم القيامة ، وطبعا ناس تحبه ولاتتمنى أن ينزل من فوق سن العرش . سينالون حساب الملكين . نسيت أن أحضر السكر ، ونسيت أنني لا أعرف أين سأجلس . ووجدت نفسي أمام التليفزيون . أين الروموت ؟ .

بجوار الفيديو .

أصغر خفير في البلد ، له زوجة وعشيقة ، والكبار . معقول ؟ .

آه . معقول . كلهم أبالسة وليهم نسوان في السر . النساء أيضا مشغولات بالسلطة ، والجمعيات الخيرية والروتاري ، وإيه تاني ؟ ، والفساتين ، وموائد الرحمن ، وختان الإناث .

طبعا لازم زوجها يبحث غيرها تركز وتسمعه ، وتقول له :

أنت بابا ، وأنت ماما ، وأنت أكبر من الحمار .

آه لو جوزي عرف ؟ ..

أنتي بنت كلب . قومي . مش عايز أشوف وشك . بنت الشرموطة لذيذة ، وعنيدة وزي الملبن لكن كلما أقرب منها تقول لو جوزي عرف ؟

الشاي طعمه ماسخ ليه ؟

إشمعنى شاي المدام حلو ؟ .

المدام في الشغل

. العيال في المدارس .

أين الروموت ؟

عند الفيديو .

مش عند الفيديو . نفسى أخلع الهدوم . عيب الواحد يمشى من غير هدوم .طيب عيب ليه ؟
أولا . الدنيا برد . وثانيا . يمكن واحدة تدخل ، طيب لو دخلت ؟

– أتفضلى .
– لأ .
– أتفضلى .
– لأه ..
– أنت قاعد لوحدك .؟
– إيوه ..
– أمال فين المدام ؟
– فى الشغل . أتفضلى .
– طيب قاعد لوحدك ليه ؟
– أتفضلى .
– أصل أنا كنت عايزة المدام .
– المدام فى الشغل .
– أتفضلى أحسن حد يشوفك .
– ميصحش أدخل .
– أنا كنت عايزم المدام .
– تعرفى أن فستانك حلو .
– فين المدام ؟
– أتفضلى .
– لأه . أصل أنا عايزة المدام .
– أتفضلى أدخلى .

- لأه .

- طيب مع السلامة .

- لماذا استقال رئيس الوزارة ؟

- علمي علمك .

- بسبب الدولار .

- علمي علمك .

- أنت جاهل وخواف .

- تعرف إنها تشبه مايكل جاكسون .

- مين هي ؟

- المذيعة .

- طبعا . أمريكاني .

- شبه مين تاني ؟

- لا أعرف . آه شبه وزير داخلية التركواز .

- دي رفيعة جدا .

- وأنت مالك ؟

- أنا نسيت إيه ؟

- افتكرت ، الورقة . على الشيفونيرة .

فعلا نسيت الورقة التي على الشيفونيرة والتي تركتها زوجتي ، أخبرتني عنها ، أصبحنا نتكلم بالأوراق والكتابة ، مثل المدير والموظفين يكلمهم بالأوراق والتعليمات ، والبقية تأتي ، لا أعرف لو استمر الحال معي ، ماذا سيحدث ؟ ، الغريب أن اليوم الجو بارد ، ومع ذلك فأنا أشعر أن جسمي طبيعي ولم أعد أشعر بالبرد ، وعندما ظهرت شهدان على الشاشة شعرت بشعور لم أحس به قبل ذلك ، هذا الإحساس أفتقده منذ أن خرجت على المعاش .

شعور جديد على ، كنت أحسه قبل ذلك . الحمد لله وجدتها . الورقة . مكتوب فيها الآتى .

١ – طلع اللحمة من الثلاجة .

٢ – حطها فى الحوض وأفتح الحنفية .

٣ – لو فاضى قشر تلات بصلات .

٤ – بعد ما تسيح اللحمة تغسلها ، وتحطها على البوتاجاز وتلاحظها ، وتحوش الريمة .

الورقة بخطها . زمان كان خطها بيهزنى . هو نفس الخط لم يتغير :

– حبيبى . طول عمرى منتظرة اليوم اللى تتخرج فيه .

ونبقى لبعض ، أنا خايفةٌ عليك من بنات مصر . وكنت مشغولة عليك ، لكن طبعا أنا واثقة إنك لى أنا لوحدى .

ولما كنت بشوفك وأنت نازل آخر الأسبوع كنت أتخيلك فى حضنى وأتخيل نفسى فى حضنك ساعات كنت بشتاق عليك ونفسى تبقى معايا ، آخر مرة لما كنت عندنا كنت شقى خالص ، وأمى لاحظت ، وشتمتنى بعد أنت ما مشيت ، وقالت لى عيب كدا .

لازم أبوك يكلم أبوى . لازم ضرورى . بصراحة أمى مش مطمئنة من الموضوع ده وبتقول إنه لعب عيال . وأنت لازم تشوف حل ضرورى . ضرورى . مشتاقة عليك وعلى أصابعك الحلوة .

فاكر لما كنت بتمسك صوابعى وتقربهم على شفايفك .

البنات بيحسدونى عليك وعايزين يشوفوك . بس لو شافوا ودنهم ، حبيبى لى أنا بس .

أنا بغار عليك من الهوا الفايت .

ومن الوردة اللى سبتها لى فى الكشكول . كانت فى أيديك قبل ما

تحطها ياترى إيدك عملت في الوردة إيه؟

ضرورى أبوك يكلم أبوى ، مع السلامة» .

كيس اللحم ملتصق بجدار مبرد الثلاجة .

لابد من فصل الثلاجة عن الكهرباء من ساعة على الأقل . أين نامت شهدان .

قلبت التليفزيون على إحدى المحطات اللبنانية .

كان المذيع متحمسا وسمعته يقول :

– الأبرز من أحداث اليوم الماضى هو فى ذلك السائق المصرى للسيارة بيكاب الذى صدم بعضا من الجنود الأمريكيين فى الكويت فالرفض المطلق لهذا العدوان الظالم يبدو أنه يتزايد ويعطى مؤشرات مؤكدة بأن هناك عمليات نوعية قادمة ترفض هذا الغزو الأمريكى على العراق ، فى جانب آخر يزداد التخبط العسكرى فى جانب الغزاة ، فقد أكد قائد عملية الغزو تومى فرانكس على استمرار التقدم صوب العاصمة بغداد ، وهذا مخالف لما جاء بالأمس عن توقف تعبوى للقوات الغازية لأربعة أو ستة أيام، وهذا ما يؤكد الفشل الأمريكى فى هذه المرحلة ، أما العراق فقد أكد سقوط مروحتين بينهما طائرة أباتشى أسقطها فلاح ببندقية كلاشينكوف ، جاء ذلك على لسان وزير الأعلام العراقى محمد سعيد الصحاف ولقد أعلن البنتاجون سقوط إحدى المروحيات فى ساعة متأخرة من الليل أما القصف الصاروخى فقد استمر على مدار الأربع والعشرين الساعة الماضية دون انقطاع على بغداد والموصل وكركوك والبصرة والناصرية ، وفيما يبدو أن نتائج هذا القصف عسكريا مازالت دون تأثير يذكر ، وهذا ما يؤكده استمرار المضادات الأرضية وخاصة فى العاصمة العراقية بغداد .

نسأل الله العظيم أن يحفظ العراق وشعب العراق .

انتهى البيان .

خلاص كيس اللحمة انفصل ، الكيس جامد مثل الحجر .

نمرة اثنين ، يوضع الكيس تحت الحنفية . تحت الحنفية .

– وبس ؟

– آه .

– لازم نفتح الحنفية . هاهاها .

نمرة ثلاثة . تقشير ثلاث بصلات ، لو فاضى . أنا شغلتى إيه ؟ . فاضى طبعا . مدام فاضى قشر بصل .

على العموم البصل مفيد .

كان فيه بصل مبشور وجاهز ، أيام مصر الزراعية .

وأين أيام مصر الزراعية .

فى مصر الفياجرا سهلة .

كل الناس فى مصر تعرف حكاية الفياجرا .

لابد من تقشير البصل ، أعمل شيئا مفيداً بدلا من الجلوس مثل تنابلة السلطان أمام التليفزيون .

الوزير لو خرج على المعاش هل سيقشر البصل ؟ ، هل هناك وزير يخرج دون مصيبة ؟

عندنا لابد من مصيبة لكى يخرج الوزير (لزقه بصمغ) .

عندنا وزير من خمسة وعشرين سنة ، الرقم القياسى العالمى .

لم يحدث منذ عصر هارون الرشيد .

ووزير كل يوم يطل علينا من التليفزيون ، كتيبة الأعلام . كلنا جنود . رجال الأعلام . ستات الأعلام .

كان نفسى اشتغل فى التليفزيون مع (...) . لا . لا . كلهم على الشاشة كبار فى السن .

طبعا لازم يكونوا متقاربين فى السن على الأقل .

– معقول ، وزير فى سن السبعين ؟

– كيف يصعد إلى سلم الوزارة ؟

– (بالأسانسير) .

أنا فى الخمسين وظهرى يؤلمنى عندما أنام . ناس كثير فى السبعين ، ويجيدون ربط الكرافتة مثل ابن العشرين ، الغريب أن أياً منهم لايبدو عليه السن ، كلهم شباب وشعرهم أسود فاحم . (أكل ومرعى وقلة صنعة) . نانسى عجرم ، تتمايل وهى تغنى .

بمناسبة نانسى عجرم .

قال الرجل لصديقه بعد أن بهره جمالها وأنوثتها :

اللهم عجرم نسائنا .

– لابد من تقشير البصل . طيب .

– أين البصل ؟

– فى المطبخ .

– هل من الضرورى غسل البصل قبل التقشير والخرط ؟

– هل صحيح أنا سأخرط البصل ؟

– وما فائدة المبشرة ؟

+ المبشرة مثل المفرمة التى استخدمها السادات (أى واحد يخرج على النظام أفرمه . أفرمه) .

وفعلا فرم كثير ، بطل الحرب والسلام . أول عربى ينتصر على الإسرائيليين . عبر القناة . وقلب المعايير . وكان لابد أن ينتهى دوره بعد

ذلك لكن ليس بالطريقة التى انتهى بها .

أما البصل فيدمع العين .

لماذا لم يخترع وزير الزراعة بصلا باردا ؟

كل شيء تغير . البطيخ يظهر فى الشتاء ، والبرتقال فى الصيف ، والخوخ مثل البرتقال لكن له وبر . المبشرة تنعم البصل . عينى امتلأت دموعاً .

الدموع تطهر العين . كن بطلا واحتمل .

كيف تتحمل النساء تقشير البصل .

- أين نضع البصل بعد الفرم ؟

- هل صحيح أنت لاتعرف ؟

- تبقى عبيط .

- فى الثلاجة ياغبى .

- نسيت أضع اللحمة على النار .

- أين الكبريت .

- أين الحلة لنغسلها .

- هل يصح أن نضع اللحوم بدون غسيل .

- لازم تكون مغسولة ونظيفة .

- يامدام نظيفة قطنة مدام نظيفة .

إعلانات التليفزيون ، ويتوغل ، ويتسلل . وعايزة من ده ، وده .

إيه ده يا محمود .

محمود إيه ده يا محمود .

حسونة ما تحن عليا .

لقد قاتلنا . ولكن قتالنا ونضالنا ، كان نضال الحق والحرية .

لقد عبرنا .

وقال القائد الذى عبر لابد أن ننسحب حتى لاتحتل القاهرة . الثغرة خطيرة ولابد من إبادتها عن آخرها ، وسحب القوات غرب القناة .

انتظر لما كيسنجر يفك الأرتباط . يبقى الحال على ماهو عليه .

القائد أعصابه تعبت . كان لازم يستريح . لكن هو ذهب إلى العراق وبعدين ليبيا .

من هو الزعيم الركن الذى جمع حوله كل مطاريد الأرض ؟

كان لابد أن يجعل من نفسه بطلا . حتى على حساب المدنيين الآمنين .

لماذا لم يحارب مع من حاربوا ، هل هذه هى البطولة ؟

هل الذين أراق دمهم من أصحاب بالروح والدم ، والدم الرخيص ؟

كل شىء يهون إلا دم الأجانب وبالذات الأوروبيين والأمريكان . هؤلاء على استعداد لكى يحاربوا العالم كله ، ولا واحد منهم يموت .

بالروح والدم ؟

هات السيف يامنصور وجز عنقه .

لازم ، ولابد ، وحتما أن يعرف كل الناس الفرق بين البرتقال واليوسفى والرمان وصدر الجارية ، وإذا ما فشل فى معرفة أصل بيت الشعر ، منصور السياف يجز عنقه . الجارية تودد . أهدى المنذر الأكبر أنو شروان جارية أصابها عندما أغار على الحارث الأكبر بن أبى شمر الغسانى .

وكتب إليه يصفها فقال :

إنى قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء، قمراء ، وطفاء ، نجلاء ، دعجاء ، حوراء ، عيناء ، قنواء ، برجاء ، شماء رقيقة الأنف ، عزيزة النفس ، لم تغذ فى بؤس . حيية ، رزينة ، حليمة، ركينة، كريمة الخلا ، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها،

وتستغنى بفصيلتها دون جماع قبيلتها ، قطيعة اللسان ، رهوة الصوت ، تزين الولى ، وتشين العدو ، إن أردتها أشتهتك ، تحملق عيناها ، وتحمر وجنتاها ، وتذبذب شفتاها ، وتبارك الوثبة إذا قمت ، ولا تجلس إلا بأمرك إذا جلست.

هل جربها المنذر قبل أن يهديها إلى أنو شروان .

صحيح نحن لانجيد إلا وصف النساء .

انتهينا من تقشير البصل .

المذيعة المتصابية مثل أم أمجد زميلى فى الكلية زمان ، تسأل السائح الأبيض وعيناه زرقاوان :

– أنت زرت مصر ليه ؟

تتكلم بلغة لايفهمها .

– بيقول إن مصر حلوة كتير .

ترتب شعرها .

– إيه اللى عاجبك فى مصر ؟

يفكر السائح قليلا وينظر إلى صدرها ويرطن ، وظل يرطن بالإنجليزية .

– إتز فرى نايس .

وتقول المذيعة بانبهار :

– ياسلام . النيل . طبعا مصر هبة النيل .

وتخاطب السائح (سى أفتر مى) قول ورايا :

– أنا بحب مصر .

– أنا بهب مزر .

– أنا بهب مزر ...

يا سلام على الوطنية ، الأخرس نطق ، وقال أنا بحب مصر ..

هذه المذيعة بالذات زوجتى تغار منها ، ولا تطيقها ، عندما تظهر فى برنامج ونكون معا تقول :

– إيه اللى عاجبك فيها ؟ ، دى بقرة . وشها زى الكركم .

طبعا المذيعة عندها أسلوب ناعم أنثوى ، وشعرها أصفر ، تجيد اللعب على الرجولة .

وعندما تلبس أسترتش يزيدها أنوثة ، المذيعة لاتزال تضاحك سائحاً آخر ، ماذا أفعل ؟.

لازم الملابس الداخلية تضايقنى ، أريد أى شىء ، وطبعا زوجتى تستغرب من هذا النشاط الذى هبط على .

تذكرت شيئاً لابد أن أحكيه :

– كان الوقت ظهر فى يوم ١٨ أبريل ١٩٦٨ وكنا فى محطة المنيا فى انتظار قطار ٨٠ . ولم يصل القطار فى موعده . وفجأة تدلى السيمافور .

وأضاء مصباح المسافة اللون الأخضر مما يعنى أن قطارا فى الطريق .

وبعد عشر دقائق تهادى على المحطة قطار يحمل معدات عسكرية وجنوداً، ثم توقف تماما على المحطة التى كانت وقتها تعج بالركاب فى انتظار القطار القادم من القاهرة .

ولما ازدادت فترة التوقف . نزل الجنود وكلهم من الشباب الذين لوحتهم الشمس ، وبعضهم كان لونه أسود وفيهم الأبيض والأصفر بملابسهم العسكرية ، كانت النكسة حاضرة .

وكانت ملابسهم يبللها العرق . وبدأوا فى معاكسة البنات على المحطة .. كانوا يحملقون فى النساء ولا يتمالكون أنفسهم ، ثم بدءوا فى الغناء والرقص على الرصيف وفى أيديهم سناكى البنادق . وتطوعت واحدة من الفلاحات ورقصت بينهم ، تحلقوا حولها . كان رقصها جميلا .

والغريب أنهم كانوا يجيدون الرقص بدون موسيقى ولا طبول ، كانوا يرقصون على وقع تصفيق عدد من الشباب من طلبة الجامعة والثانوي وكنت معهم ، وفجأة رأيناهم يتركون الرقص ويهرعون جريا إلى أبواب القطار ، ودخلوا فيها ، وساد السكون المحطة ، ورأينا ثلاثة من الضباط يضع أحدهم على كتفيه علامات العقيد وحوله اثنان رتبة المقدم ، كان العقيد رزينا تبدو عليه السيطرة والرجولة ، وكانوا يسيرون الهوينى وكأنهم يتفقدون المحطة .

وران الصمت الكئيب على الرصيف ، وكنت وقتها في السادسة عشرة .

تأملت ملامحهم القاسة ، تمنيت وقتها لو كنت واحدا منهم .

ورن جرس المحطة . واتجه الضباط بهدوء ورزانة إلى أقرب باب من أبواب القطار ، ركب العقيد أولا وتبعه المقدمان .

وتحرك القطار بهدوء أول الأمر ، عربتين للركاب ، وباقي العربات مكشوفة تحمل معدات عسكرية .

ورأيت للمرة الأولى السيارات الجيب العسكرية المجنزرة . ومدافع الهاون وفوهاتها الطويلة . والمدافع المضادة للطائرات .

عندما مرت أمامنا المدافع على الرصيف أطلقت إحدى النساء على المحطة زغرودة . وتبعتها أخريات . وتمنيت فعلا لو كنت مجندا . وبعد مرور القطار تدلى ذراع السيمافور مرة ثانية . وأضاء مصباح المسافات ، وبعدها رأينا قطاراً آخر يشبه الأول تماما يتهادى على المحطة ، ثم توقف تماما ، في عربتي الركاب رأينا جنوداً مكتئبين وجوههم قوقازية ولهم عيون زرقاء ، وشعرهم أشقر .

كانوا ينظرون إلينا باستغراب . وكانت البنات على المحطة تنظر إليهم ، كانت أشكالهم غريبة ، ولا تمت إلينا كمصريين أو عرب ، وقتها شعرت أن سكينا وخزتني في صدري ، ماذا يفعلون عندنا ، وخيل إلي أن كل شيء قد

سكن .

لازم أضع حلة اللحم على البوتاجاز ، يظهر أني نسيت أضع المياه في الحلة ، وضعت المياه ، أشعلت البوتاجاز . رفعت الحلة على البوتاجاز .

– وقتها كانت العربات تصعد على الكوبرى بانتظام كسرب نمل يبحث عن طعام . أختفى من المدينة كل صوت ، وأختفى ضجيج السيارات التى كانت تزعج الناس ، وأختفت صلصلة الكئوس المعدنية لباعة العرقسوس ، إنه لعبث أن أتمادى فى وصف مدينة جرحت جرحا عميقا فى خصائصها كعاصمة ، تلك المدينة التى أنكب فيها الناس على صفحات الجرائد يقرءون الكشوف التى أعلن عنها الزعيم فى سبتمبر ١٩٨١ ، كانوا كتلاميذ يقرأون نتيجتهم ، وقتها سرى الأنين المكتوم فى كل بيت ، وقيل للزعيم ، إن الشعب يتآمر عليك .

قال :

وهل يتآمر شعب يحكمه القانون ؟

وبعدها أمر أن تذاع كل نصوص القوانين فى الإذاعة والتليفزيون وأن تعلن للناس فى المنابر وقرأها القساوسة فى الكنائس وفى طوابير الدرس ، وأن ينادى بها فى مواقف السيارات والأسواق ، وأن توزع فى طبعات رخيصة على البطاقات ، وقال الزعيم وهو يتعجب :

هل يتآمر شعب ينعم بالسلام ؟ وتحدى النصيحة ، واخترق الموكب المكشوف شوارع المدينة التى أخرجت عن بكرة أبيها للهتاف للزعيم الذى نشر السكينة والهدوء والصمت وأسكت الضجيج ونشر السلام .

وقديما أمر رمسيس الثانى جيشه المنتصر أن يبنى له معبدا متفردا فى نوعه ، وأن تنقش على أعمدته بنود معاهدة السلام مع الأعداء المنهزمين ، وأن توضع رسوم للأسرى المكبلين بالأغلال على القاعدة التى سيشرف منها على العالم الآخر ، وانهمك الجنود يحملون الأحجار والأزاميل ينحتون

الصخر .

كان الملك المنتصر قد نصب نفسه إلها ، وأمر أن تتلف كل صور الآلهة السابقين ، ثم نظر إلى صورته فى حوض الماء ، ورفع وجهه بغضب، وبعدها كره كل شىء ، وصار عصبيا ، وأمر حجابه ألا يرى أحدا ولا يدخل عليه أحد ، ونادى وزيره وأمره أن يصنع له تمثالا من الحجر الأشهب ، وأصدر المراسيم والقوانين ، ونصحوه أن يستثنى الكهنة المرتلين والمبخرين والمحنطين ، وقال الذين أشفقوا على الملك المنتصر :

ألن تسمح للشمس أن تستمد ضياءها من وجهك الناصع ؟

قال بعصبية بعد أن أعاد التفكير :

إن كان ولابد فمرة واحدة فى العام ودقيقة واحدة .

وبعد أن أعلنت النتيجة أخليت الشوارع تماما إلا من سيارات السجن تتمايل وتتهادى على الطرق الوعرة حتى وصلت إلى المكان الأمين ، وتنهدت المدينة فى أسى ، تزفر جراحها المكتومة فى الأحشاء ، وأنيرت عنابر سجون القلعة والمرج والمزرعة ، وفتحت المساجد فى أوقات الصلاة فقط توفيرا للطاقة ، وأمر البطريرك رعاياه بالصوم .

وتقدم كبير الكهنة يعلن انتهاء البناء فى المعبد الذى أمر به الزعيم أن يشيد ولا تدخله الشمس إلا مرة واحدة ، وبعدها تُطهر فى قدس الأقداس والكهنة يرتلون أناشيد النصر ، ومر طابور المدرعات والمشاة ، ونجحت الخطة وسالت الدماء على الأرض التى كانت تتجمل لزعيم ، وأخليت الشوارع إلا من الجنود والضباط وسيارات الجيش ، وسار الموكب الصامت إلى نفس المكان الذى سالت فيه الدماء ، وعزفت الموسيقى الحزينة نوبة الرجوع ، وأدخل المشيعون مناديلهم المبللة بالدموع والروائح الطاردة للعرق ، وقيل لهم :

شكر الله سعيكم .

اللحم لم تغل . هل أضع للحمة ملح أم أنتظر حتى تأتى زوجتى . لم تكتب لى عن الملح .

غير مهم .

التليفزيون مفتوح على المحطة اللبنانية ، المذيعة تحكى عن الأفلام الشهيرة ، وعادات الفنانين والفنانات ، قالت :

- يبدأ فى روما تصوير فيلم تليفزيونى يحكى عن حياة وغراميات أميرة موناكو الراحلة غريس كيلى التى لقيت مصرعها فى حادث سيارة ، كيلى كانت نجمة سينمائية ذات شهرة واسعة لم يتردد مخرج الفيلم فى إسناد دور الأميرة إلى الممثلة شارون ستون (هى كتير منيحة وسكسى ، لكن طويلة شواى وصدرها ماهو كبير مثل صدر كيلى) ولكنها أعطت لأدوار الأغراء بعدا جديدا ووصلت بها إلى أقصى حدود ما يسمح له للعرض العام وعندما تمثل شارون ستون مشاهد الإغراء فهى لاتمثل ، ليس لأنها ممثلة ، ولكن لأنها تتقمص الدور لتبدو طبيعية وتنسى أنها تمثل ، وشارون ستون ٣٨ سنة وآخر عشاقها رجل الأعمال ميشال يتنقل بطائرة خاصة من باريس إلى جزر الكاريبى ، واندهش كثيرون لهذه العلاقة ، ميشال أقصر من شارون ولا يوصف بالرجل الوسيم فهو مكتنز وصاحب كرش ، ولا يهتم بمظهره العام وهو ما أدهش شقيقتها الصغرى .

أجابتها شارون :

إننى بطبيعتى مسيطرة ، وأنا التى أختار الرجل ، وأبدا بمداعبته وأنا أختار ملابسى بعناية ، فالسوتيان أصغر من المقاس العادى من الدانتيل الذى يبرز ما بداخله ، وهذا يثير الرجل ، وأبدأ أنا بتقبيله ، وهذا يثيره ،

ودائما أحرص على مضغ النعنع ، وأطلب منه أن يتحسس جسدى بأطراف أنامله وأدعه ينزع الملابس الأخيرة .

كانت المذيعة تحكى وتعرض لقطات لشارون ستون المرأة الفرس الجامحة اللعوب الوركاء الدعجاء كما قال المنذر الأكبر أنو شروان .

نشرة الأخبار .

ظهرت مذيعة متجهمة ، وقالت بصوت يغلب عليه الحماس :

– أكد السيد محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقى أن أبناء العراق من مناضلى حزب البعث العربى الاشتراكى وأبناء العشائر اقتربوا من مواقع القوات الغازية من أجل الانقضاض عليها وتقطيع أوصالها .

وقال السيد وزير الإعلام فى مؤتمر صحفى عقده يوم أمس وحضره مراسلو شبكات التليفزيون ووكالات الأنباء والصحف والإذاعات العربية والأجنبية ووكالة الأنباء العراقية أن هذه المواقف مشرفة .

ثم ظهر الوزير محمد سعيد الصحاف على الشاشة وهو يرتدى الملابس العسكرية ذات اللون الزيتى ويضع على رأسه بيريه .

كان الصحاف على خلاف كل العراقيين الرسميين حليق الشارب ، وأمامه عدد كبير من الميكروفونات ، وكان يقف أمام منصة وخلفه خريطة للعراق وصورة كبيرة للزعيم الركن صدام حسين .

وقال :

– إن المواقف المشرفة لأبناء شعبنا العظيم بدأت تؤتى ثمارها منذ مساء أمس وصباح اليوم حيث تم إسقاط طائرتى أباتشى وأسر طياريها فى محافظة كربلاء من قبل عدد قليل من الفلاحين وبأسلحتهم التقليدية التى يمتلكونها ، وأن يوم أمس كان يوما أسود على المعتدين الغزاة ، ونقول

للعلوج الأمريكان والطراطير البريطانيين أن الأيام المقبلة ستكون أكثر سوادا عليهم .

– إن أبناء العراق النشامى والماجدات أسروا عددا آخر من المرتزقة الأمريكان والبريطانيين حيث سيعاملون وفق اتفاقية جنيف المتعلقة بأسرى الحرب التى تنظم معاملة الأسرى والتى يلتزم العراق بها .

مع أن الغزاة المعتدين لم يلتزموا بهذه الاتفاقية حيث قاموا بإشهار الأسلحة على المدنيين العراقيين وعرضها من خلال وسائل الإعلام تحت ذريعة أنهم أسرى عسكريون كما يدعى العدوانيون الأشرار بل كان لقاء تليفزيونيا من قبل مندوب تليفزيون العراق الذى اقتصرت أسئلته على أسمائهم وجنسياتهم .

وسكت الصحاف لحظة عدل فيها من هندامه واستطرد قائلا :

– أما من حيث أعداد الشهداء والجرحى من العراقيين ليوم أمس جراء قصف العدوانيين المجرمين الأشرار فهى ١٢ شهيدا و٤٩٠ جريحا فى بغداد والمحافظات ، أن أبناء العراق الغيارى ومعهم أبناء الأمة العربية والإسلامية سيدحرون هذه الهجمة الشرسة التى تقودها أمريكا المجرمة وتابعتها الذليلة بريطانيا وأن النصر بعون الله سيكتب للعراقيين والخزى والعار للمعتدين الأشرار . النصر بعون الله سيكتب للعراقيين والخزى والعار للمعتدين الأشرار .

وظهرت نفس المذيعة التى كانت متجهمة وقد علت وجهها ابتسامة وقالت بصوت هادىء :

– سيداتى سادتى . معنا اليوم المعلق العسكرى اللواء الركن الدكتور خبير الاستراتيجية العسكرية خريج أكاديمية مدغشقر العسكرية و.........

– أهلا وسهلا .

– هل تعتقد أن العراق فى موقف صعب .

– بالعكس الموقف العراقى ممتاز جدا . ونجح الجيش العربى العراقى فى إيقاف تقدم الأمريكان .

وكما قال الزعيم الركن المناضل صدام حسين إن الحرب لم تبدأ بعد .

– هل تعتقد أن الحرب ستطول .

– طبعا والشعب الأمريكى والرأى العام يضغط على الرئيس بوش لإنهاء الحرب .

جاءت زوجتى فى الساعة الثانية .

تعودت على حياة الخمول والكسل، الم فى كتفى، نهضت، حاولت أن ألمس كتفى الأيمن بيدى اليسرى. نجحت التجربة وشعرت بالألم، أصابنى البرنامج اليومى الذى أمارسه بالاكتئاب .

فأنا استيقظ فى الصباح أتناول طعام الإفطار ثم يبدأ الملل، أصابنى الجلوس الطويل أمام التليفزيون بالكسل، أظل جالسا أمام التليفزيون حتى تحين الساعة الثانية، وتعود زوجتى ونتأهب لتناول طعام الغذاء، وكنا نجلس لنتحدث حتى الثالثة أو الرابعة، وأنزل لصلاة العصر فى المسجد القريب. وأتمهل فى الصلاة وأقف مع بعض المصلين خارج المسجد تكونت لى شلة جديدة اسمها شلة المسجد. اسامة وماهر وحسن والدكتور خليفة قبل أن يسافر الى الخليج فى بداية العام الدراسى والشيخ توفيق مدرس الفرنساوى .

اسامة دعانا جميعا، شلة المسجد والصلاة لتناول طعام العشاء عنده لأنه جهز عقيقة للمولود الجديد، اسامة على المعاش مثلى، كان ضابطا فى القوات البحرية، خاض حرب أكتوبر فى غواصة عند باب المندب. وقتها كان

نقيبا فى البحرية. صحته جيدة لايزال ينجب، زوج أربعة من أولاده الثمانية، ولدين وبنتين، ولازال قادرا على الإخصاب. جسده عريض ولولا طوله لأصبح عبارة عن كتلة طولها مثل عرضها، كان أسامة مرتديا (ترينج) وبعد الصلاة ينطلق ومعه ثلاثة من زملائه، ضباط متقاعدون مثله خرجوا فى منتصف العمر، كان يقابلهم عند الطريق السريع القاهرة أسوان، ويمارس معهم رياضة الجرى لمسافات طويلة، فكان يجرى على الطريق الإسفلتى من الساعة الخامسة حتى السابعة صباحا، ويعود منهكا وينام حتى الظهر، وتكون زوجته قد أعدت له طعام الإفطار، عبارة عن طبق كبير من الفول وتسع بيضات مسلوقات، ويضع بصلات وكومة من الجرجير وقطعتين من الزبد وسبعة أرغفة، كان هذا نظامه اليومى منذ أن أخرجوه الى التقاعد منذ أكثر من عشر سنوات. لديه طاقة لممارسة الرياضة العنيفة، أخبرنى أنه لايستطيع أن يتوقف عن الجرى وإلا تهدل جسده. حاول أن يستميلنى الى عملية الجرى ، ولكننى لم أطاوعه .

قادنا جميعا أسامة من المسجد بعد صلاة المغرب (بربطة المعلم) الى بيته الكبير. منضدة كبير، عليها تل من الأرز تحيط به كتل من لحم الضأن فى طبق كبير، حوله أطباق صغيرة فيها ملوخية وبامية وفاصوليا ومخلل وسلطة وطماطم وطبق صغير به ملح. كل هذا على مائدة، تحلقنا حولها، لم ينتظر حتى يكتمل عددنا، وأقسم أن نبدأ الأكل، كان توفيق متوجسا، ينظر ناحيتى دائما، يراقب طريقتى فى الأكل . لم أعره اهتماما .

قال أسامة إن العقيقة سنة عن نبينا صلى الله عليه وسلم، وأنه من الواجب علينا أن نحييها. لم تكن أيام أن أنجبنا نفعل هذا، كما لم يفعلها أجدادنا، لم يفعلها أسامة عند ولادة أولاده الكبار، لم يعرف تلك السنة إلا منذ عشر سنوات فقط، عندما كان فى العمرة بدعوة من شقيقه المقيم هناك.

أما الدكتور خليفة فلا تراه الا فى إجازات الصيف فقط، باقى أيام السنة فى الخليج. فقد تخرج منذ خمسة وعشرين سنة من كلية الآداب وعمل معيدا فمدرسا فى الجامعة وحصل على الماجستير والدكتوراه فى النقد الأدبى ، والتحق بالجامعة، كان حلمه أن يسافر الى الخليج وسافر، أخذ زوجته وأولاده، وراق له العمل هناك، كان منبهرا بالأعداد المحدودة وقدراتهم فى تكنولوجيا التعليم، للطلبة وأمضى أكثر من عشر سنوات، وبعدها استعجلته الجامعة للعودة. ولكنه ماطل، ورفع قضية على الجامعة مستغلا حكما أصدرته المحكمة الدستورية العليا بأن الإجازة حق للموظف ولا يجوز لجهة العمل حرمانه منها، وبالتالى فإن الدكتور خليفة من حقه أن يحصل على إجازات لمرافقة زوجته التى تعمل فى الخارج. قرأ وهو فى الخليج عن الأراضى المستصلحة فى أطراف الصحراء، درس المشروع الذى شرحوه على ورق مصقول، فى احدى الإجازات تقدم للمحافظة بطلب لشراء أرض يستصلحها ، استقبله المحافظ بنفسه، سهلوا له الأمر حتى دفع المقدم، وبالفعل أعطوه الأرض رخيصة، اخبروه ان الدراسات الجيولوجية أثبتت أن المياه الجوفية على عمق ثلاثين مترا، اشترى أجهزة ومعدات الرى بالتنقيط، وحفر خليفة البئر على العمق الذى أخبروه به، ومد المواسير فى كل الأرض، ولكن المياه لم تخرج من البئر، وعمق الحفر حتى خمسين مترا ولم تظهر المياه ، حفر حتى الستين، ظهرت المياه، فرح بها، زرع، لم تنبت البرسيم ولا القمح ولا الفاكهة، سأل المختصين، أخبروه أن مياه البئر بها نسبة من الملوحة لا تنبت إلا أنواع معينة من الأشجار طويلة العمر، أما المحاصيل الزراعية المعتادة فلن تنبتها مياه البئر التى تكلفت الكثير .

فى العام التالى نضبت البئر التى حفرها، حفر غيرها، ظهرت المياه على عمق ستين، أنفق خليفة كل مدخراته ولم يزرع الأرض التى اشتراها، بعد

انتهاء العام أنذرته الجامعة بالعودة والا سيفصل ، الغريب أن خليفة كان يحكى ونظرة غريبة تشع من عينيه، وقال ان الجامعة التى تستعجله للحضور لايجد فيها الأساتذة النصاب الكافى من المحاضرات، وأنهم يقضون يومهم فى إعداد الكتب التى سيقررونها على الطلاب، واعداد الأبحاث التى لن يرقى الى الأستاذية الا بها .

قال لى خليفة انه يعتبر نفسه محظوظا لأن زميل له فى الخليج أنشأ بمدخراته مصنعا للثلاجات وأجهزة البوتاجاز والمكاتب وغيرها من المصنوعات، وأنفق كل مدخراته على المصنع، وعندما بدأ الانتاج كان عليه ان ينافس الأجهزة الواردة من اليابان وكوريا وألمانيا، واستدان من البنوك ليشترى الماكينات الجديدة والحديثة، ولكنه عجز عن المنافسة واضطر الى بيع منتجاته للجمعيات الفئوية لتبيعها الى الموظفين بالتقسيط، وقال ان المسئولين عن تلك الجمعيات قبضوا الأقساط من الموظفين ولم يسددوه، ورفع عليهم قضايا وتبين أنهم نصابون ، وازاء هذا اضطرت البنوك الى الحجز عليه واعتباره مفلسا، وفصلته الجامعة.

وقال انه أحسن حظا من زميله، لأنه لم يستدن من البنوك.

كان هذا قبل أن يسافر فى أول العام الدراسى، ووعدنى ان يحضر لى من هناك سبحة وسجادة وكيلو شاى .

توفيق ملتح، يؤمنا فى الصلاة فى غياب الإمام الأصلى، يعمل مدرسا للغة الفرنسية، غير أن اللغة الفرنسية ، برقتها ونعومتها لم تفلح فى كسر حدة جهامته، فهو طويل وعريض، وصوته قوى وخشن، وفوق كل هذا يتمتع بنظر ثاقب، وعينين نهمتين واسعتين، لديهما القدرة على تحويل كل شىء الى امرأة، يقال إن بذور الطماطم داخل حباتها تتحرك من شراهة عينيه. كثير الحديث عن النساء، وهو عندما يتحدث عنهن يتكلم باللغة العربية

الفصحى، وتدور عينيه فى محجريهما، ويبدأ كلامه قائلا :

- روى عن جمانة بنت زهير بن علقمة الفشنى أنها ذهبت الى صديقتها رفيدة بنت ثعلب فلم تجدها، وقيل لها انها تحت زوجها ...

وينظر توفيق حوله كطفل يقدم على ارتكاب حماقة، ويتأكد أن السامعين ينصتون بجوارحهم ثم يستطرد :

- وقالت جمانة انها سمعت رفيدة تنخر نخرات متتالية وفى النخرة الأخيرة نخرت نخرة هربت لهولها مائة من الإبل البالغة، وظلت الإبل هاربة إلى اليوم ..

لم أسمعه وهو يحكى، ولكن الذى حكى لى هو أسامة أو - الكابتن - كما يطلق عليه توفيق عندما يستيقظ ضميره ويضحك معنا ويبادلنا المرح. وكنت استغرب كيف يحكى هذا ، وأنا لم أشاهده مبتسما قط، الغريب أننى ضحكت كثيرا ليس من أجل النخرة التى نخرتها رفيدة، ولكن لأجل الإبل البالغة التى ظلت هاربة من وقتها الى الآن ولم يعثر عليها أحد .

توفيق الذى يقترب من الستين يسعى للزواج من صبية فى الثانوية أعجبته أثناء حصة الدروس ، فاتح والدها ،وعندما رفض الوالد بسبب فارق السن أخبره توفيق أن الرجل يظل متوهج الذكورة حتى السبعين، غير أن الرجل رفض، ومنع ابنته من حضور الدروس. ولم يتزوجها توفيق.

يتمتع توفيق بشهرة واسعة فى تدريس اللغة الفرنسية لتلاميذ المدارس الثانوية.

فى - العيادة - كما يسميها الكابتن اسامة تنعقد حلقات الدروس بعد أن يعود توفيق من المدرسة، يركن دراجته فى بير السلم ويخكم اغلاق قفلها حتى لا تسرق كما سرقت له من قبل ثلاث دراجات، وتنتهى الدروس فى تمام الثانية عشرة ليلا، تتخللها ثلاث فترات للراحة .

الراحة الأولى عند الآذان لصلاة العصر لمدة نصف ساعة فقط تكفيه لطعام الغذاء والصلاة فى المسجد إماما، وبعدها يتوجه الى الشقة التى خصصها للدروس فى الدور الأرضى بمنزله، تكون زوجته وقتها مشغولة بإعداد طعام العشاء له ولأولاده الذكور التسعة، والفترة الثانية تبدأ عقب صلاة المغرب ويسمح لنفسه فيها براحة لمدة نصف ساعة أيضا، يصلى معنا المغرب، يمضى عشر دقائق فى محاولة لهدايتنا أنا وماهر، فهو يريدنا ان نصلى الفجر معه كل صباح، ويحصل على وعد بأنه سيتولى ايقاظنا من النوم بنفسه بالتليفون لو وافقناه. ولكننا لم نوافقه، كما لم نرفض صراحة، لأن اسامة أخبرنا أننا لو وافقنا فانه سيكسر علينا ابواب بيوتنا لإيقاظنا.

فترة الراحة الثالثة عند توفيق تبدأ بعد التاسعة ويعطي نفسه خمس دقائق لسماع نشرة التاسعة وتنقسم تلك الفترة الى قسمين . يتناول فى الجزء الأول منها العشاء، وبعدها يغلق التيلفزيون الى نشرة التاسعة مساء فى اليوم التالى، ويستأنف توفيق نشاط العيادة التى لم تغلق فى الواقع، ولكنها عملية تغيير نوعى، فيأتى اليها التلاميذ بدلا من التلميذات. ويظل دولاب العمل حتى منتصف الليل. وبعدها يبدأ الجزء الثانى من السهرة ويتناول فيه الأكل الذى بقيت زوجته تعد فيه منذ الساعة الثانية، ويتكون دائما من اللحم والخضار أو الأسماك وعندما لا يتوافر هذا ولا ذاك تكون الدواجن هى البديل، لا يقبل توفيق عن الزفر بديلا فى العشاء، ويبدأ فى ممارسة الجزء الأول من واجباته الزوجية اليومية ، كما يقول اسامة. ويظل فى تأدية تلك الواجبات الى الواحدة، وبعدها ينام هادئا حتى آذان الفجر، ويسيقظ، فيصلى الفجر وبعدها يعود الى الجزء الثانى من واجباته الزوجية.

كان أسامة أو الكابتن يريد أن يعرف حقيقة الجزء الثانى من بنود الممارسات الزوجية، وكان يتعجب من هذا التقسيم اللامنطقى، سألته عن

المصدر الذى استمد منه معلوماته عن مسيرة الشيخ توفيق اليومية، فقال ان ماهر اخبره بها فى احدى جلسات الصفا .

أخبرته أننا ينبغى أن نستدرجه معنا لنعرف منه سر البند الثانى، ولكن الكابتن أسامة حذرنى من الكلام مع توفيق لأنه لن يحكى أمامى - أنا بالذات - لأنه يشك فى عمالتى للأمن (مرشد) ويشيع أننى لم أخرج الى المعاش، ولكنهم جندونى لمراقبة المسجد والمصلين فيه، سألت الكابتن :

- صحيح ؟

- للأسف صحيح . فهو لا يزال يعتقد أن هناك من يراقبه، حتى عندما تضحك معه فإنه يكون حذرا ويضحك بحذر أيضا .

- وهل عنده ما يخفيه؟

- للأسف لا، ولكنه يعتقد أن رجال الأمن يتربصون به دون سبب واضح.

- هل سبق اعتقاله؟

- لا .

- لماذا يخاف ؟

-زملاؤه فى المدرسة قدموا ضده شكاوى كيدية لأنه يستحوذ على الجزء الأكبر من دروس التلاميذ الخصوصية .

الآن تحقق لى ما كنت أشك فيه ، فقد اكتشفت أن توفيق يتضايق عندما نتبادل المرح بعد الصلاة، كنت قد ألمحت اليه مرة بأنه يطيل الصلاة ولكنه قال :

- أبدا والله أنا أقرأ الفاتحة وما تيسر، ولكننى من الآن لن أصلى الا بالإخلاص والكوثر .

وبعدها بدا يصلى فعلا بالإخلاص والكوثر، وفى الفترات التى لا أصلى معهم ويعرف أننى غائب يصلى ويطيل فى الصلاة. كما لاحظت انه يتعمد

أن يتجنبني في أثناء الكلام، حتى عندما اندلعت حرب العراق، وكنا نقف عقب صلاة العصر لنتكلم عما يحدث في الجبهة، كان الكابتن يشرح لنا تحركات العراق باعتباره خبيرا بالحرب وشئونها، كان توفيق يصمت ويستمع صامتاً، وفي أحيان كثيرة كان ينزل اللعنات على صدام حسين. وأخبرني الكابتن انه لا يشتم صدام الا في وجودي، ولا يتكلم إلا في غيابي، وفي إحدى المرات، وكان هذا في أثناء الإجازة الصيفية حاول توفيق أن يتحدث عقب صلاة العشاء وأن يشرح فضائل النصف ليلة الإسراء والمعراج، وبعد أن أعد الميكرفون. اعتذر، كنت أنا قد دخلت متأخرا ووقفت في الصف الأخير، ولم يشاهدني، وعندما رآني أصلي الشفع والوتر تراجع عن درسه، وأخبرني اسامة أنهم أخبروا الشيخ توفيق أنني في المعاش ولا أضمر لم له شيء ولا لغيره، وأنني لم أعمل في أمن الدولة ، كما أن صلتي بالشرطة انقطعت ، ولكنه لم يصدقهم وقال قولته الشهيرة :

– ملة الكفر واحدة .

وقال أسامة إنها خرجت منه هكذا، حاول بعدها أن يقنعهم أنه كان يمزح، وحاول أن يستغفر ربه بعدها، ولكنه كان قد نطقها. صحيح أنني ضحكت عندما أبلغني اسامة، ولكنني فكرت في أنه ينبغي على أن أبدأ الخطوة الأولى لإزالة هواجس الشيخ توفيق ونعرف أيضا سر الجزء الثاني الذي يدعيه الكابتن، عندما يحين الوقت .

ماهر طاف الدنيا قبل أن يستقر به المطاف في منطقة سكننا، عمل في ليبيا والعراق والكويت والسعودية. كما عمل كل المهن ابتداء من حمل القروانة حتى مدير سوبر ماركت، ونجح في كل المهن التي عمل فيها ، ولكن سوء حظه المقترن دوما بكوارث العرب هو الذي أخرجه من تلك البلاد. ماهر حاصل على معهد تجاري سنتين بعد الثانوية العامة، عينوه في الجمعية

الزراعية. لم يفلح مرتبه فى إنقاذه من براثن الفقر ، فقرر السفر، وكان فى كل مرة يعود فيها من الخارج يبنى جزءاً من بيته .

بعد أن عاد من ليبيا اشترى قطعة الأرض، ومن العراق شيد عليها شقة واسعة، وفى المرة الثانية تزوج، وعندما سافر الى العراق فى المرة الثانية بدأ يدخر، فى الكويت نمت أمواله وعرف طريق شهادات الاستثمار ذات العائد الجارى .

سافر الى ليبيا فى بداية السبعينات، وبقى هناك ثلاثة أعوام، وعندما اندلعت حرب أكتوبر طردهم القذافى «خليكم خلف الجنود فى الجبهة الداخلية»، وعاد ماهر فعلا . كان وحيد والديه لا تجنيد ولا حرب. بقى عامين وبعدها سافر الى العراق. وعندما سافر السادات الى القدس لم يحتمل غيظ العراقيين، كما لم يتحمل أن يشتم السادات فى حضوره (كأنهم يشتمونى فى شخص السادات) ، وعاد من هناك، وهنا اكتشف أنهم فى مصر يشتمونه أيضا . رجع الى العراق وبقى فيها حتى انتهيت الحرب مع ايران، وبدأ العراقيون يفرحون بالنصر على حساب المصريين العاملين فى جبهتم الداخلية ، فداسوهم بالسيارات، واسقطوهم من على سقالات البناء، وضربوهم بالمدى فى الشوارع الجانبية والحارات، وعادت جثثهم فى النعوش، ولم يحتمل ماهر ، وعاد .

شعر الحنين الى نقود العراق وديناراته، فذهب اليها ومنها أمكنه الهرب الى الكويت. بقى هناك عاماً واحداً وداهمهم صدام حسين بدباباته، وبدأ اكبر حملة للتخريب هناك، لم يعد لماهر هناك عمل، وعاد من هناك سيرا على الأقدام على لحم بطنه كما يقولون، وذاق الأمرين فى الطريق ، وعندما وصل الى الأردن عاملوه بقسوة على الحدود. ولما وصل الى مصر قرر ألا يسافر مرة ثانية.

بقي في مصر ثلاث سنوات وقرر أن سافر إلى العمرة، وبالفعل سافر وتخلف ومكث هناك أربع سنوات. كان يرسل خلالها مدخراته الى زوجته، وقبل أن يشعر بالحنين اليها داهمت الشرطة منزل كفيله الذى كان يعمل عنده ويأويه بعد أن أوشى الأمريكان بالرجل وقالوا انه كان يرأس جمعية تناصر القاعدة وترسل لها بالأموال. فر ماهر بأعجوبة، كما قال لي، ولكنه في تلك الجزئية كان يكذب والحق أنهم احتجزوه. وأخلوا سبيله بعد أن عاد كفيله من السجن .

قرر ماهر أن يستقر ولايسافر أبدا، وبدأ يتاجر في أراضي البناء، ويمارس السمسرة فيها، ويقضي وقته متجولا في الشوارع رافعا رأسه لأعلى ليشير الى عميل على شقة أو بيت .

يتحدث ماهر كثيرا عن العقارات ومزايا الادخار فيها ، وهو عندما يبدأ الحديث عن عقار يشعرك انه يتحدث عن مكان عزيز عليه، ولولا الورطة التى وقع فيها صاحب العقار بسبب شرائه مصنعاً في ٦ أكتوبر لما باعها، ويتحدث عن عمارة اخرى ويقول ان اختلاف الورثة فقط هو سبب بيعها، رخيصة ولقطة، مقشرة، الشقة يجرى فيها خيال، الصالة تقدر تقسمها تلات مطارح. ناصية بحرية وغربية، ريحها يرد الروح، مبنية في زمن الرخص صاحبها جار عليه الزمن وأفلسته المخدرات، ويظل هكذا يقنعك بالشراء ويقسم بأغلظ الايمان انه ليس سمسارا، ولكنه واسطة خير لأجلك أنت فقط، ولولا معزتك عنده لم اختارك أنت بالذات .

ومع هذا فهو يحرص على الصلاة في مسجدنا ويسألنا عني كلما تخلفت عن فرض.

تناولنا طعام الغذاء صامتين، لم يعد بيننا ما نتكلم فيه .

وأنا جالس مع زوجتي هيمن الصمت على كل شيء، وعندما حاولت ان أتكلم، لم أجد عندى ما أقوله كنا قبل ذلك نتكلم في كل شيء، وكان كلامها

يروقني، كما كان الكلام يجلب بعضه البعض، وما أن أتكلم في موضوع حتى يتفرع الكلام الى موضوع آخر، كان الوقت يداهمنا. وكانت زوجتي تنهض قائلة إنني أنسيتها غسيل الأطباق وكومة الملابس التى كومتها فى انتظار أن تغسلها. كما أنها كانت تنسى أن تكلم شقيقاتها فى التليفون وتعتذر لهم بأنني أنا الذى أنسيتها ذلك، لاشك أنهن كن يحسدنها.

الغريب أن الموضوعات التى كانت تتزاحم علينا هربت الآن، ولم أجد عندي المقدرة على اختراع موضوع واحد لنتكلم فيه.

أخبرتها أن القوات الأمريكية دخلت العراق، تظاهرت بأنها فوجئت، وظلت تسألني متى وكيف؟ حاولت أن أستعيد بعض ماكان يقوله المحللون العسكريون الذين كانت تستضيفهم الفضائيات العربية، لم أجد عندى القدرة على تذكر ماكانوا يقولون، نسيته كله، ولم أجد عندى تفسيرا مقنعا لسقوط المدينة التى قيل انها كانت حصينة وانهارت فجأة، وسكتنا.

★★★

ذهبت هى الى المطبخ. وأنا فتحت التيلفزيون.

جاءت محطة فضائية اخبارية، كانت الكاميرا تسير فى شوارع بغداد، سارت فوق أحد الكبارى، ثم انتقلت الى عمارة سكنية هائلة، قال المذيع إنه الآن يقف فى شرفة فندق الرشيد. كانت الكاميرا تطل من الشرفة. فجأة بدأت الكاميرا تقترب من مكان فيه أشجار ونخيل. وكلما اقتربت اتضحت ملامح المكان الذى تقترب منه حتى تشكل أمامي ميدان كبير، قال المذيع انه ميدان الفردوس فى بغداد.

تركزت الكاميرات على تمثال صدام حسين الذى كان يقف شامخا فى الميدان الواسع الكبير فى بغداد على قاعدة خرسانية هائلة.

القوات الأجنبية تطلق النيران، ورأينا الطلقات الصاروخية وهى تخترق المباني وتهدمها، وفجأة صاح المذيع أن القوات المعتدية قتلت المراسل الذى

كان يذيع البيانات فى قناة الجزيرة، ظهرت سيارة اسعاف وثلاثة من الأفراد يحملون شخصاً جسده كله ملطخ بالدماء، كانت أطراف الجثة متدلية ومرتخية، وكان زملاؤه يحملونه الى سيارة الإسعاف.

وعم الصمت، سمعنا فيه المذيع وهو يجهش بالبكاء وانقطع الارسال، وجاء مذيع آخر وقال ان القوات الأمريكية أطلقت النار على مراسلى القنوات العربية لأنها تبث مباشرة، وان عملية القتل كان المقصود بها ارهاب المصورين والمراسلين للتغطية على عملية كبرى يجرى الإعداد لها.

انقضت ساعتين.

وبعدها ظهرت دبابة أمريكية، كانت تسير ببطء كأنها تتحسس طريقها. وتبعتها دبابات أخرى. نزل الجنود من الدبابات. كان الشارع خاليا من الناس، بدا الناس يظهرون على استحياء، وسرعان ما تجمعوا عند المنطقة المحيطة بالتمثال. كان المذيع قد أخبرنا أن القوات العراقية اختفت من المدينة.

ناديت على زوجتى لتشهد معى تلك اللحظة التاريخية.

جاءت ووقفت بجوارى دون أن تتكلم .

صعد مواطن الى قاعدة التمثال ثم تسلقه وضع فى يد التمثال الممدودة إطار سيارة قديم. صعد عراقى آخر ولامس الرقبة الحديدية للتمثال. كان يبدو خائفا وهو يبتسم للكاميرات. كانت ابتسامته متوجسة. ظل يحدق فى وجه الرجل التمثال البرونزى، ويتحسس وجنتى التمثال ليتأكد أنه جماد، لاشك أن الرجل كان يخشى أن تومض العينين المتحجرتين فجأة، ماذا يفعل المسكين لو كان السيد الرئيس الركن حارس البوابة الشرقية للأمة العربية يتابع المشهد عبر احدى شاشات التليفزيون المتحشدة كاميراتها هناك؟ . يبدو أن الرجل لم يصدق مسألة الانهيار. كان خائفا. وماتت

ابتسامته فورا وحل محلها فتور وتجهم وسرعان ما نزل .

ازداد تجمع الناس عند قاعدة التمثال. رأيت شاباً يضرب قاعدة التمثال بمطرقة حديدية، كان الشاب متحمسا، وكان يضرب القاعدة بعنف، نسى في غمرة حماسه أنها من الخرسانة المسلحة وأن المطرقة لن تجدى فيها، جاء آخر ومعه مطرقة ليساعده، لم تفلح جهودهما معا سوى في كسر طبقة صغيرة من الخرسانة ظهرت ككدمة كبيرة في القاعدة. كان الجنود الأمريكان يرقبون الناس، وفجأة اقتربت دبابة من قاعدة التمثال، واستدارت ليصبح ظهرها في مواجهته. نزل الجنود منها . اخرجوا لفات الحبال من الدبابة، صعد أحدهم على التمثال، لفوا الحبال حول رقبة التمثال.

خيل الىّ أن التمثال سيمنعهم ويدافع عن نفسه ويلقيهم على كتفيه، من كان يجرؤ على الاقتراب من تمثال الزعيم، ثم أفقت على رقبة التمثال ملفوفة بالحبال المتينة، وبعد أن احكموا الرباط نزلوا، وتحركت الدبابة للأمام، وبدأت الحبال تستقيم، كان تقدم الدبابة بطيئا ، ولكن التمثال ظل صامدا مستعصيا على الانحناء والكسر، وتوقفت الدبابة، جاءت دبابة أخرى. أكبر منها . ادارت ظهرها للتمثال، وبدأ الجنود يعملون بمهارة. اخرجوا من الدبابة مايشبه السلم، كانت نهايته ملتصقة بالدبابة، وأخرجوا مجموعة من الحبال البرونزية ، وبدأوا في تكتيف التمثال مرة أخرى.

في تلك الفترة كان الجنود الأمريكيون يصعدون الى التمثال بسهولة، صعد مواطن عراقي ، ليساعد الأمريكي على إحكام ربط التمثال بالحبال ، لم يكن العراقي خائفا ، فجأة أخرج الأمريكي علم بلاده ذو اللون الأحمر والخطوط السوداء، بسطه أمام الحاضرين، لاشك أنه كان معد سلفا، أحاط رأس التمثال كلها بالعلم الأمريكي. تذمر بعض الواقفين. هكذا خيل لى، لأن الأمريكي نزع العلم بسرعة ، ووضعه في جيبه، غير أن صورة تمثال صدام

حسين وقد غطاه العلم الأمريكى كانت لها دلالتها التى ليس من السهل نسيانها، ربما وضعوا العلم لأجل أن تسجل الصورة الخالدة التى ستحفظها ذاكرة جيلنا الذى عاصر وشاهد ورأى، لم يستغرق العلم الأمريكي دقيقة واحدة وهو يغطي وجه التمثال ، ولكن تلك الدقيقة لازالت معي حتي الآن وربما استمرت سنوات قبل أن يمحوها الزمن. صورة لها دلالتها.

بعد أن أحكم الأمريكيون ربط التمثال، تحركت الدبابة قليلا، وبدأت الحبال تستقيم. وكما يفعل الكاوبوى عندما يصطاد فريسته بدأ التمثال يترنح تحت وطأة الحبال التى تسحبه. وباستمرار حركة الدبابة تخلخل التمثال عن عرشه وسحبته الدبابة حتى تهاوى من فوق القاعدة ووقع على الأرض. عندما اعدم الرومان طاغتيهم نيكولاى شاوسيسكو ظهرت صورته وهو ميت فى لحظة خاطفة وفريدة لمدة ثانية فقط الأمر الذى يعنى أن الأمر كان عفويا، وارتجاليا.

لم يتمالك العراقيون الذين أفسح لهم الزمن مجالا ليشاهدوا اللحظة التاريخية بأنفسهم، وداسوا التمثال بالأقدام، ورقصوا فوق ظهره، وهوى بعضهم بالأحذية على وجه الزعيم الذى كان من ساعات هاجسهم الأكبر، الذين لم يضربوه بالنعال كبروا وهللوا عندما سقط التمثال ولامس الأرض، تماما كما يفعلون عند نحر الأضاحى.

ظلت اللحظة جاثمة فى شاشة الجهاز وفى تفكيرى، بانهيار التمثال انهار كل شيء فى بغداد، كان المخرج الذى يذيع البرنامج فى القناة الفضائية بارعا وهو يستعيد صور الرعاع وهم يضربون صور الزعيم بالأحذية، خصوصا هذا الرجل الذى يرتدى الجلباب والذى أمسك فى يده اليسرى صورة للزعيم وفى يده اليمنى حذاء وظل يضرب الصورة بالحذاء

حتى تمزقت، الغريب أن المخرج استطاع أن يضبط الكاميرا على نفس الرجل وهو يجرى حاملا فازه ضخمة من فازات القصور وفيها أعواد الزهور الصناعية .

كما استحضرت الكاميرا صورا للقصور وهى تنهب، ورأيناهم وهم يخرجون التكايا والارائك والكراسى المطهمة من قاعات قصور الرئاسة ويجرون بها فى الشوارع، ورأينا البيوت الفخمة تنزع منها لوحاتها الثمينة والأجهزة الكهربائية الغالية وتوضع على سيارات، كما سلطوا الكاميرات على مشهد فريد ولم يحدث فى التاريخ للبنوك العراقية وقد اخرج الناس من بطونها النقود ومزقوها والقوها على الأرض وداسوها .

هل كانوا يدوسون صورة صدام المطبوعة على النقود.؟

أم يدوسون نقودهم التى أصبحت عديمة الجدوى؟

خيل إلىّ أن كل شئ معد سلفا بطريقة محكمة التدبير، فقد نصبت الكاميرا فى ارجاء ميدان الفردوس لتلتقط له الصور من كل الزوايا والأركان وبدقة، قبلها بساعات أطلقوا الرصاص على المراسل الذى كان يذيع أولا بأول فى محاولة منهم للتغطية على عملية إعدام بالجملة أو صفقة كبيرة لم يكشف النقاب عنها ، وكنا نرى اطلاق الرصاص من الميدان فى اتجاه فندق الرشيد، وكان حظر التجول قد فرض على المدينة منذ يومين، كيف نصبوا الكاميرات وأحضروا الناس، ربما كان هناك اتفاق.

خيم علينا الصمت ولم أشعر بزوجتى وهى تنسحب الى المطبخ .

بعد منتصف الليل استيقظت على صوت اطلاق الرصاص المتواصل، كان الرصاص يصدر على دفعات متواصلة وكثيفة وقريبة منى . استيقظت . واستيقظت زوجتى، كان صوت إطلاق الرصاص لايزال منهمرا ، نظرت فى الساعة كانت الثالثة والنصف صباحا.

ليس من الحكمة النزول . ولا الاتصال بأحد فى هذا الموعد لمعرفة سبب اطلاق الرصاص. منذ مدة لم نسمع أصوات الرصاص، اعتدنا أيام الارهاب على سماع أصوات الرصاص، لم تكن تمضى ليلة دون أن تخترق رخات البنادق آذاننا، أما الآن وبعد أن أعلنوا توبتهم واعترافهم بأنهم كانوا على خطأ فقد توقف الرصاص وتوقف تيار الدم.

كما أن العائلات المتصارعة فى مدينتنا لا يستخدمونه بتلك الغزارة، طلقة او اثنتين على الأكثر تؤدى المطلوب، كما أنهم لايطلقونه الا فى وضح النهار وربما فى الليل فى أحوال نادرة، لكن فى هذا الموعد فالأمر خطير .

شعرت بالقلق .

كان الرصاص يتوقف لحظات، ثم يعود من جديد .

بعد فترة سمعنا أذان الفجر .

شعرنا بالاطمئنان. لأن آذان الفجر معناه أن الناس بدأت تمشى فى الشارع حتى وصلت الى المسجد وقام أحدهم بالأذان، فكرت فى الوضوء والنزول من البيت لصلاة الفجر وبالمرة معرفة ما حدث. رفضت زوجتى الفكرة نهائيا، وأصرت على عدم خروجى فى تلك الساعة، وقالت لى : إذا كنت تريد صلاة الفجر، الأيام قادمة ولا تنزل اليوم. نهضت من جانبها وأخبرتها أننى لن أذهب ، توضأت وصليت فى البيت .

ولم أجد ما أفعله .

فكرت فى زوجتى ، كان مثل هذا الوقت أنسب الأوقات لممارسة هوايتنا فيما مضى، لكننى شعرت بالبرد يتسلل الى كل أطرافى، ولم أجد أحسن من النوم .

★★★

زارنى فتح الباب، وأخبرنى بنجاح ذكرى فى انتخابات مجلس الشعب

وفاز بالمقعد الذى خلا بوفاة صاحبه ، كان فتح الباب مسرورا بنجاح ذكرى، وقال انه واحد منا ، على الأقل نطلب منه ما نريد دون أن يتضجر .

كما أخبرنى أن نجله نجح فى الكشف الطبى وتحدد له موعدا لكشف الهيئة بعد شهرين. وقبل أن يشرب الشاى أخبرني أنه كان فى مقر الحزب الوطني، وأنه أحضر الي استمارة عضوية في الحزب، وأدخل يده فى جيبه واخرج الاستمارة وبسطها أمامي وقال :

– أمض هنا . وأنا أتولى كل شيء.

وطلب مني صورتين، سألته عن سبب طلب الصور قال :

– صورة للكارنيه، والثانية للاستمارة .

لم تكن عضوية الحزب تهمنى. ولا أريدها ولكننى وجدت نفسي منساقاً الى فتح الباب، وبالفعل وقعت فى المكان الذى أشار اليه، تناول فتح الباب القلم وبدأ يملأ الاستمارة بالبيانات التى يعرفها، أما التى لا يعرفها فكان يسألنى عنها مثل المؤهل والوظيفة والأولاد وتاريخ الميلاد، وبعد أن أعطيته الصورتين، طوى الاستمارة ووضعها فى جيبه، وقال :

– واجب اننا نروح لذكرى ..

وخرجنا وفى الطريق سألته عن الرصاص الذى كانوا يطلقونه في الليل، قال:

– كل عيلة في البلد تحب تستعرض السلاح اللى معاها ، تحية المجلس .

★★★

كان منزل ذكرى يعج بالناس، تشكلت امام البيت مجموعة من الناس يتوسطهم رجل يربط رقبته الطبل الكبير (دربكة) وتستند على بطنه وبجواره رجل يضع في فمه مزماراً ويصرخ فيه، وآخرون يرقصون على أنغام المزمار.

تجمعت النسوة فى مكان بعيد وكن يطلقن الزغاريد المتواصلة، ومن آن لآخر نسمع رخات الرصاص التى تنطلق من البنادق الآلية .

. دخلنا الى الفناء الواسع، كانت الأنوار تسطع، ورصت الدكك فى كل مكان لكى يجلس عليها الناس. جلس ذكرى فى صدر البيت، وحوله أقاربه وأعوانه، عندما شاهدنى أسرع نحوى وعانقنى وأفسح لى مكانا بجواره ومعى فتح الباب، وقال انه لم يغمض له جفن منذ ثلاثة أيام، كانت المعركة حامية مع أنها كانت قاصرة عليه وعلى مرشح أخر لم يكن له ثقل عائلى ولاحزبى، كان ذكرى يسحب الدخان من الشيشة، وأشار الى واحد من أعوانه وقال :

– شيشة للباشا .

وقال ذكرى انه تلقى تهنئة رئيس مجلس الشعب منذ قليل، وأن وزير الداخلية قد أبلغه بالنتيجة وتمنى له التوفيق فى عضويته، وقال ان عدداً كبيراً من الوزراء لايعرفهم اتصلوا به وهنئوه. وأخبرنى أن المحافظ قادم اليه فى الطريق .

وطافت علينا أكواب الشربات، ولم اتمكن من شرب رشفة واحدة بسبب طعمها غير المستساغ ولونها الأحمر الصارخ .

انطلقت دفعة من النيران من رشاش بالقرب منا. أعلن واحد من أقارب ذكرى أن وفد بنى شنير قدم للتهنئة، وانطلقت دفعة أخرى من النيران للرد على الدفعة التى سمعناها اطلقها واحد من أعوان ذكرى .

وبعد قليل جاءت الشيشة ، سحبت منها مرتين عندما سمعنا دفعات أخرى متتالية من الرصاص تطلق بالقرب منا. وقال نفس الرجل لذكرى انهم من بنى تاكيه، وعلى الفور جاء الرد عن يمينى مباشرة، وكان الرجل الذى يطلق النيران يقف بجوارى تماما ويطلق النيران من بندقية آلية

والطلقات الفارغة تنهمر حولنا ، وكان الأولاد الصغار يتكالبون عليها ويلتقطونها ملتهبة تلسع أيديهم الصغيرة، وجاء وفد ثالث من بنى جوان، اطلقوا الرصاص ورد عليهم الذى بجوارى أيضا ، وبدأ الحوار بينى وبين ذكرى يتلاشى تحت وطأة رخات الرصاص .

جلسنا فترة صامتين، وكان قرع الطبول والمزمار فى الخارج يرسم صورة صاخبة لاحتفال قد لايتكرر مع ذكرى مرة ثانية .

كان ذكرى مبتسما الى الحد الذى تصورت فيه أن فمه خلق هكذا مبتسما وانه لن يرجع ابدا لحالة العبوس التى كان عليها فى جنازة ابن سيد شحاته .

سألنى ذكرى عن عدد قطع السلاح المسموح بها لعضو مجلس الشعب ، وأخبرته أننى لا أعرف . (لم يكن ينقصه إلا أن يكلفنى بإنهاء اجراءاتها) .

مكثنا عند ذكرى أكثر من ساعة، واستأذنت خارجا ومعى فتح الباب .

عادت ابنتى سميحة من الجامعة وأخبرتنى أن الدكتور الذى كان طلب منها أن تتحجب أعتقلوه . وأن هناك مظاهرات فى الكلية والجامعة بسبب التضامن مع شعب العراق . وأن الأمن المركزى يحاصر الجامعة كلها ، وأن عدداً كبيراً من الطلاب ترك الجامعة وعاد إلى البيت ، وأنها عادت مع بعض زميلاتها ، سألتها عن تامر وأخبرتنى فى وجود أمها . انها لم تشاهده . وفجأة صرخت زوجتى :

- إنت قاعد فى البيت وسايب تامر هناك ؟

ارتديت ملابسى ، والحذاء الجديد ، وقبل أن أخرج من البيت انفردت بى سميحة بعيدا عن أمها وقالت لى :

- على فكرة يا بابا تامر اشترك فى المظاهرات ومقبوض عليه . وأنا بصراحة كنت خايفة أقولك لتزعل منه ، ومش ها قول قدام ماما علشان

أعصابها متستحملش .

حاولت الاتصال بتامر على تليفونه المحمول . لم يرد .

وتركت البيت وخرجت . لم أخبر أمه بشيء .

لم يتحدث أمامي تامر في السياسة قط ؟ وكان عندما تأتي نشرة الأخبار يستمع إليها صامتا . والحق أن صمته شغلني ، وكنت قد أخبرت أمه عن صمته الشديد ، وأخبرتني أن تامر قليل الكلام بطبيعته ويميل إلى الهدوء . وكنت أحسبه من هذا النوع من الناس الذى ينام ويصحو ولا هم له سوى الأكل أو الشرب والزواج ولا شيء غير ذلك .

وأنا في طريقي إلى الجامعة كنت مشغولا بخليط من المشاعر المتضاربة.

فقد فرحت لأن أبني صار مهتما بقضايا بلده التى كنت أخشى عليه منها ، ومن ناحية أخرى فقد شعرت بالخوف عليه من الإهانة التى يتعرض لها أثناء عملية القبض عليه .

أيامنا كانت مظاهراتهم لأجل الحرية ولأجل مستقبل أفضل ولأجل مزيد من الديمقراطية ولأجل فلسطين . وهاهم اليوم يجدون بلدا عربيا كان ملء السمع والبصر وكان فيما مضى ملاذا لآبائهم وإخوانهم يعملون فيه.

صحيح أنهم لايعرفون أكثر من أن بغداد سقطت تحت سنابك الخيول الأجنبية ولا يعرفون أن السقوط كان السبيل الوحيد لإزاحة نظام أهدر كرامة الآلاف وطرد الآلاف من وطنهم وسطا على دولة شقيقة ولم تكن لديه الحصافة ولا المرونة التي يمكن بها أن يواجه العاصفة التى كان سببا فيها كان يجب أن يتعلموا هذا .

لقد تركناهم يسمعون ويشاهدون في الفضائيات أقرانهم في أوروبا وهم يعبرون عن رأيهم ويسبون حكوماتهم التي انحازت إلى الشيطان الأكبر ويعودون إلى صديقاتهم وبيوتهم ولا يضربون ولا يهانون .

كانت محطة السكة الحديد ممتلئة على غير العادة بآلاف الطلاب والطالبات يحملون حقائبهم الضخمة ويستعدون للرحيل إلى بلادهم كان على أن أشق بصعوبة وسط الطلاب كانوا صامتين لايتحدثون كعادتهم ثمة أمر جلل قد حدث .

سألت أحدهم فقال :

- آه . طردونا من الجماعة وصدر قرار بإغلاقها .

- متى ؟

- النهارده .

- قبضوا على طلاب ؟

- بالمئات . خلاف البهدلة والإهانة .

تركته وخرجت إلى الشارع ولا أعرف إلى أين أتجه .

اتصلت بتامر فلم يرد أيضا . بدأت دقات قلبى تزداد ولأول مرة أشعر بالخوف من مصير غامض .

التليفون فى جيبى لم يهدأ . والدته تطلبنى كل خمس دقائق وتسألنى عن تامر . أخبرتها أننى فى الطريق ولم أصل عنده .

ركبت تاكسى إلى الجامعة .

نظر إلى السائق بارتياب وقال :

- على فكرة فيه ضرب أنزل فى أقرب شارع .

وبالفعل نزلت فى مكان قريب من الجامعة تعود بعده السيارات من حيث أتت . الجامعة كلها أحاطتها سيارات الأمن المزكزى ومنعت السيارات الأخرى من الدخول إلى الجامعة أو الخروج منها أو حتى مجرد المرور فى الشوارع المحيطة بها .

اقتربت أكثر ورأيت كردونات العساكر التى تمنع أى شخص من الدخول

وتسمح فقط للطلاب بالخروج من الجامعة ولا تتركهم يعودون إليها .

اقتربت من أحد الضباط . وعرفته بنفسي . وطلبت منه أن يدعني أدخل إلى المدينة الجامعية لأجل الاطمئنان على ابني . استجاب على الفور وأمر الجنود أن يسمحوا لي بالدخول .

اتجهت إلى المدينة الجامعية وإلى المبنى الذى يسكن فيه تامر .

اعترضني عامل المدينة وأخبرني أن التعليمات تقضي بمنع أي شخص غريب من الدخول عند الطلبة وأخبرته بصفتي وأنني لا أريد سوى الاطمئنان على ابني ولكنه أصر على رأيه حاولت أن أسأله عن أحد المشرفين ولكنه أخبرني أن المشرفين موجودون في غرفهم داخل المدينة وأنه لايستطيع أن يترك مكانه .

لم يكن الكلام معه يجدى .

عدت أدراجي إلى الضابط الذى سمح لي بالدخول وطلبت منه أن يساعدني بالاتصال بقائد الحرس الجامعي ، أخبرني الضابط بأنه لايعرف وسيلة للاتصال بقائد الحرس ولكنه يمكنه أن يتصل بقائد الأمن المركزى .

شكرته .

أشار على الضابط الشاب أن أسير في الطريق المؤدى إلى إدارة الجامعة وأنني من الممكن أن التقى بأى ضابط من ضباط الحرس .

بالفعل التقيت بضابط من ضباط الحرس أخبرته عن صفتي . وسألته عن أبني . سألني عن اسمه . أخبرته به . أخرج ورقة من جيبه نظر فيه وقال .

- معهلش ياباشا . تامر في المستشفى .

- أى مستشفى ؟

- مستشفى الجامعة .

- إصابة خطيرة ؟

- لا . حضرتك عارف إما اختناق من الغاز أو ضربه عصا .

- أين المستشفى ؟

- تطلع بره تاني تلف تلاقي المستشفى . بس لازم يكون مع حضرتك الكرنيه عشان تقدر تدخل وتشوفه .

دخلت المستشفي سألت عن العنبر المحجوز فيه الطلبه المصابين . قال لى الرجل الذى سألته :

- الدور الرابع .

صعدت إلى الدور الرابع صعودا على السلم . صعدت الأدوار الأربعة مرة واحدة لم أشعر بالتعب الذى كنت أشعر به عندما أصعد سلالم الدور الثاني .

عند بابا العنبر رأيت شخصا يرتدى الملابس الرسمية ومعه ثلاثة آخرين وبعضهم يرتدى الملابس المدنية بالإضافة إلى أعداد أخرى تقف بعيدا عنهم وبعضهم كان فى يده البنادق الآلية .

منعونى من الدخول . أخبرتهم عن صفتي طلب مني الشخص الذى رأيته الكارينه أخرجته له وبعد أن أطلع عليه قال :

- آسف . التعليمات تمنع مقابلتهم .

- أنا والد تامر .

- وليكن ، التعليمات صريحة.

- تعليمات مين؟

فقال بصدق:

- تعليمات الإدارة.

- من الذى أصدر التعليمات؟

- لا أعرف.

- حضرتك عارف التعليمات، لا تحرجنى.

- لازم أشوف ابني.

- لا تضطرني إلى منعك بالقوة.

- لا تستطيع.

كان الآخرون يرقبون الموقف ، خطفت الكارنيه من يده، ولم يتدخل أحدهم بكلمة واحدة، وجدت نفسي أقتحم الباب وأدفعه، وانفتح الباب على الفور، غير أني جوبهت بكتل بشرية تسد الباب من الداخل ، ولم أتمكن من الدخول ، ورأيت أحدهم يرفع عصا غليظة لولا أن أحد الأشخاص من الذين كانوا واقفين منعه من إنزالها على رأسي.

ورأيت الشخص الذي كان يحدثني، يتحدث في جهاز الاسلكي مخاطباً قيادة أعلى .

سمعت المتحدث على الجانب الآخر يقول:

- امنعه بالقوة، وإذا لم يمتثل وينصرف إعمل له محضر تعدى في نقطة المستشفى.

قرب الشخص الذي كان يتكلم في جهاز اللاسلكي من وجهي إمعاناً في التحدي وقال لي:

- سامع ولا أسمعك.

تدخل أحد الأشخاص، وسحبني من يدي بعيداً عن العنبر، وأخبرني أن التعليمات الصادرة تمنع أن يتقابل المصابون مع أي أحد حتى يتم التحقيق معهم، وقال:

- ولو حضرتك انتظرت خمس دقائق أو بالكثير جداً نصف ساعة سيخرجون من عندهم تطمئن على إبنك ولا تشغل بالك بالشخص ده، لأنه واخدها جد شوية.

وقفت بعيداً عنهم وأنا أغلي من الغيظ، ومن أن لآخر كنت أسمع

صرخات الطلبة داخل العنبر، وحاولت أن أتعرف على صوت ابنى.

ضغطت على التليفون الذى فى جيبى حتى يتوقف عن الرنين، وكنت أعلم أنها زوجتى تريد الاطمئنان على تامر.

★★★

مر الوقت بطيئاً، وشاهدت أحد الأشخاص يخرج من باب المستشفى وفيهم المسئول الذى كنت عنده عندما لم يجد تامر اسمه فى كشوف التسكين منذ شهرين، والذى جعلنى انتظره أكثر من ساعتين. وقف مع الأشخاص الذين يرتدون الملابس الرسمية، كان الشخص الذى منعنى يتحدث مع المسئول وينظر نحوى، نظر المسئول نحوى، وسار بضع خطوات، أسرعت أنا نحوه ، مد يده، لامست يدى أطراف أصابعه وقال:

- أهلاً، حضرتك قلتلى أنت مين؟

- أنا ....

- كنت بتشتغل فين حضرتك؟

(على فكرة هو يعرفنى جيداً ويتظاهر بغير ذلك).

- كنت مدير إدارة.....

- آه . آه. طيب حضرتك تفضل معايا.

- على فين؟

- مش عايز تشوف إبنك؟

- أتفضل.

سرت معه حتى باب الأسانسير، وجدناه مفتوحاً، وبداخله شخص، لم يتكلم. نزلنا إلى الأرضى. سار وأنا خلفه، وعندما صرنا فى فناء المستشفى التف حوله عدد من الضباط الذين يرتدون الملابس المدنية، ورأيت مدير المستشفى يسرع إليه ويصافحه ، وقال للمسئول :

- الأولاد حالتهم كويسة. نبعت للنيابة يمكن إستجوابهم؟

رد عليه المسئول بغطرسة:

- لسه شوية ، إحنا عايزين كمان ساعتين أو ثلاثة على أكثر تقدير، لما تخلص معاهم.

التفت مدير المستشفى إلى أحد الموظفين، وأمره أن يرسل إشارة للنيابة بأنه «لايمكن استجواب المحتجزين، وسنوافيكم تباعاً».

خرج المسئول من المستشفى وأنا خلفه، وسار إلى حيث توجد السيارات، ركب سيارته أولاً، وأشار لي أن أركب بجواره، أشار لسائقه أن يركب، وبمجرد جلوسنا انطلقت السيارات . الحق أنني شعرت بالخوف، ولكنني مع ذلك ولسبب غامض كنت أشعر بالاطمئنان.

نزلنا في المقر الرئيسي، الذي إنتظرت على بابه ساعتين لأقابل الراكب بجواري . أسرع المسئول بصعود السلم ، دون أن يرد على أحد من الذين وقفوا يحيونه أثناء دخوله، وقادني إلى مكتبه الذي جلست فيه قبل ذلك. وقف بعض الضباط على أبواب المكاتب، ورفعوا أيديهم لتحيته وهو يسير وأنا خلفه.

أجلسني على نفس الكرسي الذي جلست عليه من قبل، تركني وغاب فترة امتدت إلى نصف ساعة، وعاد متهلل الوجه، وجلس على مكتبه. تغيرت سحنته، وقال:

- يعني كان لازم حضرتك تعمل هيجان في المستشفى ويقولوا . أعملوا له محضر تعدي؟

- أنا كنت عايز اطمئن على ابني.

★★★

دخلنا العنبر الموجود فيه تامر، أعداد كبيرة من الطلبة بعضهم يضع

الضـمـادات على أذرعـهم وأرجلهم ورؤسـهم . والبـعض الآخر تجـرى له عمليات التنفس باستخدام أنبوبة الأكسجين. أصوات الصراخ والأنين لاتنقطع.

رأيت تامر يجلس على سرير قذر وبجواره زميل له على وجهه ضمادات، وعندما شاهدنى حاول أن ينهض.

جريت عليه.

عانقته وهو جالس، اغرورقت عيناه بالدموع، وجدت دموعى أنا تتاسب تلقائياً، دفنت وجهى فى كتفه، ونسينا أنفسنا لحظة. كان العنبر مليئا بالطلبة، أخبرنى تامر أنهم ضربوه بعصا . ولكنه كان يتحرك، ويذهب إلى دورة المياه، وكلما مر الوقت يشعر بتحسن، وأنه فى أول النهار لم يكن يقدر على ذلك. ولاحظت أن تامر يتنفس بصعوبة. فى تلك اللحظة دخل طبيب شاب، يرتدى البالطو الأبيض، يبدو أن تامر يعرفه، لأنه اتجه إلىّ وسلم علىّ، كما لو كان يعرفنى.

أخبرنى الطبيب أن الأشعة لم تظهر أى كسور، وأن تامر سيبقى تحت رعايتهم فى المستشفى، سألته عن ضيق التنفس، فقال من آثار القنابل المسيلة للغاز وضحك. وقال:

- طبعاً حضرتك أدرى.

أخبرت الطبيب أننى سآخذه للعلاج الخاص خارج المستشفى. ضحك الطبيب . وقال:

- ياعمى ، تامر وزملاؤه فى عيوننا ، ونحن نبذل أقصى ما فى جهدنا ، وبعدين حضرتك عارف إن فيه إجراءات تمنع خروجه.

ونظر إلى الضباط والعساكر الواقفين بالقرب منه.

عادت لتامر بشاشته ، ورأيت زميله الذى بجواره يقول لتامر

معاتباً:

– والدك لم يسلم علينا.

على الفور نهضت، وسلمت عليه وقبلته. كان في سن تامر، وفي نفس حجمه النحيل. وأخبرني تامر أنها لم تكن مظاهرة ، ولكنها كانت مسيرة نظمها اتحاد الطلبة، وفيها عدد كبير من الأساتذة، وأنهم تعرضوا لما تعرض له الطلاب . سألته عن موضوع المنشورات، فأخبرني أنه لم تكن هناك أي منشورات، ولا أي مطبوعات.

أخبرني الطبيب أنه شاهد نشرة أخبار السادسة، وأن رئيس مجلس الوزراء قرر الإفراج عن كل المحتجزين من الطلاب والأساتذة وغيرهم.

أخبرني تامر إن جامعات القاهرة والإسكندرية والصعيد ، وكل جامعات مصر، حدث فيه مثل هذا.

فجأة تحرك رجال الشرطة ، وبدأت حركة غير عادية، ورأيت عدداً من الأطباء يتواجدون في العنبر.

دخل شخص يرتدي بذلة كاملة . وخلفه أربعة أشخاص.

تذكرته على الفور ، رئيس الجامعة الذي قابلته بشأن مشكلة سميحة. كان الرجل واجماً، وكان خلفه عدد من الموظفين والعمال يحملون أكياساً كبيرة ويخرجون منها أكياس صغيرة، ويوزعونها على الطلاب. وعندما جاء عند تامر رمى عليه الموظف كيساً، ورمى على زميله كيس آخر، كان الكيس فيه علبتا بكسويت، وعلبة عصير فواكه،وكان رئيس الجامعة يصافح الطلبة، واحد بعد الآخر، وعندما وصل إلى تامر صافحه،وصافحني ولا شك أنه كان يريد أن يتذكرني، عرفته بنفسي، تذكرني. سلم علي مرة ثانية، وابتسم وقال لتامر:

– الدنيا بخير، ابنك طالع ثورجي. طالع لمين؟

ضحكنا ، أخبرنى أن هناك تعليمات بعدم إجراء أى تحقيقات معهم، وأنهم سيخرجون الآن.

كان الضابط الذى جاء معى قد تركنى مع تامر، ووقف بعيداً مع الواقفين خارج العنبر، وكان من آن لآخر ينظر ناحيتنا، ولم ينطق بكلمة واحدة . بعد أن خرج رئيس الجامعة، جاء الشخص الذى عاملنى بجفاء، واتجه نحوى وعانقنى، وأخبرنى أن الوضع كان متوتراً، وطلب منى ألا أزعل منه، لأنه لم يكن يعرفنى.

جاء الضابط الذى رافقنى، وأخبرنى أن تعليمات صدرت الآن بعدم إجراء أى تحقيقات معهم، وخروجهم. وأنه أبلغ التعليمات إلى قوة الحراسة، وأنهم سينصرفون الآن بمجرد تلقيهم التعليمات من رئاستهم.

وبالفعل بدأ بعضهم فى مغادرة المستشفى.

سمعت الزغاريد تنطلق فى العنبر المجاور، وسرعان ماسمعتها تتردد حولى. الممرضات ابتهجن بهذا القرار، وتعالى صفير الطلبة.

ووجدت تامر ينزل من على السرير، ويسير على قدميه. ولم أصدق، وأخبرنى أنه يشعر بألم بسيط، ولكنه يمكنه أن يمشى.

فتحت التليفون، وكلمت والدته، أخبرتها أن تامر معى، ناولته التليفون ليكلمها، كلمها، أعاد لى التليفون، أخبرتها أننا سنعود حالاً، أخبرتنى أن أعصابها تعبت بسبب إغلاق التليفون، وشكت أن يكون هناك أمر خطير قد وقع لابنها، طمأنتها ، وسألتنى عن سبب إغلاق التليفون، ولم تسكت إلا عندما كلمها تامر، وأخبرها أنه فى الطريق إلى البيت.

أخذت تامر وخرجنا .

لم يخبر أمه بأمر المظاهرة.

★★★

أمارس برنامجي اليومي المعتاد ، الجلوس أمام التليفزيون، أظل أمامه حتى صلاة المغرب، وبعدها أتنازل عنه للأولاد ليشاهدوا المسلسل، أجلس في غرفتي، أمد يدي إلى الكتب القديمة التي لم أقرأها، أقرأ فيها حتى أتثاءب، ويكون الأولاد قد انصرفوا إلى واجباتهم والنوم، أعود إلى التليفزيون، وأظل أمامه حتى يداهمني النوم أمام الشاشة.

تخلت زوجتي عن عادة إعداد طعام الإفطار لي كما تعودت كل يوم، كانت تتركني وتخرج إلى عملها. كانت مطمئنة إلى أنني أصبحت أجيد استعمال أدوات المطبخ، وقادر أيضاً على إطعام نفسي، استيقظ أنا متى شئت. اليوم استيقظت في العاشرة.

لسعة برد خفيفة في الصباح ، وأنا واقف في المطبخ. نحن الآن في أشهر الصيف، وضعت قطعة من السمن البلدي، وقليلاً من الملح في إناء ووضعته على موقد البوتاجاز، بعد أن ساح السمن، كسرت بيضتين في الإناء. أمسكت السكين لتقطيع الطماطم لعمل السلطة .

لا أحد معي. هذا السكون يشعرني بالملل ، لم أتعود على هذا النوع من السكون في تلك الفترة من اليوم ، هذه الوحدة تضايقني ، أخدم نفسي، لقد صرت خفيف الحركة كعازب ، حلمت بالمرأة التي قابلتها في المدينة الجامعية والتاكسي ومحطة القطار، رأيتها تكوي ملابسها، وكلما كوت قطعة من ملابسها، أخرجتها من تحت المكواة وناولتها لي، وأنا أضعها على جسدها، وكانت تلوك شيئاً في فمها، طلبت منها الشيء الذي في فمها، قدمت لي شفتيها، صحيت من النوم، وكانت الساعة حوالي الرابعة، تناولت رشفة ماء، ونمت من جديد، ورأيت أنني عدت للعمل، وأثناء جلوسي في مكتبي جاءت شيرين الموظفة في الإدارة التي كنت فيها، وعرضت على أوراق، وسألتني عن سر غيابي الطويل عن المكتب، وأخبرتني أنها تريدني أن أخيط لها

بلوزتها التي قطعها العميد شفيق، كانت بلوزتها مفتوحة عند صدرها، وبدأت أمد يدى إلى البلوزة لأتفقد مكان القطع، وفى تلك اللحظة دخلت زوجتى وفى يدها إبرة وتولت خياطة القطع لشيرين.

عندما استيقظت فى الصباح شعرت أننى مازلت أنظر فى صدر شيرين..

بدأ النشاط يدب فى جسدى. هذا النشاط الذى لم أتعوده من قبل، كنت أستيقظ خاملا ومرتخيا، وخيل إلى أنني عدت مراهقاً من جديد، نفس أعراض ماقبل الزواج، رغبتي متأججة وحارة، تذكرت المرأة التى قابلتنى فى المحطة، وتذكرت أنها أعطتنى رقم تليفونها، أسرعت إلى الأوراق التى أحتفظ بها، وجدت تذكرة القطار التى كتبت عليها الرقم.

بدون تفكير أسرعت إلى التليفون.

طلبت الرقم ، انتظرت ، جاء صوتها رقيقاً وهامساً من الجانب الآخر:

- ألو .

- أنا.

- أه بتاع التذكرة . أهلاً.

- إزيك .

- إزيك إنت، كان لازم أسمع صوتك . أنا كنت متأكدة إنك هاتتصل ، ياسيدى متشكرين جداً على الواجب اللى عملته معانا فى الصعيد . تعرف إنك طول الأيام اللى فاتت كنت على بالى، وكل مايرن التليفون أقول أكيد إنت. وكنت متأكدة انك النهاردة هاتتصل.

- إزاى؟.

- دى حاجات تعرفها الستات ، تعرف أنى فكرت فيك كتير.

– إنتى عامله إيه؟

– وحدى فى البيت. استنى لما أغطى شعرى وأقفل الشباك. أنا لسة خارجة من الحمام، متقفلش.

– حاضر.

غابت لحظة وعادت.

– عامل إيه؟ طيب استنى لما ألبس الأميص. مش معقول أكلمك وأنا من غير هدوم خالص.

– كده أحسن.

– حنعمل زى العيال المراهقين؟. تعرف، من ساعة ماشفتك قدام المدينة الجامعية، وكمان فى التاكسى عرفت إنك مش سهل، عينيك غريبة، فيها حاجة تشد الستات، مش ممكن أى ست تقدر تبص فيهم، أكيد مراتك قاعدة تبص فيهم طول الليل. استنى لما أحط فوطة على صدرى أصل حاسة بلسعة برد. على فكرة هى فين؟

– فى الشغل.

– وأنت قاعد لوحدك؟ ياعينى عليك، لو أنا مكانها، مش ممكن أسيبك قاعد لوحدك أبداً. إنت قاعد فين دلوقتى؟

– فى البيت.

– ما أنا عارفة. فين فى البيت؟

– فى أودة النوم.

– ياعينى على الناس اللى جاهزة. على طول كده من أول مرة تكلمنى، فى أودة النوم. طيب مش خايف المدام تطب عليك؟

– لسه بدرى.

– بتحبها؟

- طبعاً . دى عشرة عمر.

- تعرف إنها محظوظة. أنت عنيك حلوة. أنا بيعجبنى الراجل اللى عينيه بتقول حاجات. إنت عنيك بتقول حاجات، وكمان شهم، وكريم، والستات تحب الراجل الشـهم والكريم. على فكرة قبل ماأنسى أنت ليك عندى تمكن التذكرة، بالمناسبة هو المبلغ كام علشان لم أشوفك أردهولك من عينيا. بس لما أشوفك حتعرف حنرده لك ازى؟ بس أشوفك.

- تسلم عنيكى. تعرفى إنك حلوة .

- متشكرين أوى. تعرف إن جوزي بيغير عليا موت.

- بصراحة معاه حق. أى راجل مكانه لازم يغير عليكى.

- ليه ؟

- بصراحة كلك حلوة.

- المهم خليك حريص لحسن مراتك تطب عليك، وتعرف إنك بتكلم واحدة ست.

- تعرف إزاى؟

- شكلك سخن خالص، أنا شاعرة بيك، صوتك فيه حاجة غريبة. تعرف إن دى أول مرة أسمع صوت واحد يدوخنى . حرام عليك.

- حرام عليكى إنتى.

- هنشوفك إمتى.

- يمكن بعد أسبوعين.

- أوعى تنزل مصر ومشوفكش . معاك التليفون . بس تكلمنى قبلها عشان أستعد.

- تستعدى إزاى؟

- خليها مفاجأة.

- المعاد المناسب أمتى؟

- يعنى أى ميعاد، وكل ما كان بدرى كان أحسن.

- خلاص.

- ضرورى.

. إنشاء الله ، مع السلامة.

بمجرد وضع السماعة شممت رائحة شياط، رأيت الدخان يملأ المطبخ، وتسرب إلى الصالة، أسرعت إلى المطبخ، رأيت الإناء الذى وضعت فيه البيض والسمن قد اشتعلت فيه النيران، ومن حسن الحظ أنها لم تمتد إلى باقى الأشياء الموجودة فى المطبخ، كان الأناء يحترق على البوتاجاز الموضوع في مكان لاتوجد حوله أشياء قابلة للاحتراق. أسرعت إلى أنبوبة الغاز، أغلقتها. فتحت صنبور المياه، وضعت يدى تحته، وجعلت المياه المندفعة من بين يدى والصنبور تتجه إلى الإناء المشتعل حتى انطفأ، امتلأت أرضية المطبخ بالماء ، وشعرت بالاختناق. شغلت الشفاط. وفتحت كل النوافذ.

خلعت الجلباب، أزلت كل آثار الحريق ، المياه تجمعت فى أرضية المطبخ، وتلطخت حوائط المطبخ باللون الأسود ، وانبعج الإناء ولم يعد يصلح لشىء. أمسكت المساحة، وحاولت أن أزيح المياه إلى الحمام. بصعوبة بعد محاولات عديدة نجحت فى تفريغ الأرضية من المياه ، وقمت بتجفيفها.

عندما عادت زوجتى شاهدت ماحدث، نظرت إلى نظرة طويلة، كانت نظرتها تتهمنى بالرعونة، أرادت أن تتكلم ولكنها تراجعت، تمتمت بكلمات غير مفهومة وبعدها سمعتها تقول:

- كنت فين لما النار عملت كده؟

أتكلم فى التليفون.

- تتكلم فى التليفون وتسيب النار تحرقنا . الحمد لله اللى ربنا سترها.

وطلبت منى ألا أمد يدى إلى أى شىء فى المطبخ وقالت:

- أنت لاتدخل المطبخ إلا لتأكل.

★★★

اتصل بي الدكتور خليفة تليفونيا من القاهرة. جارنا في السكن، ومن شلة الجامعة، كان الرجل متوتراً وهو يخبرني أن شقيقه حواس قبضوا عليه في المطار وهو ينتظره أثناء قدومه من سلطنة عمان.

سألته عما إذا كان حواس عليه أحكام، فقال إنه لا يعرف، ولكنه أخبرني أن موضوع الأرض التي استصلحها، والتعاملات المالية مع شركات أجهزة الري، والسماد والكهرباء وغيرها، كلها تتطلب منه كتابة شيكات، وأخبرني خليفة أن حواس كان قد تزوج وطلق، وأنه ثمة قضايا متبادلة بينه وبين زوجته تتعلق بمتاع الزوجية والمهر وأشياء أخرى.

كان الدكتور خليفة يتكلم وهو يشعر بالإحراج والخوف من مصير غامض ينتظره شقيقه ، وأخبرني أنه يشعر بنوع من تأنيب الضمير لأنه هو الذي طلب من شقيقه حواس أن ينتظره في المطار ، وبالتالي فإنه يريد أن يعرف مصير شقيقه. كان الوقت صباحاً والساعة تقترب من العاشرة.

أخبرته أنه من المحتمل أن يكون قد تم القبض على شقيقة بسبب شيك من تلك الشيكات.

أخبرني أنه سيضطر إلى الحضور للبلد، على أن يعود للقاهرة في اليوم التالي، أخبرته أنني سأذهب معه القاهرة للبحث عن شقيقه في أقسام الشرطة .

★★★

في الساعة الرابعة فجراً كانت في انتظارنا تحت البيت سيارة فاخرة، اشتراها الدكتور خليفة من الخليج،ويستخدمها في الإجازات فقط.

انطلقنا إلى القاهرة عبر الطريق الصحراوي الجديد، أخبرني خليفة أنه حاول استصلاح الأرض الصحراوية، وأنفق معظم مدخراته على مساحة

مائة فدان، وأنه حتى الآن لم يربح منها شيئا، كما أخبرنى أنه اشترى شقة فى القاهرة وجهزها ، وأخرى فى الإسكندرية ، وأنه يعتبر الشقتين بمثابة مبلغ مستثمر. وقال لى إنه حاول أن يدخل فى مجال الاستثمار فى مجال المدارس الخاصة، ولكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة، لأن مجال الاستثمار غير واضح فى مصر، وأن النظام البيروقراطى الذى أفشل السياحة فى مصر، هو الذى أفسد مجالات الاستثمار فى الزراعة والتجارة، وقال إن الدولة تخطىء عندما تترك تلك الأمور لموظفيها ، دون أن تحصنهم جيداً ضد الرشوة واستغلال النفوذ. وقال إن عقلية سائق التاكسى الذى ينقل الركاب والسياح من المطار إلى داخل البلد، هى التى تحكم مناخ الاستثمار والسياحة، كل موظف يعتقد أن المستثمر سواء كان مصرى أو أجنبى لديه أموال يريد أن ينفقها، وينظرون إليه باعتباره مصدراً للمال، وأنه - أى المستثمر - بحاجة إلى الموظف، لذا فإن عليه أن يدفع، وحكى لى عن أحد المسئولين الذى ساومه على إحضار عقد عمل لابنه فى الخليج، مقابل إنهاء موضوع. وقال إن معظم المسؤلين يتعاملون بمنطق تبادل المنفعة، والدولة تتغاضى عن ذلك، وأن المستثمر لايستطيع أن يشكو إلى الجهات الأمنية لأنه يجبر على تبديد وقته بين جهات الأمن والتحقيق والمحاكم.

أخبرنى خليفة أنه اتصل بشقيقه حواس من الخليج، وطلب منه أن ينتظره فى المطار ، وعندما خرج من باب المطار، وجد السائق فقط هو الذى ينتظره، وأخبره السائق أن شقيقه قبضت عليه الشرطة.

كان الدكتور خليفة ينطلق بسرعة تزيد عن المائة والستين كيلومترا فى الساعة، وهى سرعة هائلة. والطريق خال من السيارات، وبعيداً عن المناطق العمرانية، وكانت السيارات الذاهبة إلى القاهرة تحمل الفاكهة والخضراوات والمواشى تسير على الطريق بسرعة كبيرة أيضاً.

مررنا بسيارة صغيرة متفحمة تماماً. الطريق ضيق، ويعمل في اتجاهين لاتفصلهما جزيرة، كما يحدث في الطرق الدولية. اقتربنا من استراحة توقفت عندها بعض السيارات، هدأ الدكتور خليفة من سرعته. توقف بجوار الاستراحة نزلنا . الاستراحة فخمة، الكراسي من البلاستيك النظيف. العاملون من الشباب ، نهضوا متثاقلين ، لاشك أنهم كانوا ساهرين طول الليل، دخلت إلى دورة المياه . دورة المياه قذرة لاتتناسب مع الشكل الجميل للاستراحة، لم تنظف منذ أيام، رائحتها نتنة، غسلت وجهي، وغسل الدكتور خليفة وجهه، اشترينا علب البسكويت، شربنا الشاي والشيشة، ملأ خليفة تنك السيارة بالوقود من محطة الوقود المجاورة. وانطلقنا من جديد.

اقتربنا من إحدى نقط المرور، هدأ خليفة السرعة، كان أحد الضباط يجلس على كرسي ويضع رجليه على كرسي آخر ويغطي رأسه بفوطة، تقدم منا أمين شرطة، وطلب الرخص، أعطاه الدكتور رخصة القيادة ورخصة السيارة، سمح لنا بالمرور بإشارة من يده دون أن يتكلم. بدت على يسارنا أراض منخفضة فيها زرع ونخيل، قصر الباسل، وصلنا إلى حدود القبه، بعد ساعة بالضبط كنا نقترب من منطقة الأهرامات.

كانت الساعة تقترب من الثامنة .

كان الدكتور خليفة يحمل جهازين من التليفونات المحمولة، أخبرني أن أحدهم محلي يعمل في مصر، والآخر يعمل في الخليج، وقال إن المكالمة مع تليفون الخليج تتكلف عشرة جنيهات، وأنه يستخدم كل يوم كارت من فئة المائة جنيه في المكالمات الداخلية، خلاف تليفون المنزل الذي يدفع فيه خمسة آلاف جنيه كل ثلاثة شهور.

وكان هذا الرقم الذي ذكره خليفة باهظاً، وعندما رأى دهشتي، أخبرني

أن المدام تتحدث مع شقيقتها فى القاهرة بالساعات، كما أولاده وبناته لايتركون التليفون قط، ووصل بهم الأمر إلى تقسيم أوقات استخدام التليفون فيما بينهم، ويبدأ التقسيم من الساعة الثامنة صباحاً حتى الواحدة بعد منتصف الليل، وفى أوقات المدارس تنفرد الزوجة بالتليفون من الثامنة حتى الثانية ظهراً.

كما أخبرنى أن أشقاءه يستخدمون التليفون فى اتصالاتهم مع الآخرين، خصوصاً وانهم يسكنون فى بيوت قريبة من بيته.

الدكتور خليفة لديه سبعة من الأولاد والبنات ، أربعة ذكور وثلاث من الإناث . أكبرهم طالبٌ فى كلية التجارة وأصغرهم تلميذة فى الحضانة.

سرنا فى شارع الهرم، الشارع مزدحم ، والسيارات تسير ببطء شديد. صعدنا كوبرى علوى فوق ميدان الجيزة. نزلنا من الكوبرى، سرنا فى شارع نظيف، قادنا إلى شارع آخر، صعدنا كوبرى أكتوبر. سرنا فوقه وفوق القاهرة كلها، أوصلنا الكبرى إلى طريق المطار. وصلنا إلى قسم شرطة الجمعية والساعة تقترب من التاسعة. لم نجد مكان تقف فيه السيارة، بصعوبة تمكن الدكتور خليفة من حشرها بين سيارتين بعيداً عن القسم. نزلنا قسم الشرطة. عند الباب سألنا العسكرى عن وجهتنا، أخبرناه أننا نريد دخول القسم، سألنا عن السبب، أخبرناه، لم يسمح لنا بالدخول. همس فى أذنه الدكتور بكلمات وأشار لى. سمح لنا بالدخول، قابلنا نائب المأمور شاب فى الأربعين برتبة المقدم. وسيم ، يشبه نجوم السينما طول وعرض، استقبلنا مرحباً، أخبرته أننى لواء بالمعاش، وأشرت إلى الدكتور خليفة وقلت:

- الدكتور خليفة أستاذ فى الجامعة.

أضاف الدكتور خليفة:

- ومستشار ثقافي.

تعارفنا ، أعاد نائب المأمور الترحيب بنا، أخبرناه بموضوع شقيق الدكتور، سألنا عن اسمه، أخبرناه، قال إنه فعلاً موجود. ضغط جرسا، جاء عسكرى، طلب أوراق الحجز. وأخبرنا أنه مطلوب فى ثمانية عشره قضية، أرقام القضايا كلها واضحة، خمس قضايا محكوم عليه فيها بالحبس سنتين، وثلاث بالحبس ستة شهور، وعشر بغرامات تتراوح مابين الألف جنيه والعشرة جنيهات.

أخذنا صورة من أرقام القضايا.

طلبنا من نائب المأمور أن نرى حواس . وافق أشار إلى شاب صغير من العاملين معه، وطلب منه أن يسمح لنا برؤية حواس، قادنا الشاب إلى باب حديدى عليه حارسان، نزلنا ثلاث درجات، انفتحت أمامنا ساحة واسعة فيها عدد من الحراس بالأسلحة. الساحة فيها أربعة أبواب حديدية عليها أقفال، على الباب الأول لافتة مكتوب عليها (حجز الأموال العامة)، وبجوارها باب مكتوب عليه، (حجز الأجانب)، وحجرة ثالثة مكتوب عليها (حجز النساء). أما الحجرة الرابعة فهى التى توجه الشاب إليها وفى يده المفاتيح، فتح القفل الكبير، ثم فتح عدة أقفال صغيرة. قبل أن يفتح الباب نطق الشاب اسم حواس، سمعناه يرد من الداخل، طلب منه أن يقترب من الباب، وفتح الباب، خرج حواس،. سبق لى أن رأيته فى القرية، شاب فى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، نبتت لحيته وصارت كثيفة، عانق شقيقه الدكتور خليفة، رأيتهما يبكيان، تعاتبا قليلا، وسمعت خليفة يقول لحواس:

- أنا السبب.

قال حواس أنه لم يأكل منذ أمس، طلب منى حواس أن أعمل كل مافى وسعى ، لأجل أن يبتعد عن المحبوسين معه فى الحجز، وقال إن أفراد عصابة يتزعمها شقى خطر داخل الحجز يفرضون إتاوات على القادمين الجدد، وكبيرهم يحمل مطواة، وزميلاه هدداه بالأمواس والمشارط، مالم يدفع لهم كل مامعه من النقود. وأخبرنى بأنهم استوليا على مائة جنيه كانت معه، وعدته بأننى سأحاول . خرجنا نبحث له عن مطعم لنشترى منه الطعام. لاتوجد مطاعم في هذا الشارع، ذهبنا إلى الميدان، وجدنا مطاعم الفول، اشترى خليفة خبزاً في الأكياس ، وفلافل وفولاً فى كيس بلاستيك . ومخللاً، وباذنجان مقلياً فى الزيت ، وطماطم ، وملح ، وبصلاً وموزاً وبرتقالاً . وضعنا كل هذا فى كيس كبير من البلاستيك ، وعدنا إلى الحجز . وجدنا الحجز مغلقا ، أخبرنا الحارس أنهم أخرجوه إلى سيارة ضخمة تقف خارج القسم .

ذهبنا إلى السيارة ، كانت عبارة عن صندوق حديدى مغلق ، نوافذها عالية ومغطاة بأسياخ الحديد يتعذر إدخال الكيس منه . سائق السيارة كان يقف بجوارها . طلبنا منه أن يوصل الكيس إلى حواس ، تظاهر بالصمم ، وضع خليفة فى يده ورقة من فئة الخمسة جنيهات ، نظر إليها وردها إلى خليفة ، ورفع أصابعه العشرة في وجه خليفة ، أعطاه خليفة العشرة ، بعد أن وضعها السائق فى جيبه قال :

- المفتاح مع زميلى .

ذهب يبحث عنه ، غاب فترة ، عاد وخلفه أحد الأشخاص ، وما أن شاهدنا الشخص الآخر حتى طلب منا بصلف أن نبتعد عن السيارة ، همس السائق فى أذنه بكلمات وهو ينظر إلينا ، اقترب منا وقال بجفاء :

- نعم ؟

أخبره خليفة أنه يريد أن يوصل الطعام إلي شقيقه في السيارة . حك الرجل إصبعيه للدلالة على إبراز النقود . نظر خليفة إلى السائق ، لم يتحرك، اخبر الشخص أنه أعطى السائق عشرة جنيهات . قال ببرود :

- مليش دعوة .

أعطاه خليفة ورقة الخمسة جنيهات ، رفضها . أعطاه العشرة ، تناول منه الكيس ، فتح الباب الخلفى ، وأدخل الكيس ، سألناه عن الجهة التى سيذهبون إليها ، اخبرنا أنهم سيذهبون إلى إدارة تنفيذ الأحكام والمديرية ، وسيعودون آخر النهار بعد التحقق من الأحكام الصادرة ضدهم ، كان مع حواس فى السيارة ستة آخرين .

تحركت السيارة .

أخذنا صوراً بأرقام القضايا ، تبين أن سبعة منها فى مركز الدلنجات . اثنين فى القاهرة . ستة في مركز إسنا وثلاثة فى بنى مزار .

فكرنا فيما ينبغى عمله في تلك القضايا المتناثرة فى جميع أنحاء الجمهورية .

كنا واقفين أمام بوابة قسم الجمعية .

اتفقنا على الذهاب إلى المحاكم الصادرة منها الأحكام والنيابات المقيدة فيها القضايا لبيان موقف حواس منها ، وبينما نحن نتأهب للذهاب إلى حيث تقف السيارة ، وقف وسطنا شخص لا نعرفه ، واخبرنا أنه يعرف أحد المحامين لديه تعاملات مع عدد كبير من المحامين فى أنحاء الجمهورية ، وأنه يمكنه أن يحدد موقف تلك القضايا ، كنا فعلا نحتاج إلى محامى فى كل مركز من المراكز المقيدة فيه القضايا . سألناه عن عنوان المحامى فسكت ، ناوله الدكتور خليفة عشرة جنيهات . رفض قائلا :

- ميت جنيه .

أعطاه خليفة ورقة من فئة العشرين جنيه . رفضها أيضا ، أخذت منه

الورقة . أخبرته أننا لسنا فى حاجة إلى خدماته ، وأننا يمكن أن نتدبر أمورنا . تركناه وابتعدنا ، ولكنه ظل يرقبنا .

ركبنا السيارة ، واتجهنا إلى المحكمة ، دخلنا فى مكتب يعج بالموظفين ، كلما سألنا أحدهم تهرب منا ، أخيرا وافق أحدهم على أن يلتفت إلينا ، أخذ منا الأرقام ، وطلب خمسمائة جنيه . سأله خليفة .

– لماذا ؟

سأكشف عن الأرقام فى سجل القضايا ، وأنهى لكم كل الإجراءات ، بما فيها أتعاب المحامى الذى سيكتب باسم المتهم طلبا ويرفعه إلى رئيس النيابة .

– رفضنا .

حاول الموظف أن يخفض المبلغ عندما قابلنا شخصاً يرتدي الملابس الكاملة ، سألناه عن الموظف المختص بالكشف عن القضايا . ضحك من جهلنا ، سألنا عن هويتنا . أخبرته ، وأشرت إلى الدكتور خليفة وقلت :

– الدكتور خليفة أستاذ فى الجامعة .

أضاف الدكتور خليفة :

– ومستشار ثقافى .

قال الرجل : تفضلا .

سرنا خلفه ، دخل من صالة إلى صالة سلمتنا إلى مكتب يقف عليه عسكرى ، بمجرد أن شاهد الرجل نهض واقفا وأدى له التحية العسكرية ، دخل الرجل إلى مكتب مكتوب عليه مدير النيابة . دخل مكتبه وضغط جرسا ، جاء العسكرى الذى كان عند الباب ، طلب منه أن يحضر لنا شايا ، حكينا له عن قصة حواس . نظر فى الكشف ، وقال من ناحيتنا سنبحث عن القضايا التى عندنا ، جاء موظف أعطاه الأرقام . كشف عنها وتبين أنها تخص أشخاصا آخرين ، طلبنا منا بيانا بذلك . وافق . شكرناه ، حاولنا

الخروج ولكنه أصر على شرب الشاى ، وبدأ الرجل يزاول عمله فى التأشير على جبل من الأوراق وضعها أمامه أحد الموظفين ، شربنا الشاى وخرجنا من عنده وذهبنا إلى مكتب الموظف الذى طلب منه مدير النيابة أن يعطينا البيان .

المكتب عبارة عن غرفة واسعة اصطفت فيها أعداد كثيرة من المكاتب فى صفوف يفصلها ممر لا يكاد يكفى لمرور شخص واحد ، ويجلس عليها موظفون وموظفات .

جلس الموظف على أول مكتب ، سألنا عن المتهم أخبرناه أنه فى الحجز ، طلب منا أن نوكل أحد المحامين ليتقدم بطلب إلى مدير النيابة ، قال الموظف إن أى محام يمكنه أن يتقدم بالطلب ، وبالفعل أشار الرجل إلى أحد المحامين ، ذهبنا إليه ، أخبرناه بالقصة ، طلب خمسين جنيها وأعطيناه عشرين . فتح حقيبته ، أخرج أوراقاً بيضاء وكتب الطلب ، ثم دخل إلى مدير النيابة الذى كنا عنده ، وعاد ومعه التأشيرة ، أعطاه للموظف . كانت القضية الأول تخص امرأة تعدت على طبيبة والثانية تخص سائقاً صدم شخصاً بسيارته وأحدث به عاهة مستديمة ، أى أن القضيتين لا تخصان حواس . وقع الموظف بإمضائه ، وادخل الطلب إلى مدير النيابة ليعتمد التوقيع . وعاد معه الطلب ، وضع عليه ختم شعار الدولة وأعطاه لنا ثم وقف ينظر إلى الدكتور خليفة ، ناوله خليفة ورقة مطوية من فئة العشرين جنيها وقربها من شفتيه ولثمها ، وحمد الله ، وخرجنا من المحكمة .

وبذلك تخلصنا من أول قضيتين .

★★★

رن التليفون المحمول . رفعه الدكتور خليفة على أذنه ، وسمعته يقول :

- أهلاً يا دكتورة .

- والدكتور عامل إيه .

- ..

- مش معقول .

- ...

- ياه !

- ..

- من أمتى .

- ..

- لأ . أنا ممكن أوصى اللجنة . اللجنة توصل إن شاء الله فى أغسطس . وأنا عضو فيها .

- ..

- هو تعبان فى السعودية ؟

- ..

- المهم انتى عاملة أيه وصحتك عاملة إيه ؟.

- ..

- لا . لا . هو مش معقول يعمل كده . دى علاقة زمالة ، ومش ممكن توصل لكده . أنا عارفه كويس ، هو صحيح بيضعف قدام الجنس اللطيف . لكن مش ممكن توصل لجواز عرفى . لكن اطمئنى فى السعودية مفيش اختلاط ، الدكتور هناك يعلم الطالبات من وراء حجاب .

- ..

- لازم نشوفك . أنا حاليا فى القاهرة . فيه موضوع بسيط بمجرد ما يخلص أشوفك .

- ...

- فى الهرم .

- أيوه عارف الهرم كويس .

- زى ما أنتى عايزة . أنا متفرغ لك بعد ساعتين .

وأغلق التليفون ونظر فى الساعة .

ابتسم وقال :

- كل واحد فى حال .

★★★

كانت الساعة تقترب من الواحدة ، سرنا بالسيارة فى اتجاه الشارع ، وبعد ربع ساعة كنا نقترب من دار القضاء العالى . انحرفنا يمينا ، ركنا السيارة في أحد الجراجات ، سرنا على أقدامنا مسافة يسيرة عندما طالعتنا لافته ضخمة لمكتب محامي ، دخلنا . قابلنا الكاتب ، سألناه عن المحامى ، قال :

الباشا فى المحكمة .

أخبرناه عن حكاية حواس . قال :

- بسيطة .

ضغط على التليفون المحمول الذى فى يده ، ثم خرج بعيدا عنا وتكلم مع شخص ، وبعد أن انتهى عاد ، أخبرنا أن الباشا فى الطريق ، انتظرناه ، انشغل عنا الكاتب بالحديث مع امرأة كان يجالسها ، وبعد ربع ساعة وصل المحامى ، فى الخمسين من العمر ، حكينا له حكاية حواس ، أعطيناه الكشف . نظر فيه ، وقال :

- طبعا الموقف حرج . ومن الممكن أن تنفذ عليه بعض الأحكام .

- البركة فيك .

لم نخبره عن شخصياتنا وهو لم يسألنا ، سألنا المحامى عن حواس ،

اخبره خليفة أنه محجوز فى قسم الجمعية . قال إننا سنحتاج إلى محامين فى الدلنجات وبنى مزار وإسنا . وقال إنه من الممكن أن يتولى المهمة كلها نظير ثلاثة آلاف جنيه ، ساومناه حتى وصل المبلغ إلى ألف .

مد يده إلى التليفون ، فتح أجندة كانت على مكتبه ، وبدأ يتحدث مع بعض المحامين ، وبدأ يملى أرقام القضايا . وبعد أن فرغ نظر فى ساعته وقال :

- الساعة التاسعة مساء نتقابل .

أعطاه خليفة خمسمائة جنيه ، أخبرناه أننا سنكون عنده في المساء ، وخرجنا من عنده .

كانت الساعة قد أصبحت تمام الثانية . ولم نكن قد تناولنا شيء من الطعام . دخلنا مطعم فى شارع ٢٦ يوليو ، أكلنا . انتقلنا إلى مقهى بجوار المطعم شربنا الشاى والشيشة ، حجزنا سريرين فى فندق قريب ، وبدأنا نستعد للذهاب إلى قسم الجميعة . وعندما أصبحنا فى شارع رمسيس وجدنا السيارات لا تتحرك من فرط الزحام والفوضى . كانت السيارات تسير مسافة صغيرة وتتوقف ، وتسير وتتوقف . حتى وصلنا إلى ميدان رمسيس بعد نصف ساعة كاملة ، وبعد أن عبرنا الميدان بدأت السيارات تتحرك قليلا ، حتى وصلنا إلى مدخل العباسية وبدأت حركة السيارات تبطيء مرة ثانية ، أخذنا المسافة إلى قسم الجمعية في ساعتين كاملتين ، وعندما وصلنا أخبرونا أن السيارة لم تصل ، قابلنا نائب المأمور ، أخبرنا أنه عندما يتحدد موقف حواس من القضايا فإننا يمكن أن نأخذه معنا .

أخبرت نائب المأمور عن شكوى حواس من حجزه مع أرباب السوابق ، وأن أحدهم يحمل مطواة بين ملابسه يهدد بها باقى المحجوزين ، ومعاونوه يحملون الأمواس ويساعدون المجرم الكبير على فرض الإتاوات علي المحجوزين .

والواقع أن موضوع حجز المجرمين من الموضوعات الشائكة لدى وزارة الداخلية ، فالوزارة فى وضع لا تميز فيه بين المجرمين وطبقاتهم ، وأن الشرطة ليس لديها الوقت الكافى لهذا الترف الذى يطالب به صغار المحجوزين للابتعاد عن العتاة ، وهى معادلة صعبة لأن كل محجوز يعتقد أنه فى وضع أحسن من غيره وأنه يريد لنفسه مميزات تنبىء عن علو مركزه . وأنه لا يمكن لقسم الشرطة أن يجهز لكل محجوز غرفة خاصة به ، مزودة بسرير وأدوات الضيافة ، وكأنه فى فندق . بالطبع لم يذكر لى هذا المسئول، ولكننى أعرف أن هذا الأمر يعد من مشكلات العمل الرئيسية فى أقسام الشرطة ، هذه المشكلة بالذات تناقشها مراكز الأبحاث أكاديمية الشرطة منذ أن أنشئت .

ومع ذلك فقد أخبرت نائب المأمور أن المسألة أبسط من البساطة ذاتها لأنه من سلطة الشرطة تفتيش الموجودين فى الحجز ، وتجريدهم من الأسلحة والأمواس ، وتستطيع فرض النظام داخل الحجز . وهذا لا يحتاج إلى إمكانيات ولا أموال .

ونحن نتحدث مع نائب المأمور دخل أمين شرطة ومعه أوراق وقال إنه عاد بالمحجوزين من المديرية وإدارة تنفيذ الأحكام ، وأنه وجد قضية أخرى أضيفت إلى قضايا حواس . ناولنى الورقة ، كانت حكما الحبس لمدة سنة صادرة من المحكمة .

★★★

فى تمام التاسعة كنا أمام مكتب المحامى . وجدناه فى مكتبه ، بمجرد أن شاهدنا رحب بنا ، وأخبرنا أنه تلقى فاكسات من كل الجهات التى أرسل إليها ، وتبين أن كل القضايا التى استعلم عنها لا تخص حواس . أخرج من درج مكتبه الأوراق ، وناولنى إياها وبالفعل تبين أن كل القضايا مقيدة ضد أشخاص آخرين . وأن الأوراق الأصلية ستصله الليلة كلها وأن

بعضـها سيصل فى قطار الصباح القادم من الصعيد . وطلب أن نقابله الساعة التاسعة صباحا لأجل أن نأخذ أصول الأوراق الصادرة من المحاكم.

★★★

فى الصباح ذهبنا إلى المحامى حسب الموعد ، وجدناه قد جهز الأوراق المطلوبة ، وتبين أن القضايا كلها مقيدة ضد أشخاص غير حواس عدا قضيتين فعلا ضد حواس .

أخبرنا المحامى بالقضية التى فيها حكما بالحبس ، كان الدكتور خليفة يعرف ظروف تلك القضية . فهى تخص شركة لتوريد مواسير الرى بالتنقيط التى تستخدم فى الحقول ، تعاقد حواس مع تلك الشركة على حفر بئر وتركيب المواسير فى الأراضى التى يستصلحها ، وبعد الحفر واستخراج المياه خلال التجربة حدث عطل فى طلمبة السحب من الأعماق ، أخرجوها ، وعند فوهة الماسورة سقطت الطلمبة فى البئر عشوائيا وتعذر إخراجها . فضلا عن انسداد الماسورة ، ماطلت الشركة . وساوموه على نصف التكاليف، كان حواس فى عجلة من أمره فوافق على أن يكتب شيكاً بالمبلغ . وأحضروا طلمبة جديدة بدلا من تلك التى سقطت فى البئر . وعندما أفاق حواس لنفسه عرف أن سقوط الطلمبة حدث بفعل عمال التركيب التابعين للشركة ، ورفض أن يدفع قيمة الطلمبة ، وقامت الشركة بتقديم الشيك للمحكمة التى حكمت بحبس حواس لمدة سنة .

ذهبنا إلى مقر الشركة ، قابلنا صاحبها ، عاملنا بجفاء عندما عرف أننا جئنا لنفاوضه حتى لا يدخل حواس السجن . وأصر على أن يتقاضى مبلغ الشيك كاملا بالإضافة إلى الفوائد وأتعاب المحاماة ، كان مبلغ الشيك خمسة عشر ألفا من الجنيهات ، أصبح بعد حساب الفوائد عشرين ألف جنيه وأضاف إليها صاحب الشركة ألفين أتعاب المحاماة . دفعها الدكتور

خليفة ، حصلنا على إقرار مخالصة حرره محامى الشركة فى وجودنا ، ذهبنا به إلى مكتب المحامى العام المختص . وأصدر أمرا فى تمام الساعة الرابعة بعد العصر بإيقاف تنفيذ العقوبة .

تسلمنا القرار ، ذهبنا إلى قسم الجمعية . وجدنا نائب المأمور فى مكتبه. سلمناه قرار إيقاف العقوبة ، أخبرنا أن مباحث تنفيذ الأحكام أرسلت قضية أخرى محكوم فيها الحبس ضد حواس .

سلمناه باقى الأوراق ، وكلها مقيدة ضد آخرين .

بعد أن فحص الأوراق أبلغنا أن حواس سيتم ترحيله إلى مركز الشرطة المولود فيه والمستخرجة منه بطاقته الشخصية حسب قضية الحبس الجديدة، وقال إن عملية الترحيل ستتم بمعرفة إدارة الترحيلات فى قطار مخصص لترحيل المساجين وغيرهم من المحتجزين على ذمة القضايا . وأخبرنا أن الترحيل يتم يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع . كنا فى يوم السبت .

أثناء تواجدنا بقسم الجمعية انفرد أحد أمناء الشرطة بالدكتور خليفة وأخبره أن يمكن إخلاء سبيل حواس من قسم الجمعية لو أحضرت الأوراق التى تثبت أن الحكم الصادر ضده قد تمت المعارضة فيه ، أخبرنى الدكتور خليفة بذلك .

اتصل الدكتور خليفة بأحد المحامين وشرح له المشكلة ، كان المحامى هو الذى ترافع فى تلك القضية وهى تبديد منقولات الزوجية .

أخبرنى الدكتور خليفة أن حواس سبق له أن خطب فتاة كان يحبها ، ثم تزوجها ، ومكثت فى بيته شهرا ، وفى أحد الأيام عاد حواس إلى بيته ولم يجد زوجته ، أخبروه أن أمها أخذتها إلى بيتها ، حاول أن يرجعها ولكن أمها رفضت وقالت له :

- لازم بنتى يكون لها بيت من بابه .

لم تكن ظروف حواس تسمح بتخصيص بيت مستقل لزوجته . حاول أن

يقنع حماته أن الأمر بسيط وأنها بالفعل لها شقتها فى بيت العائلة الكبير ، وأن إبنتها ستتعود على زوجات إخوته ووالدته ، ولكنها رفضت وأصرت على بقاء إبنتها عندها حتى تستقل ببيت بمفردها . عندما عاد الدكتور خليفة من الخارج فى أجازة الصيف قبل الماضى أخبروه بالمشكلة ، لم يتحمل خليفة فكرة أن تأخذ حماة شقيقه ابنتها من بيتها ، وأصر على تكليف محام برفع دعوى طاعة على زوجة شقيقه ، وفى المحكمة قررت الزوجة أنها تسكن مع أربع عائلات . كانت الزوجة خلال تلك المدة رفعت دعوى على زوجها حواس بأنه بدد منقولات الزوجية . وكان حواس قد شرع فى خطبة فتاة غيرها . طلبت الزوجة الطلاق . أصر الدكتور خليفة على أنها إذا كانت تريد الطلاق فإنها ينبغى ألا تأخذ أى شئ ، لم يكن الدكتور خليفة يعلم أن تبديد منقولات الزوجية يوجب الحبس ، وعلى ذلك حكمت المحكمة بحبس الزوج حواس . بعدها تزوج حواس من الفتاة التى خطبها ، وترك الزوجة الأولى تنعى حظها العاثر .

★★★

أخبرنى الدكتور خليفة بما قاله له أمين الشرطة أنه يمكن تأجيل ترحيل شقيقه إلى الصعيد وإخلاء سبيل شقيقه من قسم شرطة الجمعية بمجرد وصول ورقة تفيد أن الحكم تمت المعارضة فيه .

كان خليفة على استعداد ليفعل أى شىء فى سبيل عودة شقيقه معه فى السيارة ، لأسباب عديدة ، فقد كان حواس أصغر أشقائه ، وهو الأثير لدى والدته المسنة التى تتهم خليفة بأنه السبب فى أن حواس لم يشق طريقه فى مجال التعليم بسبب تفرغه لاستصلاح الأراضى ، وأنهم - أى أخوته - هم الذين جعلوه لا يلتفت إلى دروسه ، وأرغموه على العمل معهم فى استصلاح الأراضى . كل هذا سبب ضغطا عصبيا بالغ القسوة على خليفة . كان خليفة على استعداد لفعل أى شىء كى يطوع القانون لخدمته ، وهو ما جعله

يمنح أمين الشرطة الذى سرب له تلك المعلومة مبلغ خمسين جنيها ، كما وعده بالمزيد لو هو أخبره بكيفية إتمام هذا الأجراء .

أخبره أمين الشرطة أن المأمور رجل طيب ، ويحتاج إلى أن يتكلم معه أحد فى هذا الموضوع ، وأنه - أى أمين الشرطة - لديه قريب يعمل فى وظيفة حساسة يمكن أن يتحدث معه في هذا الوضع وسيطلب منه أن يتكلم مع المسئول . وأن هذا قد يكلفه حوالى أربعمائة جنيه ، وعده الدكتور خليفة أن يعطيه المبلغ لو أمكنه أن يساعد فى خروج حواس معه .

عندما أخبرنى خليفة بما قاله أمين الشرطة ، طلبت منه أن يتريث فى مثل هذه الأمور ، وأنه من الممكن له أن يتورط فى قضية عرض رشوة لو ساير هؤلاء .

طلبت من المأمور أن يمكن الدكتور خليفة من رؤية شقيقه ، وافق على الفور ، أنفرد به الدكتور خليفة أخبره حواس أنه سيتم ترحيلهم إلى الصعيد فى القطار الذى يتحرك يوم الاثنين ليلا .

★★★

تذكر الدكتور خليفة أن له صديقاً يعمل فى مديرية أمن القاهرة . وعلى الفور اتصل به طلب منه صديقه أن يزوره فى مكتبه ، ولما كنت أنا لا أميل إلى دخول مكاتب المسئولين خصوصا بعد إحالتى للمعاش ، فقد طلبت من الدكتور خليفة أن يذهب هو لزيارة صديقه .

انتظرته أنا على مقهى قريب من مديرية الأمن .

عندما عاد رأيته متهللا . وقال :

- خلاص . الموضوع خلص .

وأخبرنى أن صديقه رحب به ، واخبره أنها حكاية بسيطة وأنه - أى صديقه - سيأمر على الفور بأن يقوم قسم الجمعية بإطلاق سراح شقيقه على أن يقوم الدكتور خليفة بإيداع الأوراق التى أحضرها من المحاكم لدى

مأمور القسم الذى قابلناه فى القسم ، وقال إنه كان سيأمر بإطلاق سراح حواس لولا أن المأمور غير موجود الآن في مكتبه . كان خليفة مبتهجا من مقابلة صديقه الضابط فى مديرية الأمن . وقال إنه لم يكن يعرف أن ضباط الشرطة متواضعون وطيبون على عكس ما يشاع عنهم فى أجهزة الإعلام ، وأن الرجل استقبله ببشاشة . وأخبرنى خليفة أن صديقه الضابط قال له :

لو كنت وصلت عندى من الأول كنا وفرنا كل شىء .

الحقيقة أن الدكتور خليفة حسن النية وطيب ، ويصدق ما يقال له على سبيل المجاملة ، ولا يعرف أن العمل فى الأمن اختصاصات ، ولكل ضابط اختصاصاته التى لا يمكن لها أن تتعارض مع اختصاصات أحد ، كما أن كل ضابط يمارس اختصاصه بمنتهى الموضوعية ولا يقبل أن يتدخل أحد فى اختصاصه ، وأن ضابط الأموال العامة لا دخل له بضابط الترحيلات ولايمكن له أن يمنع ترحيل متهم أو أن يؤجله . وأفهمته أن صديقه الضابط يجامله بالكلام ، ولكن خليفة صدّق أن بإمكان صديقه أن يطلب من مأمور قسم شرطة الجمعية أن يمنع ترحيلّ شقيقه ويخلى سبيله من القسم .

نهض خليفة واقفا وقال :

– نروح لمأمور قسم الجمعية ونخبره إننا من طرف .. (الضابط صديقه).

نظرت فى وجه الدكتور خليفة فوجدته جادا ولا يهزل ، ولم أشأ أن أطفىء فرحة الأمل التى ظهرت على وجهه . وأيقنت أن الدكتور خليفة راح ضحية نوبة الفشر التى تنتاب بعض المسئولين ، ويتصورون إن سلطاتهم تتجاوز سلطات الآخرين . وكنت أعرف أن نوبة هذا النوع من الفشر تزدادا عندما يكون محدثهم مثقفا أو حاصلا على درجات أعلى كالدكتوراه . أو يعمل فى وظيفة محترمة كأستاذ الجامعة أو أعضاء السلك السياسى وغيرهم من ذوى الوظائف الراقية .

من الصعب على أن أذهب إلى المأمور الذى قابلناه أو أى مسئول ،

وأخبره أنني من طرف شخص آخر ، كما أنه من الصعوبة أيضا أن أتناقش معه في موضوع اعرف من واقع خبرتي استحالة تنفيذه أو تعريضه للمسئولية ، أو حتى على الأقل أشعر أنني من الممكن أن أتسبب في مساءلته لو أراد هو أن يجاملني ، فلن أدعه يجاملني على حساب عمله ووظيفته .

أخبرت الدكتور خليفة بأن ما قاله له صديقه الضابط يعد من قبيل - فض المجالس - وأخبرته أنه لو كان يريد فعلا أن يجامله فليذهب معه إلى مأمور قسم الجمعية ، وأنا سأنتظر في السيارة .

نظر إلى خليفة باستغراب . وعندما أخبرته أن التعليمات لابد من تنفيذها ، أخبرني أن صديقه طلب منه أن يكلمه من مكتب مأمور قسم الجمعية .

★★★

رن التليفون المحمول في يد خليفة . رفعه إلى أذنه وقال :

- أهلاً . إزيك يا ماجد ؟ . عامل إيه وإخوتك عاملين إيه ؟

- ..- أنت بتذاكر يا بابا . ؟

- ..

- واخوتك ؟

- ..

- ماما عندك ؟

- ..

- أكلمها .

- إزيك . عامله إيه ؟

- ..

- لسه والله شويه . هو في الحجز . وبنحاول إننا نطلعه ، لكن يظهر

إنهم هيرحلوه للصعيد .

– ..

– فلوس كام ؟

– ..

– ومين قاله بيع ؟

– ..

– أنت قلتى له بيع ؟

– ..

– أنت مالك انتى ومال البيع والشرا ، هو إحنا فقرنا لما ها نبيع حاجتنا . بقرتين وعجلين بست آلاف جنيه . لازم البيعة دى ترجع . وتردى الفلوس .. أنا مش ها أبيع .

المرة الأولى التى أسمع خليفة فيها يتحدث بعصبية .

★★★

شعرت أن خليفة يريد أن يجرب ما أخبره به صديقه الضابط ، حتى يكون قد فعل كل ما فى وسعه ، ولا يشعر أنه قصر فى أمر خروجه .

كان خليفة يريد أن ينقذ شقيقه بأى شكل ، كان خليفة مقتنعا بأن بإمكان حواس أن يخرج من الحجز بمجرد أن يقدم ما يثبت قيامه بدفع الكفالات المطلوبة والمعارضة فى تلك الأحكام . وكان ينظر إلى عملية ترحيل شقيقه بأنها تعسف لا طائل منه غير تعذيب الناس . ولم يكن مقتنعا أن عملية ترحيل شقيقه إلى محل إقامته لأجل أن يتم الكشف فى صحيفة سوابقه ويتم الإفراج عليه من هناك . فكرت أنا فى ما قاله لى الدكتور خليفة، فعلا لا يوجد هناك ما يمنع من إخلاء سبيله من أى مكان ويكشف عن صحيفة السوابق بالكمبيوتر ، فإذا وجد أنه غير مطلوب فى قضايا أخرى فلا يوجد ما يمنع من إخلاء طرفه .

أخبرنى الدكتور خليفة أنهم في الخليج يطبقون النظم الإليكترونية فى فحص المجرمين ، بمعنى أن كل شخص لديه رقم قومى توضع فيه كل بياناته بما فيها الأحكام الصادرة ضده ، وقال إنه فى المطار بمجرد وضع الاسم ورقم الجواز تظهر على الشاشة القضايا والأحكام إذا كانت موجودة فى ملفه ، وقرارات المنع من السفر . أخبرته أن هذا فعلا مطبق عندنا ، وأن أجهزة الكمبيوتر الموجودة في الداخلية حديثة كما يجرى تحديث بياناتها دوما ، غير أن التعليمات واللوائح لم تواكب التقدم التكنولوجى وبقيت كما هى .

صعدنا فوق كوبرى أكتوبر للذهاب إلى قسم الجمعية .

بعد أن عبرنا فوق ميدان رمسيس بدأت حركة السيارات أمامنا تقل حتى توقفت تماما ، ولاحظنا أن السيارات القادمة من الاتجاه الآخر قد اختفت تماما ، وبعد فترة من التوقف رأينا سيارة شرطة يعقبها ونش يسير فى الناحية الأخرى فى نفس الاتجاه الذى نسير فيه .

مع طول فترة الوقوف فوق الكوبرى شعر قادة السيارات على الكوبرى بالملل ، وفتحوا أبواب سياراتهم وخرجوا منها ، كانت بجوارنا سيارة فخمة وجديدة فيها فتاة شابة شعرها أصفر ، كانت قلقة وتلتفت حولها فى عصبية، ومن آن لآخر تتحدث فى تليفون محمول فى يدها ، أسندت جسدها على عجلة القيادة ، وأخرجت علبة سجائر وبدأت تدخن . سيارة أمامها خرج منها شابان ، بدءا فى معاكستها ، كانت الفتاة تبتسم أحيانا وتدفن وجهها فى عجلة القيادة أحيانا أخرى ، وبدأ الشابان فى الاقتراب منها ، كان خليفة لا يزال يشرح لى ما يحدث فى الخليج . وقال إنهم هناك أخذوا من أوروبا كل ما وصلوا إليه من تقدم . وقال إنك لا ترى عسكرى مرور واحد فى الخليج . ولكن توجد إشارات إليكترونية تعمل آليا ، وأن المخالفات تسجل تلقائيا ، وعندما تعيد تجديد رخصة السيارة تدفع كل المخالفات .

أما إذا كانت المخالفة يمكن إزالتها فإنه يتم إزالتها فى الحال وبصرامة ، بمعنى أنه لو كان فى السيارة فوانيس مخالفة فإنه يتم إزالتها فور ضبطها .

رأينا الفتاة تضحك ضحكة خليعة مع الشابين ، خرجت من سيارتها وجلست على مقدمتها كاشفة عن سيقان مرمرية ، أثار تصرفها صاحب السيارة التى خلفنا ، وكان ملتحيا فى الأربعين من عمره ، وسمعناه يقول :

- أستغفر الله العظيم . أعوذ بالله .

خرج من السيارة ، كان يرتدى جلباباً ، ذهب إلى الفتاة وتحدث معها ، ورأيت الشابين يتركان الفتاة ، وبعدها سمعناه يتكلم مع الفتاة قائلا :

- ألا تعلمين أن التبرج حرام ؟

لم ترد عليه ، وسألها :

- أين ولى أمرك ؟

لم ترد عليه الفتاة .

- ألم يشاهدك وأنت تخرجين هكذا ؟

لم ترد عليه .

- لماذا لا تسترين نفسك ؟

لم ترد عليه .

- ألا تشعرين بالخجل ؟

لم ترد .

- ألا تعرفين أن المتبرجات يعذبهن الله فى جهنم ؟

لم ترد

- لو كنت محجبة لما تطاول عليك هؤلاء .

لم ترد .

- ألا تخجلين من نفسك ؟

وضعت الفتاة يدها في وسطها ، وهى لا تزال خارج سيارتها وقالت :

- من إيه يا نن عين أمك ؟ هو أنا عملت حاجة غلط ؟ أنت عايز إيه بالضبط ؟ تحب أركب معاك العربية ؟

تركب معاى . تعالى خذ لك لفة .

وأشارت إلى باب سيارتها المفتوح .

بهت الرجل ، ولم يرد ، وهو ما جعلها تستطرد :

- إتفضل يا سيدنا خش عربيتك أحسن لك .

ورأينا الرجل ينسحب بهدوء إلى سيارته ، ولم ينطق بكلمة واحدة ، وبعدها سمعنا ضحكاتٍ مجلجلة تنطلق من السيارات المجاورة . عندما دققت النظر في وجه الفتاة ، وجدتها تزيد عن الثلاثين ، ووجهها ملىء بالبثور . ضحكنا مع الضاحكين .

وبدأنا نشعر بالملل . غير أن الدكتور خليفة لم يتوقف وقال إن الوازع الديني عندنا فى تزايد مستمر ، إلا أن الحكومات العربية فى الخليج تعمل بطريقة غير مباشرة على إخماد هذا الوازع . بل وتعمل تلك الحكومات على تنحية الجانب القومي فى التاريخ .

سألته مستغربا :

- صحيح ؟

- صحيح .

وأخبرنى أن الجامعات هناك بدأت فى تقليص أقسام اللغة العربية فى كليات الآداب ، وبدأت تغير أسمائها ، وأطلقت عليها أقسام الحضارة والثقافة والتراث ، كما أنها خفضت عدد ساعات تدريس اللغة العربية من مائة وأربعين ساعة إلى سبعين ساعة . وجعلت لغة التخاطب داخل الجامعات هى اللغة الإنجليزية حتى فى الأقسام التى تدرس الأدب العربى . كما بدأت فى تطبيق نظام خاص لتطوير الأداء الجامعى . وأسندت تلك

العملية إلى لجان برئاسة أجانب أحضرتهم من الولايات المتحدة الأمريكية ، وأسندت إليهم عملية التطوير ومراجعة .

مناهج التاريخ واللغة العربية، وقال إنها منعت كل ما من شأنه نبذ الحضارة الغربية، أوصت تلك اللجان بتقليل الحديث عن الجهاد والاستعمار والاحتلال والإشارة دائماً إلى أهمية الغرب من ناحية الحضارة والمدنية.

كما أخبرني الدكتور خليفة أن طبقاً للتوجيهات الأمريكية فقد بدأت بعض دول الخليج في إسناد بعض الوظائف القيادية إلي المواطنات الخليجيات المتحررات ليصبحن قدوة في تحررهن للأخريات. وقال إن تواجد القوات الأمريكية تكثف بصورة غريبة، وقال إنه يرى القوات في الشوارع وأمام المحلات الكبرى، وقال إن دول الخليج كلها تعتمد على أمريكا في حمايتها.

وشعرت أن حديثه بدأ يميل إلي الخطابية، حاولت تغيير الحديث، سألته عن السر الذى من أجله يتزوجون أكثر من واحدة عندما يتقدمون في السن، فقال إن الطب الحديث ساعدهم على تجاوز مشكلة السن، وإن بإمكان الواحد منهم أن يصبح في فحولة شاب في العشرين عن طريق الطب الحديث والأعشاب المجلوبة من الصين ودول شرق آسيا. سألته بلهفة:

– كيف؟

– باستخدام الفياجرا وما بعدها.

سألته عن حرية شراء الفياجرا فأخبرني أنها تصرف هناك بتذاكر طبية، وتذكرت أنني فعلاً ينبغي أن أجرب هذا الدواء السحري.

وبدأت السيارات تطلق نفيرها للتعبير عن الشعور بالملل. بعد ساعة بدأت السيارات تتحرك ببطء .

عرفنا أن إحدى السيارات المسرعة فقد سائقها السيطرة على فراملها فانطلقت عبر سور الكوبري وهوت من أعلى وتهشمت تماما بمن فيها.

وعندما وصلنا إلى مكان الحادث وجدنا سور الكوبرى قد انهار تماما ووقفت بالقرب منه سيارة شرطة، وكان الونش يحاول رفع إحدى السيارات التى اصطدمت بسيارة أخرى أمامها بعد أن فقد سائقها شعوره وهو يشاهد السيارة تهوى من أعلى الكوبرى.

★★★

وصلنا إلى قسم الجمعية، بقيت أنا فى السيارة ودخل الدكتور خليفة، عاد بعد دقيقتين، وأخبرنى أن المأمور أخبره أنه لا يعرف الاسم الذى ذكره، كما أن أحداً لم يتحدث معه فى هذا الموضوع اطلاقا. وأن حواس تم ترحيله إلى قسم الخليفة.

كنا فى الساعة الثامنة مساء يوم الأحد.

سألنى الدكتور خليفة عن قسم الخليفة، أخبرته أنه فى القلعة قال لى أنه لا يعرف كيفية الوصول إلى القلعة من مصر الجديدة، أخبرته أن يسير فى الاتجاه الذى جئنا ومنه سلكنا طريقاً يقودنا إلى الشارع المؤدى إلى طريق صلاح سالم، ومنه وصلنا إلى القلعة، واخترقنا الميدان المتعرج ووجدنا أنفسنا وسط مبان أثرية يتوسطها قسم الخليفة..

المكان الذى يتم منه ترحيل المطلوب ترحيلهم خلف قسم الخليفة، أوقفنا السيارة بالقرب من القسم، منعنا صول فى يده دفتر من الوقوف، بعد مداولات معه وافق على وقوف السيارة بجوار القسم نظير مبلغ لم يحدد بعد.

طفنا حول السور الحجرى للقسم. وصلنا إلى مبنى قبيح مشيد بالأحجار الجيرية منذ عهد المماليك من المبانى الأثرية، ويتخلله بابان حديديان. يقف على كل بابا منهما شابان يرتديان الملابس الرسمية السوداء وفى أيديهم الأسلحة الآلية، ورأينا أعداداً من الواقفين بالقرب من الباب وبينهم سيدات وأطفال من مختلف المستويات.

بعضهم يتحدثون مع بعض رجال الأمن المنتشرين في تلك المنطقة. سألنا عن المسئول عرفنا أنه سيصل حالا، وفجأة وجدنا أحد المخبرين بملابسة المدنية وفى يده عصا وبدأ يمنعنا من الوقوف بالقرب من الأبواب، ومن كان يتوسم فيه تحمل الضرب كان يضربه، وكان يصيح بصوت مرتفع:

– مش عايز ولا بنى آدم هنا.

عندما أقترب من رجل عجوز ضربه بالعصا وعلى الفور ابتعد الواقفون. وأنا وخليفة من بينهم. جلسنا على مقهى فى الناحية المقابلة من الشارع. كان المقهى مزدحما بالرواد، على عكس كل المقاهى فى القاهرة رواده صامتون ولا يتكلمون، كما لم يكن به طاولة أو دومينو، كل عيون الرواد تجاه الباب الحديدى.

كنا ننتظر وصول رئيس الترحيلات لأجل أن نعرف الموعد الذى سيتم فيه الترحيل.

أخبرنى الدكتور خليفة أن أحد الأشخاص من الواقفين أمام الترحيلات أخبره أنه يمكن له أن يسلم الأوراق التى أحضرتها من المحاكم ويعرضها على مأمور قسم الخليفة وهو يتولى الإفراج عن حواس. بالطبع لم يكن هذا صحيحاً. ولكن خليفة صدق.

جاء صاحب المقهى ورحب بنا. طلبنا أن نشرب الشاى، سأله خليفة عما إذا كان يستطيع أن يتكلم مع أحد من العاملين بالحجز.

تغيرت سحنة الرجل، ونظر إلينا بغضب وقال:

– أنا رجل فى حالى. ولا أعرف أحداً فى هذا المخروب.

وأشار ناحية الحجز. واستطرد:

– ولو مش عايزين شاى برضه، استريحوا على كيفكم.

قال خليفة للرجل:

– أنت خايف من إيه؟

ورأيت الرجل ينتفض فجأة ورفع أصبعه لأعلى وقال:

- أنا لا أخاف إلا من الذى خلقنى، ولا يوجد مخلوق على وجه الأرض يخوفني يا أستاذ.

أشرت إلى خليفة أن يسكت. ولا داعى في الاسترسال مع هذا الرجل.

أشار الرجل إلى عامل المقهى وقال:

- هات الشاى بسرعة يا مسعد للأفندية.

★★★

جلسنا حتى وصلت الساعة إلى الثانية عشرة مساء ولم يحضر المسئول الذي ننتظره، نهضت واقفا ونهض خلفى خليفة، اتجهت إلى الباب الحديدى حيث يقف الحراس، سألت أحدهم عن المسئولين الموجودين فأخبرنى أنه لا يعرف أحداً، وأشار إلي شخص بداخل الباب الحديدى، سألت الأخير، سألنى:

بتسأل ليه؟

- أنا ضابط وأريد أن أقابله.

- هات الكورنيه.

- اتفضل.

ناولته الكارنيه، أخذه مني ونظر فيه. ثم غاب لحظات. وعندما عاد سألنى:

- إنت عايز إيه؟

- أكلم المسئول.

- عايز منه إيه؟

- فيه واحد قريبى محجوز وعايز اطمئن عليه.

غاب لحظات بالداخل، وجاء شخص يرتدى الملابس المدنية، وقال:

- أهلا، تحت أمرك.

- فيه واحد قريبى عندكم وعايزين نطمئن عليه.
- اسمه إيه؟
- حواس.
- موجود وإن شاء الله سيرحل باكر إلى قطار الصعيد. لو عايز تدخل تفضل.
كان خليفة واقفا بجوارى أثناء كلامى مع المسئول، وقال له:
- أنا الدكتور خليفة أستاذ فى الجامعة ومستشار ثقافى، شقيق حواس.
- قال له المسئول:
- تحت أمرك.
- أنا معى مخالصات لكل القضايا المطلوب فيها حواس. وكنا نفضل أن يتم ترحيله على نفقتنا الخاصة.
- أنا هنا لترحيل من تريد الجهات المختلفة ترحيله، سواء كان متهما أو لتنفيذ عقوبة أو للإفراج عنه، وأنا لا أنظر إطلاقا إلا فى أوراق الترحيل التى تأتينى من الجهات المختلفة. أنا فقط مسئول عن توصيله إلى المكان المطلوب بأمان. أما مسألة الترحيل على نفقتك الخاصة برضو دى مش عندى، دى فى الأمن العام، وليها اجراءات أنا شخصيا معرفهاش.
- لكن الأوراق التى معى تثبت أنه غير مطلوب..
لم يدعه المسئول يكمل وقال:
- المسألة لا تحتاج إلى الكلام. أنا شرحت لك مهمتى، والباشا طبعاً عارف كل حاجة.
وأشار إلى. شكرته، وتراجعت قليلا للخلف لأفسح المجال للواقفين خلفى.

★★★

فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا يوم الاثنين كنا نقف أمام حجز الترحيلات.

عدد كبير من السيارات الفخمة متراصة بجوار سور الحجز. وكانت تلك السيارات تعوق حركة السيارات في الشارع، ووجدنا عدداً كبيراً من الأشخاص يرتدون ملابس كاملة وبعضهم يحمل في يده أكياساً من البلاستيك الملون، وسيدات يرتدين ملابس راقية وألوانها فاقعة. وكانوا جميعاً يتطلعون إلى باب الحجز الحديدى، وجدنا سيارة لورى لها صندوق خلفي مصنوع من الحديد. وكانت تقف أمام باب الحجز، وبابها الذى يركب منه المساجين ناحية باب الحجز، ووقف الحراس بأسلحتهم صفين متقابلين ليمر المطلوب ترحيلهم وسط الصفوف منها للهرب.

أخبرنا أحدهم أن الترحيل إلي الصعيد يبدأ في الواحدة، أما الآن فهم يرحلون أفراد شبكة الدعارة التى ضبطت منذ شهرين. وفتح باب السجن وخرجت منه فتيات بيض يرتدين الملابس البيضاء، جميلات كممثلات السينما، وكانت شعورهم مرسلة صفراء وناعمة، وبعضهن كن يغطين رؤوسهن بطرح بيضاء. كانت الواحدة منهن تستعين بالعسكرى الضخم ليساعدها على الصعود إلي سلم الصندوق الخلفى، تدافع الواقفون فى محاولة منهم للوصول إليهن، وبالفعل تمكنوا من توصيل الأكياس التى فى أيديهم. كانت الواحدة تتلكأ فى الصعود حتى تنتهى من إلقاء بعض التعليمات للشخص الذى ينتظرها.

بجوار السيارة من الناحية الأخرى كانت احداهن تتحدث عبر الشباك المغطى بالسلك مع أحد الأشخاص الواقفين . وسمعتها تقول له:

– يا سمير. أنا كنت هناك بالصدفة لما كبسوا علينا، وأنا كنت لابسة كل هدومى، ومكنتش عريانة زى ما قالوا فى الجرايد. أوعى تكون زعلان منى يا سمير. لازم تكون واثق فى.

– لا طبعاً . أنا موش زعلان. أنا بس صعبان على منك إنك رحتى عند الست دى، وأنا حذرتك منها، ودى أخرتها.

– أنا سايبة خمسين ألف جنيه فى ظرف تحت مرتبة السرير، تدفع منها أتعاب المحامى. وأنا لى عند مدام سهى سبعين ألف تأخذها، وتخليها معاك، وتدى أمى خمسة بس.

– أنا واثق إنك هتطلعى براءة.

– أوعى تكون زعلان ياحبيبى. أنا عمرى ما خنتك. كلهم ظبطوهم عرايا إلا أنا كنت لابسة هدومى. إحنا مرحلين إسكندرية.

– أنا ها أنتظرك هناك يوم الجلسة. إن شاء الله براءة.

– هتوحشنى يا سمير.

– وإنتى كمان، باى باى.

وسمعت سيدة بجوار نافذة اللورى تشتم احدى المحجوزات، والأخرى تبادلها السباب من داخلها، وهددتها السيدة التى من خارج اللورى بأنها ستبلغ زوجها الموجود فى اليونان، وقالت لها المحجوزة من داخل اللورى.

– طظ فيكى وفيه. وما هو عارف، أمال العز والبغددة اللى انتى فيها من إيه؟

وبعد اكتمال صعود المحجوزات. ركب الضابط بجوار السائق، وتحرك اللورى وخلفة سيارات شرطة للحراسة.

★★★

فى تمام الواحدة جاءت سيارة كبيرة لونها أزرق، لها صندوق خلفى، ووقفت كما وقف اللورى الذى نقل اعضاء الشبكة، ووقف الدكتور خليفة خلف صف الحراس فى انتظار خروج حواس. كان خليفة قد اتفق مع أحد الأشخاص أن يمكنه من اعطاء حواس كيس فيه أطعمه وفاكهة، وبالفعل ظهر حواس. ناوله خليفة الكيس. وأعطاه مبلغاً من المال. ثم صعد حواس إلى الصندوق. كنت أقف بعيداً عن الجنود، ورأيت رجلا مسنا ومعه امرأة مسنة، كانت تبكى والمسن يحاول تهدئتها، وأخبرها أن ابنه سيرحل إلى

الصعيد، وأنه سيخلى سبيله من هناك.

وتحرك اللورى إلى محطة القطار تمهيداً لترحيلهم فى القطار الذى يتحرك فى الليل.

★★★

ذهبنا عند المكان الذى وقفت فيه السيارة، لم يكن الشخص الذى اتفقنا معه موجود. فتحنا السيارة ودخلنا فيها وانطلقنا في شارع ضيق إلى منطقة العتبة.

رن التليفون.

– أهلا يا دكتورة.

– ....

– يعنى ممكن، خلاص أنا فضيت.

– ...

– طبعاً. بمجرد نزول الإعلان تجهزى الأوراق والسى فى. وأنا هكون فى اللجنة.

– ....

– ممكن الساعة دلوقتى اتنين. يمكن بعد ساعة فى كازينو السمان...

– ...

– لما نتقابل.

– ...

– مع السلامة

وأغلق التليفون، والتفت نحوى أطلق ضحكة مجلجلة. وقال إنه سيقابل الدكتورة فى كازينو السمان الساعة ثلاثة، وسألنى عن مكان كازينو السمان، أخبرته فى كورنيش الجيزة. وأخبرته أنه مكان مناسب، وطلبت أن أنزل فى ميدان الجيزة لشراء بعض الاشياء الخاصة بى، واتفقنا على اللقاء

قبل الساعة الخامسة.

★★★

اتصلت بالسيدة التى دفعت لها ثمن التذكرة. أخبرتها أننى فى القاهرة، طلبت منها أن نلتقى. أخبرتها عن المكان الذى سنلتقى فيه.

كان موعدى معها فى الساعة الثالثة عند محطة أتوبيس دار الأوبرا الجديدة. الساعة الآن الثانية إلا خمس دقائق.

ركبت تاكسى إلي هناك. وقفت بجوار سور الحديقة ووجهى ناحية الأوبرا . وفى الوقت نفسه أتمكن من الوقوف فى ظل الأشجار بعيداً عن سخونة الشمس. بطبعى لا أحب الانتظار.

شغلت نفسي بمراقبة ولد وبنت يسيران، البنت تحوط خصر الولد بذراعها، والولد يضع يده على كتفها العارى. كانا يسيران ببطء، ظللت أرقبهما حتى وصلا إلي محطة المترو، نزلا فيها، مرت من أمامى امرأة بيضاء ممتلئة قليلاً، أردافها مستديرة، وصدرها وافر، ولها وسط ضيق، وكانت ترتدي بنطلون يبين معالم جسدها بتفصيل محكم، وكانت تربط بلوفر لونه أحمر على وسطها، كانت قادمة من ناحية كوبرى قصر النيل، يبدو أنها أجنبية، ظللت أتأملها حتى عبرت الطريق إلى الناحية المقابلة، انطلقت السيارات التى حجزتها اشارة المرور.

سألتنى امرأة مسنة تمسك فى يدها شاب مفتول العضلات عن وزارة القوى العاملة، أخبرتهما بأننى لا أعرف مكانها وقف بالقرب منى رجل يرتدى جلباب ومعه امرأة ترتدى ملابس الفلاحات السوداء- لم تكن ملابسها تشبه ملابس الفلاحات عندنا- يرتفع جلبابها عن ساقيها قليلاً من الأمام بينما يطول حتى يكنس الأرض من الخلف، وكان الرجل يضع على رأسه اللبدة الصوفية التى انقرضت من عندنا منذ زمن بعيد. كانت لبدته طويلة وعالية ومنبعجة من الأمام، كانت المرأة تحكى له عن واحدة مدينة لها

وتلكأت فى السداد وسمعتها تقول للرجل:

- هى هتروح منى فين. وحياتك أنت إن ما دفعت اللي عليها لأقول لزوجها على حكايتها.

- يا ستى ربنا أمر بالستر.

- طيب تدفع اللى عليها الأول، هو إحنا عمي، إحنا شايفين كل حاجة، والراجل طيب وابن حلال وميستاهلش اللى بتعمله فيه اللبوة دى.. دى لبوة.. وعينها يندق فيها وتد.

- شوفى اللى كنت عاملها مؤدبة، طلعت بنت حرام.

- اللى نقول عليه موسى يطلع فرعون.

- لكن أنت شفتى الواد عندها.

أصدرت المرأة صوتا من أنفها وقالت:

- اسم الله. أنا شفتهم كده.

وصنعت باصبعيها دائرة أدخلت فيها اصبع يدها الأخرى، واستطردت،

- ونصها عريان. استغفر الله العظيم.

صاح الرجل فجأة:

- ٩٢٦ . ٩٢٦.

واندفع الرجل والمرأة خلفه إلي الباب الخلفى للأتوبيس الذى توقف أمامى. ركبت هى أولا وخلفها الرجل نظرت فى ساعتى ووجدتها الثالثة والربع، ومسحت بعينى المنطقة المقابلة لى والمنطقة التى حولى فلم أجدها، وفكرت فى الانصراف، ولكننى تحت وطأة صوتها المثير وأناقتها أعطيتها مهلة ربع ساعة أخرى وبعدها سأنصرف، ووقفت أرقب المارة من جديد اكتشفت أن هذا المكان بالذات من أجمل الأماكن فى القاهرة كلها، حيث يخلو من زحام البشر، وفيه أماكن يسير فيها العشاق دون إزعاج.

لمحتها على الناحية المقابلة تنظر حولها، وصلت لتوها وتبحث عني. كانت

ترتدي تاييراً كحليا وتحته بادى أبيض.

عبرت الطريق من خلال السيارات التى تمرق حتى وصلت إليها، وفوجئت بى أمامها، نظرت إلي بخجل ولم تسلم علي، مشت وأنا خلفها من أمام باب الأوبرا دون أن تنظر نحوى، كانت تنظر حولها بارتياب، حتى وصلنا إلي الناحية الثانية بجوار سور نادى التربية والتعليم، وسارت ببطء، لحقتها ونظرت إلي وقالت:

- أهلا.

- وجدت نفسى أمسك يدها كلها وأرفعها إلي فمي. سحبت يدها بعنف وقالت:

- مش هنا؟

أمسكت يدها وسرنا متجاورين وقالت بعد أن توقف ونظرت خلفها وحواليها:

- تحب نروح فين؟

- الشقة.

نظرت إلى نظرة غاضبة. ولم تتكلم، وبعد فترة قالت:

- من أولها، لكن ميضرش. مش أنا وش كده.؟

شعرت أنني أهنتها، وحاولت أن أعتذر، وجدنا أنفسنا بالقرب من عوامة راسية في النيل، توجهنا إليها، استوقفنا رجل أمن يرتدى «يونيفورم» أزرق، يجلس عند أول الممر المؤدى إلي العوامة، وقال لنا:

- الغدا الساعة تلاتة ونص.

نظرت فى الساعة فوجدت أن الوقت باقى عليه نصف ساعة، ناولته جنيه، أشفق علينا وسمح لنا بالدخول.

دخلنا، اخترنا مكانا بعيداً فى آخر صف الكراسي، وكنا بمفردنا فى العوامة، بمجرد جلوسنا جاءت فتاة ترتدى ملابس ضيقة جدا وسألتنا عن

طلباتنا، قالت:

- أنا صايمة.

نظرت إليها الفتاة بغيظ، وقلت لها مستنكرا:

- صائمة؟

- أصل أنا بصوم الاثنتين والخميس.

كانت الفتاة لاتزال تنظر إليها بغيظ، لوت شفتيها دون أن تلحظها، ثم نظرت نحوى ولوت شفتيها. قلت لها:

- نخرج؟

قالت:

- لا. خلاص أصوم يوم تانى عشان خاطرك.

طلبت عصير فرش وطلبت أنا بيبسى، انصرفت الفتاة، وبانصرافها وجدت نفسي أتناول شفتيها بفمي، أحسست أننى مندفع إليها بقوة غامضة، ولم أتمكن من مقاومتها، الغريب أنها استسلمت لحظات ونزعت نفسها منى وقالت:

- أحنا فى مكان عام، حد يشوفنا .

حولت أن أجذبها مرة ثانية ولكنها ابتعدت عنى وقالت:

- أنا ممكن أمشى.

وشعرت أننى عدت من جديد إلى سن العشرين. وأمسكت يدها فى يدى. كانت طرية وبيضاء وأصابعها ناعمة وطويلة، قبلت أصابعها، ورفعت أناملها عند شفتي، وقالت:

- خلينا مؤدبين.

- حاضر.

- مش ملاحظ حاجة؟

- أبدا.

- لم تسألني عن زوجي.

- آه.. آه.. مين هو؟

تنهدت بحرقة وقالت:

- مش فاضي. كل يوم في بلد. واليوم اللي يبات فيه في البيت، إما إنه تعبان، أو مشغول.

- معقول؟ حد ينشغل عن القمر ده؟

- يعني، كل شهر، أحيانا في المواسم والأعياد.

- معقول الجمال ده ينساب كده؟

مددت يدي إلى رقبتها، وضعت كفي تحت أذنها، مالت رأسها على أصباعي وكفي حول رقبتها وضغطتها واغمضت عينيها قليلا وقالت:

- والمدام.

- المدام كل يوم لازم، إلا في الموانع الشرعية.

- كل يوم؟

- كل يوم.

- أزاي؟

- زي الناس

- بتحبها؟

- طبعاً. أصلها بنت حلال.

- قريبتك؟

- قريبتي.

- حلوه؟

- حلوه.

- تخينه؟

- لا

– فى عودى كده؟

– أرفع منك شوية. صدرك صغير شويه، أحب الصدر ده. ووسطك صغير.

تمنيت فى تلك اللحظة لو احطت خصرها بيدى وضممته، مررت لسانها على شفتيها. سألتها:

– الأحمر اللى على الشفايف طعمه حلو ولا وحش؟

– مش عارفة.

– أنت متعرفيش طعمه؟

– لا

– مراتى متحبوش.

– مش بتستعمله؟

– من النادر.

– باين عليها واثقة من نفسها؟

– جداً.

– كان نفسى جوزى يحبنى زى أنت ما بتحب مراتك.

سكتت لحظة. أمسكت فيها ركبتي وضغطت عليها، وضعت يدي فوق يدها، كانت أصابعها طويلة وبيضاء وقالت:

– طيب عمرك ما خنتها؟

– مرة واحدة.

– امتى؟

– من خمس دقائق

– مع من؟

تداركت نفسها وضحكت ضحكا عميقاً حتى مالت على وأصبحت فى حضنى،

جاءت الفتاة بصينية عليها كوب كبير من عصير البرتقال وزجاجة بيبسي وكوب كبير فارغ وزجاجة مياه معدنية باردة. وضعت الصينية بجوارنا وانصرفت. قال:

- بجد. خنتها كام مرة؟

- بعد الجواز ولا مرة

- معقول؟

- معقول.

- طيب وقبل الجواز؟

- متعديش. كثير.

مدت يدها إلى كوب العصير ورشفت رشفة، سكبت زجاجة البيبسي في الكوب الفارغ وشربت منه وقال:

- يعني إيه؟

- كثير.

- بنات ولا ستات؟

- ورجاله كمان.

- كر.كر.كر.كر

- كر.كر.كر.كر

- أنت مفتري. وكمان رجاله؟

- يعني فترة وعدت. لكن بعد الجواز نسيت كل شيء.

- علشان مراتك حلوه؟

- علشان بناتي -

- عندك كام بنت؟

- واحدة.

- عشان كده أنت تبت، وبطلت الهلس؟
- مكنش هلس.
- كر.كر.كر
- بتضحكى ليه؟
- يعنى إيه مكنشى هلس؟
- زى حاجة الواحد يعملها بمزاجه مش ممكن تبقى هلس. الهلس اللى نعمله وإحنا مش مقتنعين بيه.
- وعلاقتنا. تسميها إيه؟
- إذا حسيت أنى مش مستريح معاكى هسيبك؟
- كده؟
- طبعاً. لازم تكونى مبسوطة وأنا كمان مبسوط. تعرفى أن شفايفك حلوة
- شفايفى بس؟

أكملت شرب كوب العصير وشربت أنا كوب البيبسى مرة واحدة، شعرت أننى عدت مراهقا فى العشرين وغير قادر على السيطرة على نفسي. شاهدت أحد عمال العوامة ينظر إلينا عندما رآنى أنظر إليه اتجه بعيدا ومشى. وشعرت أننى عدت من جديد إلي سن العشرين، وكأننى لم أعان من شئ، تذكرت زوجتى، قالت:

- تعرف إن أنا استريحت معاك.
- من أول مرة؟
- مش عارفة، فيك حاجة تشد. مع إنك مش وسيم أوى.
- يا سلام؟
- تعرف أنى أول مرة أشعر إنى شبعانة.

- بجد؟

- بجد

مكثنا أكثر من ساعتين. حضنتها مرات عديدة، وكانت في كل مرة أحضنها فيها تغلق عينيها وتستسلم لحظات ثم تنفلت من بين ذراعي. وفي المرة الأخيرة استسلمت تماماً ولم تفلت نفسها مني مثل كل مرة، وشعرت أنني أريد أن أمسك كل جزء في جسدها، وخيل إلي أنني عدت إلى مرحلة ما قبل الزواج.. كانت هي مستسلمة وساكنة وكانت كلما حضنتها تغمض عينيها وتسهو. وخفت أن أتمادي معها في هذا المكان. وقالت تنظر بعيداً عني:

- أنا خايفة منك.

- مني أنا؟

- آه.

- ليه؟

- مش عارفة.

امسكت أنا حقيبتها، لم تمانع، فتحتها، لم أنظر بداخلها، أغلقتها، تركت الحقيبة على حجرى، قلت لها:

- شنطتك حلوة.

- عاجباك؟

- أوى.

- طيب خليها معاك.

كر.كر.كر

كر.كر.كر.

نظرت في ساعتها وقالت :

– خلاص؟

– لسه بدرى.

– معلهش كدا كويس.

– لسه بدرى.

أحسست أننى لا أريدها أن تتركنى. مسكت أصابعها وقربتها من شفتى، أمسكت هى أصابع ولثمتها.

– أستنى شويه لما ترجع زى ما كنت.

– ليه؟

انتظرت دقائق تبادلنا فيها النظرات بلا معنى، كانت هى تغمض عينيها وتبدو ساهمة، ونهضت واقفة. نهضت، دفعت الحساب، كانت الفتاة ترمقنا. أعطيتها البقشيش، خرجنا، سألتها:

– رايحة فين؟

– ليه؟

– أوصلك.

– لغاية الباب؟

– يا ريت.

– أنت طماع.

– أنتى لذيذة جدا.

– كفاية كده النهاردة.

– بيتكم فين؟

– فى الضاهر. تعرف الضاهر؟

– فين فى الضاهر؟

– بعد رمسيس. وأنت رايح العباسية. أنت رايح فين؟

- محطة القطر.

- ليه؟

- مسافر.

- إنت كنت جاى عشانى أنا؟

- أيوه.

- معقول؟

- معقول.

أمسكت يدى بكلتا يديها. ضغطت على يدى ثم تركتها. نظرت فى عينيها. ابتسمت وتخللت أصابعها أصابع يدي. سرنا خطوات قليلة. كنا قد وصلنا إلى الشارع المؤدى إلى الجيزة. عبرناه إلي الناحية الأخرى المتجهة إلى القاهرة.

توقفنا. كانت أصابعها لا تزال تتخلل يدى. وقالت:

- أنا هاركب تاكسى من هنا للضاهر. أشوفك تانى أمتى؟

- هنتكلم فى التليفون.

- إن شاء الله.

شاهدت تاكسى قادم نحونا. أشرت إليه. توقف بالقرب منا، أخرجت من جيبى خمسة جنيهات ، أعطيتها للسائق:

- أجرة التاكسى.

كانت تنظر إلى. دخلت فى الكرسى الخلفى. وقالت والتاكسى يتحرك.

- ضرورى تتكلم.

(١٣)

قابلت فتح الباب، كان عائداً من الحزب، أخبرته أن ابنه مجدى قد قبلوه فى معهد أمناء الشرطة، فرح فرحاً شديداً، قال لى:

- أنقذناه من الضياع فى الشوارع.

سألنى أسئلة تافهة عن المصروفات المطلوبة، وكيفية تعليمه الحياة الجديدة ومدة الدراسة وشغله بعد التخرج. أجبته باختصار.

كنت متوتراً بدون سبب، هكذا أنا، ينتابنى فى بعض الأحيان نوع غامض من الاكتئاب. وأصبح غير قادر على التفكير الهادىء الرزين أو القراءة أو حتى مشاهدة التليفزيون متعتى الوحيدة، كنت عندما قابلنى فتح الباب أسير بدون هدف فى الطريق الذى رصفوه وأصبح لونه أسود، والسير عليه مريح، سرنا معاً، قال فتح الباب إنه كان قلقاً على مستقبل ابنه، ومستقبل باقى أولاده، كان يخشى ألا يقبلوه فى معهد الأمناء. كما أخبرنى انه يقارن بين وظيفته الحالية ووظيفته جديدة التى عرضها عليه ذكرى، سألته عنها. قال إنها وظيفة مدير لمديرية الشباب والرياضة. أخبرته أن وظيفة الشباب والرياضة أفضل، على الأقل سيصبح فتح الباب مديراً، ولكنه كان يفكر فى مكافئات الامتحانات التى يقبضها كل عام. وسألنى عما إذا كنت أعرف شيئاً عن تلك الوظيفة الجديدة، أخبرته أننى لا أعرف عنها شيئاً، وفجأة صاح فتح الباب:

- افتكرت.

وأخرج من جيبه كرنيه من البلاستيك المغلف، وناوله لى وقال:

- كرنيه الحزب.

تناولته منه. كانت فيه صورتى بالملابس المدنية والشكل الجديد الذى أصبحت عليه، الشعر الأبيض والشارب المختلط بالسواد، والوجه المجعد.

تأملت شعار الحزب، لم أفهم المعنى الذى يرمز إليه، وضعته فى جيبى وقال فتح الباب:

- ألف مبروك.

قالها فتح الباب مجاملة لى، فهو يعرف أن تلك العضوية لا تقدم بالنسبة لى ولا تؤخر.

لم أسأله عن حدود صلته بذكرى ولا كيفية حصوله على تلك الوظيفة، ولكنه تطوع من تلقاء نفسه، وأخبرنى أنه ساعد ذكرى من أجل أن يرشحه الحزب، وأنه استطاع أن يعرف ذكرى بأمين عام الحزب. وتولى ذكرى الباقى. وقال:

- ذكرى فلوسه كتير، ويسلك مع الجن الأزرق.

وسكت فتح لحظة اقترح على فيها أن نشرب الشاى والشيشة على المقهى الذى افتتحه قريب لنا فى الشارع العمومى. دخلنا المقهى، رحب بنا صاحبه، وأفرد لنا مكاناً متميزاً يشرف على الشارع الرئيسى ووضع لنا كرسيين، وأوصى الصبى أن يجهز شيشتين ويغسلهما ويغير المياه منهما، وأن يحضرهما قبل أن يجهز الشاى.

قال لى فتح الباب إن ذكرى مخاوى الجن. وانه لم يتزوج حتى تلك اللحظة، رغم انه تجاوز الخمسين بكثير، وأن ذكرى قد خطب فتاه ولكنه لم يستمر فى الخطبة وفشلت وربما أفشلها الجن. كما انه أستغنى عن النساء تماماً، وهو ما يعزز الاعتقاد بأن له عشيقة من العالم الآخر. وأخبرنى أنه بإمكانه أن يحرك الأشياء الساكنة عن بعد. وبإمكانه أن يرشد عن مكان الغائب والمختفى والأشياء الضائعة. كما أن والدته - والدة ذكرى - حكت عن بقاء ذكرى فترات طويلة داخل حجرته التى تسمع فيها أصوات تتحدث، وقال إن ذكرى يمكنه أن يعرف ما نفكر فيه، وهو ما جعلنى أتنبأ لذكرى

بمستقبل باهر فى البرلمان، وربما استفاد منه الحزب لكبح جماح المعارضة.

تحسست الكارنيه الذى فى جيبى، إننى تأخرت كثيراً فى الجلوس على المقهى الذى لم اعتد الجلوس عليه.

اعتذرت لفتح الباب ونهضت واقفاً، وقف معى، وأخبرنى أن أول اجتماع حزبى سيتم فى الأسبوع المقبل، وأخبرنى انه سيمر على البيت لنخرج معاً.

★★★

عدت إلى البيت.

كان تامر مع أخوته ومعهم والدته، عندما اقتربت من الباب كنت أسمعهم يتحدثون، وعندما دخلت انقطع الكلام فى الموضوع الذى كانوا يتحدثون فيه، وكانت عملية الدخول في موضوع جديد متعثرة، ولم يتمكنوا من العثور على موضوع جديد.

دخلت إلى حجرة النوم، واستبدلت ملابسى، وعندما عدت وجدتهم قد تفرقوا، وهيمن على نوع من الغيرة، هل يتكلمون معاً فى موضوع لا يريدوننى أن أعرفه.

لم أهتم.

★★★

كان هناك عتاب صامت بينى وبين تامر، فأنا لم أتكلم معه منذ أكثر من أسبوع. فقد ذهبت إلى القاهرة مع الدكتور خليفة، وعدت ولم أتكلم معه، منذ أن ذهبت إليه فى الجامعة ووجدته فى المستشفى أثناء اشتراكه فى المظاهرات، صحيح أن قراراً صدر بالإفراج عنهم قبل أن تستجويهم النيابة العامة، ولكننى شعرت بنوع من التغيير فى علاقتى بتامر.

فقد شعرت أننى بعيد عنه وأنه يخفى عنى أشياء كثيرة.

★★★

لم أكن أريد لتامر أن يسلك مسلك السياسيين، وكنت أخاف عليه من طيش الشباب ومغامراته، وانفعالاته. وكنت أعرف أن ممارسة السياسة عندنا محفوفة بالمخاطر خصوصاً فيما يتعلق بإبداء الرأى.

فقد وضعت الحكومة شروطاً لممارسة حرية الرأى ليس من بينها التظاهر ولا المسيرات كلها ممنوعة بالقانون. جلسنا كلنا حول المائدة.

أخبرنى خالد ابنى أن المدرسة طلبت منهم في الفصل أن يجهز كل منهم لوحة تعبر عن جمال البيئة فى مصر، وطلب منى أن أتعاون معه. طلبت من سميحة أن ترسمها له. ولكنها تعللت أنها تريد أن تذاكر.

قال تامر لخالد إنه سيرسمها له.

سألنى خالد:

- بابا. صحيح أمريكا ستحتل الوطن العربى؟

- من قال لك؟

- مدرس الجغرافيا والتاريخ.

لم أجد عندى إجابة محددة، وفكرت لحظات، ولكن تامر انبرى للرد على خالد:

- صحيح. والمقدمات بدأت بتهديد سوريا، وتهديد السعودية والسودان وليبيا.

أخبرته أن هذا قد يبدو صحيحاً، ولكن النظام العراقى لم يحسن استخدام ثروات بلاده. وبددها على المغامرات، كما حدث مع ليبيا عندما قامت بتدمير الطائرة فوق لوكيربى، ودفع الشعب الليبى ثمن أخطاء حكامه. وتحمل الشعب صابراً المقاطعة الدولية والحصار الاقتصادى. كما دفعت ليبيا ملايين الدولارات كتعويضات لأسر الضحايا ولكن هذا لم يشفع لها والحصار مستمر.

كان هذا هو كل ما حاولت أن أقنع به تامر. ولم أحاول الاسترسال معه حتى لا أبرر له غزو العراق، وأخبرته أن غزو العراق كان خطأ فادحاً وربما تحول الرأى العام الأمريكي يوماً ضد رئيسه لحسابه على ما فعل، ولن يغفر التاريخ له ذلك.

لم يقتنع تامر. وقال:

- بابا. مظاهرتنا كانت ضد الإحباط والفساد. ومسألة العراق كانت سبب عشان نطلع ونقول رأينا فى الفساد.

وسكت تامر لحظة وسألنى:

- بابا. سمعت عن المواطن عبدالشافى سيد عمران.

- لا.

- شاب انتحر لأنه لم يقبل فى وظيفة فى السلك الدبلوماسى.

- لم أسمع عنه.

- دا شاب طلع الأول فى امتحان الخارجية. وبعدين أخذوا كل اللى نجحوا إلا هو، ولما راح وشاف أن اسمه مكتوب أمامه غير مقبول بسبب وضعه الاجتماعى انتحر.

«سمعت وقرأت هذا الموضوع، ولكننى لم أحاول أن أضغط فى هذا الاتجاه حتى لا يتحول تامر إلى معارض على طول، وينظر إلى البلد بمنظار أسود».

كان تامر متأثراً وثائراً، وسألنى:

- هل ستخسر الخارجية لو عينته؟ ولماذا لا يظهر الوضع الاجتماعى إلا فى تلك الوظائف، وهل يطبقون معايير الوضع الاجتماعى على المجندين الذى يدافعون عن البلاد ويموتون من أجلها.

★★★

شعرت بالخوف على تامر من مستقبل غامض، وفكرت في كلامه، بالفعل فأنا عاجز عن إيجاد وظيفة له بعد تخرجه، فقد أعلنت الدولة أن أجهزتها متخمة بالموظفين وهو ما يعنى أنها لا تفكر فى تعيين أحد. كما أن حركة السوق والاستثمار لم تعد قادرة على استيعاب خريجى الجامعات والمدارس، وانه لا أمل لكل خريجى الجامعات فى وظيفة. أما المشروعات المتاحة فهى المحلات التجارية أو المهن الحرة، وهى لا تجذب الشباب بسبب بقايا النظام الاشتراكى ووزارة التموين وغيرها من الهيئات التى تتولى الرقابة على تلك المشروعات والتى تسند إلى صغار الموظفين، كان المستقبل أمامه وأمام كل جيله غامضاً.

هيمن على شعور بخيبة الأمل، ربما لشعورى بالعجز أمام ابنى وعدم قدرتى على إقناعه. رأيت مظاهرات كثيرة فى الماضى ولعل أشدها قسوة تلك المظاهرات التى وصفها الرئيس السادات بانتفاضة الحرامية، ووصفتها المعارضة بأنها انتفاضة الجياع. وخفت على ابنى من القسوة المعاناة.

فكرت فى الدكتور خليفة، ربما لو تكلمت معه فى شأن تامر ليحصل له على عقد عمل هنا بعد تخرجه، وجدتها فكرة تستحق الدراسة.

سألنى تامر:

- بابا. قرأت الأهرام؟

- آه.

- لم يلفت نظرك فيه شىء؟

- لا.

تناول الجريدة وفتحها على صفحة الحوادث وقرأت.

- أدلى قاتل المصورة الفرنسية باعترافات مثيرة عن جريمته. حيث قرر أنه حصل على بكالوريوس الزراعة بتقدير جيد منذ ثلاثة أعوام ولم يجد

فرصة للعمل، وقرر إنه اعتاد التعرف على الأجنبيات المقيمات فى القاهرة والزواج منهن لينفقن عليه، وقرر انه سبق له التعرف على ألمانية تعمل فى مجال السياحة وتزوجها، وكانت تقوم بالإنفاق عليه، كما سبق وتعرف على ألمانية وفرنسية خلال دراسته بأحد المعاهد الألمانية وكانت تتولى الإنفاق عليه نظراً لظروفه الصعبة، وقرر أن حبه للغات الأجنبية وتردده علي هذه المعاهد أتاح له الفرصة لإقامة علاقات مع الأجنبيات وقال إن كل أصدقائه بالجامعة سافروا للخارج من خلال تلك الطريقة.

لم أكمل.

قال لي تامر على طريقة السياسيين الكبار:

- طبعاً. لا تعليق.

قلت على الفور:

- لا تعليق.

وأشفقت عليه.

★★★

بعد صلاة العشاء سرنا معاً (شلة الجامع) انتحى بى الدكتور خليفة جانباً وأخبرنى أن شقيقه حواس قد أحضروه اليوم بعد الظهر إلى مركز الشرطة، استغرقت عملية ترحيله فى القطار ثلاثة أيام، وتأخر المركز التابع له فى إرسال مندوب لاستلامه من عاصمة المديرية لمدة يومين. وانه يريدنى أن أذهب معه للمساعدة فى إنهاء إجراءات الخروج.

ذهبت معه إلى المركز.

كانت تلك هى المرة الأولى التى أدخل فيها مركز الشرطة منذ خروجى للمعاش، استقبلنى المأمور بترحاب، وطلب لى شاياً. كان معى الدكتور خليفة، تكلمنا معاً. اعرفه منذ زمن. عملنا معاً كان هو ملازماً وكنت أنا فى

رتبة الرائد. لا يزال يحترمنى، سألته عن الأولاد أخبرنى أن له ابنين أحدهما أنهى دراسته فى كلية الزراعة، والآخر فى السنة النهائية فى الآداب، وأخبرنى أنه متشائم من مستقبلهما، وأخبرنى انه عودهما على ملاحظة الأرض التى ورثها عن والده، سألته عن مقدارها. ضحك. وقال :

– خللى الطبق مستور. تركة الجد كانت ثمانية وأربعين فداناً وزعت على أعمامى الستة وعماتى الأربعة، نصيبى أنا منها ثلاثة فدادين، سأتركها للأولاد يتعلمون الزرع فيها مادامت الدولة تخلت عنهم.

ضحكنا.

سألته:

– لماذا لا تفكر فى كلية الشرطة بعد المرحلة الثانوية؟

– أحدهم كان قصيراً، والآخر نظره أقل من المطلوب.

سألنى عن أولادى، أخبرته بأن أكبرهم فى السنة النهائية بكلية التجارة، سيتخرج بعد شهر. والثانية فى كلية الهندسة، والأصغر فى الإعدادى.

سألنى نفس السؤال عن كلية الشرطة. وأخبرته أن تامر أقصر من المطلوب.

تنهد وقال:

– مشكلة.

سألنى المأمور عما إذا كنت أصبحت محامياً. أخبرته أننى لم أفكر فى هذا الأمر، سألنى عن السبب، أخبرته انه لا يمكننى أن أبدأ سلم المحاماة من أوله فى الخمسين، سيصبح الأمر صعباً فضلاً عن أن أعدادهم تزايدت إلى الحد الذى تصبح فيه المنافسة فى الرزق أمراً صعباً، وأنا معاشى يكاد يكفينى، قال المأمور:

– معك حق.

أخبرته عن موضوع حواس، رفع سماعة التليفون، طلب أحد الضباط، وتكلم معه فى شأن حواس، ووعده الأخير بأنه سيسرع فى عملية الإفراج عنه بعد استلام المستندات، نهض الدكتور خليفة واقفاً، طلب منه المأمور أن يذهب إلي الضابط فى المكتب المجاور ويعطيه المستندات.

بعد خروج الدكتور خليفة. تحدثنا فى أمور كثيرة وتناقلنا ذكريات زملائنا الذين عاصرناهم، وسألنى عن شعورى عندما خرجت وقلت له:

– طبعاً زعلت شوية، وشعرت أننى كنت أتغطى بغطاء ثقيل وفجأة نزعوه عني وأصبحت عارياً.

ضحك المأمور. وقال:

– فعلاً. لو أخرجونا فى سن الستين لن تكون هناك مشكلة، ربما عندها نشعر أننا ليست لدينا القدرة على العطاء وتكون الإحالة للمعاش مطلوبة، ولا تثير غضبنا، ولكن المشكلة أن هناك من يخرج وهناك من يبقى.

تذكرت موضوع ابن طه الذى يريد تسليمه للشرطة، كان طه قد قابلنى مرات عديدة وفى كل مرة يذكرنى برغبته في تسليم ابنه، وفى المرة الأخيرة أخبرنى أنه أخبر ذكرى عضو مجلس الشعب بالموضوع، ووعده ذكرى بأنه سيكون معى عند التسليم، أخبرت المأمور، رفع سماعة التليفون، تحدث مع مدير الأمن، أخبره أن الذى يعرض التسليم هو أنا، كنت أعرف المدير، طلب أن يكلمنى، ناولنى المأمور السماعة.

– إزيك ياباشا.

– الله يسلمك.

– إيه موضوع الولد ده؟

– والده عندى وعرض إنه يسلمه.

– طيب الولد فين؟

- معنديش فكرة.

- أزاى ياباشا معندكش فكرة.

- معنديش.

- معقول ياباشا؟

- معقول، أنا لم أسأله عن مكانه.

- لا ياباشا لازم نعرف مكانه.

- إنتوا عايزين الولد؟

- طبعاً.

- طيب خلاص أنا أجيبه، بس لازم يبقى فيه أمان لغاية ما يوصل للجهة اللى عايزاه.

- إيه رأيك تيجى تشرب فنجال قهوة ونتكلم.

- حاضر.

وضعت السماعة، طلب المأمور سرعة استكمال إجراءات الإفراج عن حواس، وأخبرنى أن الموضوع فى المباحث، استأذنته فى الذهاب إلى رئيس المباحث.

- قابلنا أنا والدكتور خليفة رئيس المباحث بالترحاب، شاب فى الثلاثين، عيناه حادتان، ذكى يتحرك كثيراً، ضغط جرساً، جاء مخبر، طلب منه أن ينهى إجراءات حواس، بعد أن شربنا القهوة جاء المخبر ومعه أوراق وضعها أمام ضابط المباحث ووقع عليها، ونظر إلينا وقال:

- خلاص ممكن يطلع.

نظر الضابط إلى المخبر وقال:

- خلاص، خرجوه.

جاء حواس، استطالت لحيته وبدأ شخص آخر، أثقلته تجربة الحبس

البسيط. كان صامتاً لا يتكلم.

وعندما أصبحنا خارج المركز، سمعنا شخصاً ينادى على حواس. كان المخبر الذى جهز له إجراءات الإفراج، انتحى بحواس جانباً، تحدثا طويلاً، انتظرنا بالقرب منهما. طال الحديث. تركه حواس وجاء ناحيتنا، سألناه عن الأمر. أخبرنا أن هذا المخبر يدعي إنه اكتشف حكم آخر لم يدرج فى قائمة الأحكام التى أخلى سبيله لأجلها. ابتسم الدكتور خليفة وانتهى بالمخبر جانباً، ورأيته وهو يضع يده فى جيبه، ناول المخبر أوراقاً مالية، وعاد المخبر من حيث أتى. كان خليفة يبتسم ابتسامة مرة. وقال

- أنا أصبحت خبيراً بالتعامل مع المخبرين.

★★★

ونحن فى الطريق أخبرت الدكتور خليفة عن حكاية تامر، والآراء السياسية التى يعتنقها، وقلت له إننى خائف عليه من موضوع السياسة، وأفكر فى شيء يشغله بعد التخرج فى الشهور القادمة. الحق أننى كنت أستدرجه فى الكلام حتى يعرض عليّ هو أن يدبر له عملا فى الخليج. سألنى عما أفكر فيه، أخبرته أننى أريد أن أفتح له مشروع خاص وليكن بيع التليفونات المحمولة أو ملابس السيدات أو مكتب كمبيوتر، وأخبرته أيضاً أن المشروعات هنا غير مضمونة وأن الضرائب والتأمينات والرقابة وموظفى البلدية والتموين ونظام البنوك كلها أشياء تساعد على إفلاس أى مشروع، وانه مادام فكر فى السياسة فلن ينفع فى الاستثمار، هذا فضلاً على أنه من الممكن أن يجتمع عنده أصحابه ويتكلمون معاً فى تلك الموضوعات، وربما تلقفته إحدى الجماعات أو التنظيمات التى بدأت تطل من الشقوق، وربما تكلم كثيراً فيلفت إليه أنظار الأمن، ونبدأ فى مسلسل لا أول له ولا آخر.

أخبرت خليفة أن صديقاً لى فى الخارج عرض علي أن يأخذه معه إلى

اليونان، ولكننى لم أوافق - في الواقع هذا لم يحدث - قال خليفة:

- طبعاً اليونان كويسه لكن بعد ١١ سبتمبر أصبحت صعبة.

انتظرت أن يعرض على الدكتور خليفة أن يوفر له عملا هناك كما وفر لأبناء شقيقته وأقاربه، حيث تمكن من إلحاقهم بأعمال هناك، وأصبحوا يرسلون الدولارات إلى ذويهم، ولكنه لم يعرض.

وشعرت بنوع من الخجل، ولم أجرؤ على فتح الموضوع معه مباشرة.

★★★

شعرت أن ضيق التنفس بدأ يداهمنى خصوصاً فى فترة المغرب وما بعدها، وعند الاستيقاظ من النوم، ولم يحدث أى جديد فيما يتعلق بعلاقتى بزوجتى، وبدأت فترات الصمت تطول، وأصبحت علاقتنا فاترة، كما تلاشت فترات النوم، ولم أعد قادراً على النوم العميق، وشعرت أن شهيتى للأكل قد ازدادت. وبدأ كرشى فى الظهور، وبدأت زوجتى تلقى على باللوم فى موضوع تامر، وأخبرتنى صراحة أنها غير راضية عن الأفكار التى بدأ تامر يرددها، وأخبرتنى أننى فشلت فى تربيته التربية السليمة بسبب سلبيتى الشديدة.

شعرت أن وجودى فى البيت أصبح عبئاً عليها.

واكتشفت أن زوجتى بدأت تسند لى بعض المهام الخاصة بالبيت. فقد طلبت منى أن أخرج فى الليل وأرمى أكياس الزبالة التى تتجمع لدينا في مكان مهجور. كما أنها تعودت أن تترك لى كل يوم ورقة بها التعليمات. مثل تقشير البطاطس، وتنظيف البامية، وتقطيع أوراق الملوخية وخرطها. وأوكلت لى مهمة سلق اللحوم، وإعداد (التقلية). استخراج الغسيل من الغسالة، ووضعه فى إناء، كل هذا من الممكن احتماله. أما ما أغاظنى حقا هو فرد الغسيل على الحبال فى الشرفة.

فقد أخرجت الملابس من الغسالة، ووضعتها فى إناء كبير، ورفعته إلى الشرفة، وعندما هممت بوضعها على الحبال وجدت جارتى في الشرفة المقابلة تضع الملابس المغسولة على الحبال، وشعرت بالخجل، وتركت كومة الغسيل حتى عادت زوجتى وأخبرتها بما حدث. قالت:

- كنت انتظرت لما تخلص وتدخل، وبعدين إنت تنشر.

نظرت إليها نظرة فاحصة، فقد وصلنا إلى حد لا يمكن السكوت عليه، هاهى زوجتى لا تغير على.

أى انها فقدت الأمل فى كرجل. ولاشك أنها أدركت اننى ما عدت أصلح للنساء، وربما لم أعد أصلح لشيء على الإطلاق.

أتذكر أننى ذات صباح منذ عشر سنوات فقط، كنت فى إجازة، وجلست فى تلك الشرفة، أستقبل الشمس. وجاءت زوجتى لتنشر الغسيل وشاهدتنى وأنا أجلس مسترخياً، وشاهدت جارتنا تقف في الشرفة المقابلة، كانت هى أيضاً تستقبل الشمس، وقتها تبرمت زوجتى وتخاصمنا، واتهمتنى بأننى تعمدت الجلوس فى الشرفة، ورمت الغسيل الذى غسلته على الأرض، وعلا صوتها، وعبثاً حاولت أن أخبرها اننى لم أشاهدها، أخبرتها وقتها أنها لو جلست مكانى فلن تراها، ولكنها لم تصدق، وشرعت تصف لى شكلها القبيح ووجهها المجدور.

وفى إحدى المرات زارنى شخص بلدياتى فى البيت وأخبرنى انه يريد أن يستخرج جواز سفر لزوجته المدرسة، ويرجونى لأتكلم مع زميلى فى الجوازات كى يسهل لها الإجراءات، وأخبرنى أن زوجتى ستكون هناك كى تستلمه، وقتها كانت أقسام الجوازات مزدحمة، وبعد أن خرج الرجل، ثارت زوجتى، واتهمت الرجل بأنه لا يغير على زوجته، وأخبرتنى أن كل شيء كوم، ومساعدة تلك الزوجة كوم آخر، ولم تسترح إلا عندما أخبرتها أن الزوج هو

الذي تسلم الجواز نيابة عن زوجته:

★★★

أطالع الجرائد اليومية. أبحث عن المثير فيها. لا شيء. في الصفحة الأولى الأخبار الأزلية. أخبار القضية الفلسطينية، العراق. ثمة تغيير في ترتيب الأخبار، ليبيا تمنع المصريين من دخولها. علمت بهذا الخبر قبل أن تكتبه الصحف من قريبي شعبان بدر الذي سافر إلى ليبيا بالميكروباص الذي وقف أمام بيتنا وكأنه يحمل الركاب إلى القاهرة. وعندما وصل إلى الحدود أخبروه بأنه لابد من الحصول على تأشيرة، بالإضافة إلى مبلغ من المال لا يقل عن مائتين وخمسين دولار، كان هذا مفاجأة لهم على الحدود.

عاد شعبان هو ومن كان معه. الغريب أن الصحف تشير إلى العلاقات الودية بين الشعبين، وهو ما ظهر من خلال التصريحات التي أعلنها المسئولون، ونفى المسئولون وجود أي إجراءات جديدة.

أقفز من الصفحة الأولى إلى صفحة الحوادث ومنها إلى صفحة الوفيات، قراءتها تفسر لي كثيراً مما يحيرني من قبل، خصوصاً في الوظائف الحساسة التي تهبط فجأة على عديمي الموهبة. وبسطاء التجربة، وهي الدليل على حركة المجتمع، تنتابني قشعريرة عندما أقرأ أن أحداً أعرفه قد مات. وأقارن على الفور عما إذا كان أصغر مني أو أكبر. أما إذا كان الميت قريبا لرجل من السلطة فتتسع الصفحة لتشمل صفحتين أو ثلاثا. أما إذا كان الميت هو رجل السلطة نفسه فلا أحد ينعيه سوى مرءوسيه حتى لا يوصموا بالجحود والنكران. أما لو مات وهو خارج السلطة فلا ينعيه أحد على الإطلاق.

- غرق ١٦ مصرياً في قارب في طريقهم إلى إيطاليا الجنة الموعودة.
- انهيار عمارة يكشف خراب الذمم. استجواب للحكومة.

(فيما بعد عندما رأيت مقدم الاستجواب فى التليفزيون وهو يصيح على منصة المجلس خيل إلى أن الحكومة ستذهب إلى محكمة الجنايات، اتهم المستجوب الحكومة بالإهمال الجسيم وبالتقصير فى وقف مخالفات البناء، وهو ما يؤدى إلى إزهاق الأرواح البريئة وإهدار المال العام وأن هذا الحدث يكشف عن وجود أزمة أخلاق وحرص على الكرسى والموقع وتحقيق المنافع الشخصية على حساب أرواح الناس.

وقالت الحكومة إنها واجهت تداعيات الحادث بسرعة وقررت إقامة نصب تذكارى لشهداء الشرطة فى موقع العقار المنهار وأنها بصدد إصدار تشريعات جديدة. ضحكات الوزراء فى المجلس كانت أبلغ رد على مقدم الاستجواب).

- مصرع ٢٦ شخصاً فى حادث تصادم، والمسلسل اليومى لموت المصريين، لا يهم.

أشعر برغبتي فى النوم، الساعة الآن العاشرة صباحاً، لماذا أنام، ولماذا أصحى، الأولاد فى الجامعة، خالد فى المدرسة.

الفراغ، الموت البطيء، الصداع فوق الحاجب، يمتد تدريجياً ليشمل الجبهة كلها والرأس، علاجه الوحيد هو النوم أو أكل البصل، لا شيء ينفع. اليوم الثاني عشر في الشهر موعد المعاش في البنك. مطالب الأولاد. فاتورة التليفون. برودة الأطراف.

أنام وأستيقظ، وأستيقظ لأنام، حياة كلها نوم فى نوم ولا جديد.

استطالت لحيتى، لم أتبين كمية مافيها من مناطق بيضاء، ظهرت فجأة.

★★★

ماهر من شلة المسجد، جاءنى فى البيت، أخبرنى أن توفيق قبضوا عليه الليلة الماضية، سألته عن السبب، أخبرنى انه لا يعرف. كان ماهر مضطرباً.

ونحن جالسون، رن جرس الباب، جاء أسامة (الكابتن). كان غاضباً، جلس، سألته عن السبب المحتمل للقبض على توفيق. أجاب أنه لا يعرف، اتصلت بمركز الشرطة. لم يكن توفيق هناك، ولكن الضابط الذى حدثنى أخبرنى كانت هناك حملة فى الليلة الماضية من الأمن العام وربما أخذوه معهم إلى القاهرة.

سألت أسامة عما إذا كان توفيق يمارس أنشطة محظورة، أجاب إنه لا يعرف، ولكنه أحياناً كان يختفى أربعة أو خمسة أيام وأحياناً أسبوعين، وعندما نسأله يقول إنه خرج فى سبيل الله، وقال ماهر إنه ينتمى إلى جماعة تسمى نفسها هداية الناس. ويسافر أعضاؤها إلى البلاد البعيدة ويقيمون فى المساجد، ويصلون بالناس ويرشدونهم إلى الدين المستقيم، ويأمرون الناس بالصلاة طبقاً لصحيح الدين، أوضح لى ماهر أنهم لا يعترفون بالأزهر ويقولون إن الأزهر تابع للحكومة. وقال ماهر إنه اختلف مع توفيق فى جزئية السفر إلى البلاد لهداية الناس، وقال لتوفيق إذا كنت تريد أن تسافر فى مهمة غير حكومية فلا تقبض مرتبك، ولكن توفيق نظر إلى ماهر نظرة غيظ، ولم يكلمه لمدة أسبوع.

ان قلقهما على توفيق أكبر من مجرد انتمائه لجماعة لا يعرفان عنها شيئا ، كانا يريدان خبرتى فى التوصل إلى شىء يمكن معه إنقاذه من مصيبة محتملة، أخبرتهما بأننى ليس فى مقدروى الوصول إلى شىء من هذا، نصحتهما بأن يكلفا أحد المحامين، وقال ماهر:

- توفيق فلوسه كثيرة من العيادات.

وأخبرنى أنه فقط يريد ان يعمل ما يمليه واجب زمالة المسجد ليس إلا. وقال إن زوجته وأولاده يبكون ولا يعرفون ماذا يفعلون. أخبرتهم أن يسألوا عنه زملاءه فى الجمعية. وبالفعل اتصلوا بواحد يعرفونه فلم يجدوه أيضاً،

وأخبره من يحدثه أنهم قبضوا عليه.

سألت الكابتن عن البند الثاني من واجبات توفيق التي يمارسها، والذي لم يستكمله لي.

ضحكنا. شربا الشاي وانصرفا.

(١٤)

رن التليفون، رفعت السماعة:

- ألو.
- أنا الدكتور خليفة.
- أهلاً وسهلاً.
- متشكرين جدا، بصراحة أنا لا أعرف كيف أشكرك؟
- أبداً لا شكر على واجب، تحت أمرك في أي وقت في الليل أو النهار.
- ياأخي والله الواحد محتار.
- خير؟
- طبعاً أنا مسافر بعد يومين، وأخوتي لا أستطيع الاعتماد عليهم في إدارة المزرعة. وطبعاً حواس حضرتك شفت أنه مستهتر ولا أستطيع الاعتماد عليه في شيء ولا يتحمل المسئولية، وسبب لي كثيراً من المشاكل، بصراحة ده أنا حاسس إنه لا يتحمل المسئولية، ومن مدة وأنا أبحث عن شخص مناسب يدير المزرعة في غيابي، وبأي أجر يطلبه، لكن حضرتك تعرف إن الشخص المناسب وتتوافر فيه صفات الأمانة والإخلاص غير موجود. وإن كنت - طبعاً بعد موافقة حضرتك - ناوي، أدفع المبلغ اللي حضرتك تطلبه، وطبعاً حضرتك لو وافقت ممكن جزء من المرتب يكون قسط في شراكة في المزرعة وبعدها يصبح لك عشرة في المية من الأرباح نظير الإدارة.

لم أرد. واستطرد الدكتور خليفة قائلاً:

– لكن على العموم أنا لن أجد من هو أكفأ منك لإدارة المزرعة. وياريت تبلغنى القرار قبل ما أسافر.

عشان نتكلم مع بعض فى موضوع الإدارة وبعض التوكيلات والإجراءات القانونية.

ألحق أننى لم أتحمل سماع المزيد، وقلت:

– أنا أشكرك على ثقتك فى، وفى الوقت الحاضر أنا لا أفكر فى العمل لظروفى الصحية، فضلاً عن شئون البيت والأولاد وهى تستهلك كل وقتى، وبالطبع لو فكرت فسيكون أول تفكير فى المزرعة.

ثم وضعت السماعة.

★★★

أخبرتنى زوجتى أن شخصاً اسمه حواس قال إنه شقيق الدكتور خليفة، سأل عنى، وترك كيساً كبيراً من البلاستيك.

أحضرنا الكيس. مكتوب عليه «هدايا الاخنجى» محلات بالخليج. فتحناه، وجدنا فيه. قطعتى قماش من الشيفون اللامع، وباكو عبارة عن ربع كيلو شاى، وزجاجة «أفتر شيف» وكمية من أعواد البخور، وقميصين بأوراق الشركة. ومسبحة.

حاول تامر تجربة القميص الأكبر تبين أنه لا يناسبه، جربهما خالد، كانا أكبر منه، لوت زوجتى شفتيها وهى تنظر إلى قطعتى القماش، وقالت سميحة :

– دى بلدى خالص.

ضحكنا ضحكة كبيرة، أخذ تامر زجاجة الأفتر شيف، وأشعلنا عود بخور. وجربنا الشاى.

★★★

ذهبت إلى مدير الأمن، وجدت عنده ذكرى عضو مجلس الشعب، صافحني المدير وهو يتكلم في التليفون، جلست على الكرسي المقابل لذكرى، أنهى المدير تليفونه، رحب بي مرة ثانية. تكلم ذكرى وقال وهو ينظر إلى المدير :

– المفروض ياباشا، إن الولد يخرج معانا بعد ما نسلمه.

نظر إلى مدير الأمن وقال:

– المسألة تتعلق بإجراءات قانونية. ولازم نشوف الولد مطلوب في قضايا ولا مش مطلوب. وبعدين لازم نبلغ القاهرة.

قال ذكرى:

– لكن ياباشا أنا اتفقت مع أبوه وأمه إنه يخرج.

قال المدير:

– أنا لا أضمن خروجه المسألة متعلقة بالجرائم التي ارتكبها، وبعدين دا هيروح نيابة أمن الدولة العليا.

التفت ذكرى نحوى وقال:

– عموماً الولد موجود، وعايز يسلم نفسه.

رفع مدير الأمن سماعة التليفون وتحدث إلى شخص آخر وأخبره أن آخر عضو في الجماعة سيسقط خلال أيام.

اتفقنا أن نلتقي أنا وذكرى مع طه والد مدحت لبحث كيفية إحضاره وتسليمه.

★★★

عندما قابلنا طه أخبرني أن خال مدحت أخبر شخصاً آخر من الأعيان المترددين على مركز الشرطة برغبة أمه في تسليمه، وهذا الشخص جاء عندنا وأعطانا نقوداً، وقال لنا لا تخافوا، وهو سيأخذ الولد من يده إلى

المديرية وسيعود به مواطناً صالحاً وسيبحث له عن وظيفة مناسبة.

أخبرت طه أن الأمر يستوى سواء هذا الشخص أو سلمناه أنا وذكرى.

كما أخبرنا طه أن ضابط المباحث استدعاه فى المركز، وسبه وشتمه وأهانه، ووضعه فى الحجز، وأخبره أنه لن يفرج عنه إلا إذا أخبره بمكان ابنه، وعندما أخبره أنه لا يعرف، تركه فى الحجز حتى الصباح، وقال لى طه إنه لا يعرف من الذي وشى به إلى ضابط المباحث.

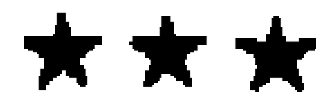
★ ★ ★

جهز ذكرى سيارته الشيروكى وركب معنا طه، وانطلقنا إلى شاطىء النيل بعد آذان الفجر، أدخلنا السيارة فى المعدية، عبرنا إلى الشاطىء الشرقى. سرنا بالسيارة جنوباً صاعدين فى الصحراء مررنا بمنطقة أثرية منهوبة، دخلنا فى الطريق الشرقى السريع، الطريق مرصوف، سارت بنا السيارة ربع ساعة، أشار طه إلى مدق فى الجبل، صعدنا فيه، توقفنا بالقرب من مزرعة واسعة بدون أسوار. كنا نسمع صوت موتور تشغيل طلمبات رفع المياه. أطل علينا شاب عرفته على الفور، كان حواس شقيق الدكتور خليفة الذى قبضوا عليه فى المطار عند انتظار شقيقه، عانقنى وصافح الآخرين، قادنا إلى غرفة مبنية بالحجر الجيرى. أشعل موقداً يعمل بالكحول. وضع عليه غلاية الشاى. استأذن حواس منا، وغاب. بعد دقائق عادحواس ومعه مدحت، شاب فى الثلاثين أو أكبر قليلاً، يميل إلى القصر صحته جيده. حليق اللحية والشارب. فى يده حقيبة جلدية صغيرة بها ملابسه. عانق والده وبكى، صافحنا، ذكر له طه شخصياتنا، وقال له:

– دول مش الحكومة، دول أهلنا.

جلس طه بجوار والده ساكناً، صب لنا حواس الشاى، شربنا.

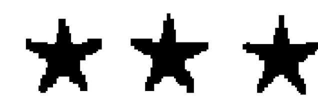
ركبنا سيارة ذكرى ومعنا طه ووالده مدحت.



أخبرنا طه أن أخوة مدحت ووالدته فى انتظاره ليسلموا عليه فى منزل خاله بالقرب من شاطىء النيل. وافقنا. أشار طه إلى منزل منفرد بين مجموعة من الأشجار يحيطه سور من البوص. دخلت السيارة حتى باب البيت، بقيت أنا وذكرى. لم يتكلم طه مع ابنه خلال وجوده فى السيارة، كما ان مدحت كان صامتاً ولم يتكلم، يبدو أنه خائف من التجربة المقبل عليها. عاد مدحت صامتاً كما دخل وكانت والدته متشبثة به، وهى تبكى. كانت تريد أن تتركه هارباً كما كان. ولكن طه نزعه من يدها، وقاده إلى السيارة.

لا أصدق أن مدحت هذا الذى قاد عدة عمليات ضد رجال الشرطة، والذى قيل إنه قائد الجناح العسكرى لإحدى المجموعات، وإنه يصدر البيانات والمنشورات باسم أبو فهر، هو الشاب الوديع الصامت الذى يركب فى الكرسى الخلفى للسيارة.

اقتربنا من مركز الشرطة فى آذان الظهر.

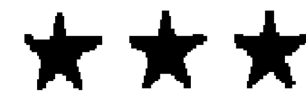


كان الموقف خارج المركز غريبا.

المركز نفسه محاط بكردون من العساكر المدججين بالسلاح، أعداد هائلة من المخبرين ينتشرون حول المركز منعوا الناس من دخوله، وكان وأعداد كبيرة من الضباط تنتشر بالقرب من الباب، كانوا فى انتظارنا، يتقدمهم نائب مدير الأمن ومدير إدارة البحث، وغيرهم من كبار المسئولين.

بمجرد وقوف السيارة أحاط بها عدد من الضباط الأشداء بملابسهم الرسمية، سمحوا لى وذكرى وطه بالنزول منها، تناولوا مدحت قبل أن ينزل.

جاء نائب المدير وشكرنا أنا وذكرى، وربت على كتف طه، وقال له: أنت رجل تستحق الاحترام.



ركبنا السيارة وعدنا، أنزلنا طه قرب منزله، استمر ذكرى فى السير، قال لى:

ـ تفتكر اللى عملناه ده صح؟.

ـ دى رغبة طه.

قاد ذكرى سيارته عبر شوارع المدينة حتى وجدنا أنفسنا أمام مقر الحزب، نزلنا، وجدنا عاطف صديق الدراسة، ترهل كثيرا، كان يرتدى جلبابا بلديا محكم التفصيل، مارس عاطف السياسة من أوسع أبوابها، ورشحوه عضوا فى المجالس المحلية، ونجح فى الانتخابات بالطبع بعد أن التحق بالحزب الوطنى، وأصبح مندوب الوحدة الوطنية فى الاجتماعات الحزبية، يفسح له مكان للكلام عندما يحين الكلام للتدليل على وحدتنا الوطنية.

وأصبح مكان جلوسه المفضل فى مقر الحزب.

كان عاطف عند وصولنا يتناقش مع أمين مساعد الحزب بشأن عدم وجود قصر ثقافة فى المدينة التى نعيش فيها، كان عاطف منفعلا، وقال إنه من غير المعقول أن تكون المدينة عريقة مثل مدينتنا، وخالية من قصر ثقافة، وسب الوزير الذى كان يعلن كل يوم فى الصحف عن الثورة الثقافية، وقال إننا هنا لسنا فى الصين حتى يثقفنا الوزير الذى يهتم بالأرياف وأن مايفعله هو ضجيج ثقافى، وقال عاطف للأمين العام: لابد أن يحاسب وزير الثقافة على إهماله الجسيم فى حق مدينة يزيد تعدادها على المليون وتمتلىء بالمقاهى والملاهى، وقال إنه ما لم يقدم المجلس المحلى للمحافظة استجوابا عن هذا الموضوع فإنه سيقدم استقالته، لم أر عاطف منفعلا كما رأيته فى هذا اليوم، وجاء الأمين، وبعد أن صافحنا جلس، أخبره الأمين المساعد

بالموضوع الذى يثيره عاطف، كان عاطف لايزال محتدا، حاول أمين الحزب تهدئته وأخبره أن المحافظ وافق على تخصيص قطعة أرض بعد توصية المجلس المحلى، وقال عاطف: أنا لا أتصور أن تبقى مدينة بدون مسرح ولا مكتبة ولا حتى فرقة موسيقية تعزف للناس شىء يشعرهم بآدميتهم.

نظر أمين الحزب إلي عاطف خاصة غير مبررة، وقال لى:

ـ خلى صاحبك يخف عنا شوية.

وعده ذكرى بأنه سيقدم استجوابا إلى الوزير فى أول جلسة، أخذت عاطف من يده وخرجنا، وفى الطريق أشار عاطف إلى مجموعة من الشباب يمسكون فى أيديهم عصى غليظة، ويقفون فى الشارع متأهبين لمشاجرة محتملة، بدأت بوادرها بوصول مجموعة أخرى مثلهم، وقفوا في أول الأمر يتبادلون السباب، لم يتدخل أحد من الناس الذين تجمعوا حولهم ينتظرون مايحدث، عندنا لا أحد يتدخل فى شىء لا يعنيه حتى ولو كان منع مشاجرة وشيكة الوقوع، كانت مرحلة السباب لاتزال محتدمة بين الفريقين، وسرعان ماتحولت إلى اشتباك بالعصى، وبدأت المعركة، حسمها شاب فى يده عصا يجيد اللعبة الجهنمية التى اسمها التحطيب فى الإيقاع بثلاثة من الطرف الآخر وألقاهم على الأرض والدماء تنزف منهم، وسرعان ما بدأت مرحلة أخرى وهى مرحلة صراخ النسوة، انشقت الأرض عنهن وملأن الدنيا صراخا، لم يتطوع أحد بإخبار سيارة الإسعاف التى تقف فى مقرها بجوار المعركة تماما، بسرعة أخبر عاطف أحد المسعفين، جاءت السيارة وأخذت المصابين الثلاثة إلى المستشفى، وأصبحت أرض المعركة خالية تماما، فر المتهمون بعصيهم.

قال عاطف: هذا حال البلد، الأعصاب متوترة، لا أحد يحتمل أحد، لو كان هؤلاء يقرأون ويشاهدون المسرح والسينما لما حدث ذلك.

رفع عاطف يده فى السماء بطريقة مسرحية وقال:

ـ منهم لله.

سأله ذكرى عن الذين يشكوهم، قال:

ـ وزير التعليم ووزير الثقافة.

ضحكت أنا وذكرى، وابتسم عاطف، تذكرت أنه عاطف كما هو، وأن عاطفة الحب التى تحولت إلى حب الوطن والناس لاتزال متأججة.

★★★

بدأ التعب يزداد، وضيق التنفس بدأ يلازمنى بصفة مستمرة.

أخبرت زوجتى برغبتى فى السفر إلى القاهرة.

★★★

محطة القطار مضاءة بأنوار خافتة، السكون يشمل كل المكان، لسعة البرد الخفيفة تنبىء عن بداية انهيار فصل الصيف، الشتاء يولد دائما فى آخر الليل، وقفت بالقرب من غرفة البلوك الخشبية التى تدار منها حركة القطارات، كانت على أول الرصيف ولها سلم يصعد منه العاملون فيها، بوابة المزلقان مفتوحة لعبور السيارات، عامل التحويلة يجلس على كرسى بجوار الشباك يرقب حركة مرور السيارات من المزلقان.

الساعة تقترب من الثانية صباحا.

سمعت ثلاث تكات معدنية متتالية، نهض عامل التحويلة، ضغط على الماكينة التى دقت الرنات الثلاثة، تأهب لجذب ذراع ضخم من أعلى، استخدم جسمه واتكأ على قدمه وجذب الذراع، أضاءت إشارة السيمافور البعيدة باللون الأخضر.

لم تكن الإشارة الخضراء للقطار المتجه إلى القاهرة الذى سأركبه، كانت للقطار القادم من القاهرة فى طريقه إلى أسوان حاملا السياح الأجانب،

جذب عامل التحويلة ذراعاً يتحرك على جزء من عجلة كبيرة عليها أسنان، وبدأت أذرع البوابة التى ستغلق المزلقان تتدلى ببطء حتى استقرت فى وضع مستعرض أمام حركة الطريق وأغلقتها أمام السيارات التى تعبر المزلقان.

شمل السكون المحطة، عدد من المخبرين يقفون بالقرب من بوابة المزلقان ويضعون أيديهم فى جيوب معاطفهم ويتحسسون طبنجاتهم، يتحدثون مع بعضهم بصوت منخفض ولكنه مسموع، يطردون الملل، المكان آمن من النشالين.

بدأت أنوار القطار باهتة من الشمال، وسرعان ما بدأت تنتشر وتسطع على شريط القطار، كان القطار قادما نحونا بعنف وصخب، وسرعان ما عبر المحطة متكبرا ومتجهما ومخلفا وراءه موجة من الهواء العاصف شملت المحطة والركاب الذين تتوارى بعضهم ليتقى الغبار الذى أهاجه القطار العنيف.

ارتفعت البوابات من جديد، وانطلقت السيارات المحتجزة، وعم السكون، شعرت بلسعة برد ذكرتنى بشتاء قاسى البرودة يودع آخر غزواته.

الركاب يصعدون ثلاث درجات ليصلوا إلى رصيف المحطة المتهدم، كانوا يمشون صامتين لينتشروا على الرصيف فى انتظار القطار الذاهب إلى القاهرة، بعضهم كان يلقى على تحية غامضة دون سابق معرفة، فلا تعرف إن كانت تحية المساء المنصرم أم أنها للصباح القادم، سمعت الدقات الثلاث التى تعلن عن قدوم القطار.. وسرعان ما رد عامل التحويلة بثلاث دقات مثلها من ماكينته، وسحب الذراع، وأضاءت الإشارة البعيدة باللون الأخضر، كانت للقطار القادم من الجنوب، وبدأ العامل يدير ذراع البوابة، وسرعان ما بدأت فى النزول ببطء.

سمعنا نفير سيارة يصرخ بإلحاح من بعيد، كان السائق يرى البوابة وهى تسد عليه الطريق ويريد أن يتمهل عامل التحويلة لحظات حتى يتمكن من عبور المزلقان بسيارته، ولكن عامل التحويلة تجاهل تحذيراته واستمر فى إنزال البوابة حتى أغلق المزلقان تماما، توقفت السيارة التى كانت تصرخ، ونزل منها شاب رفع وجهه إلى عامل التحويلة وبدأ الشاب يصيح بصوت عال.

تجاهله عامل التحويلة، وبدأ يكتب فى دفتر تحت ضوء مصباح خافت، كان الشاب يتحدث بحدة ويشير بيديه، كانت السيارة المحجوزة سيارة شرطة، بعد أن فرغ الشاب من الصياح سمعناه يشتم ويسب عامل التحويلة، ولكن عامل التحويلة تجاهله تماما وتظاهر بأن لم يسمع، وبعد انصراف الشاب ودخوله سيارته، فتح عامل التحويلة شباك النافذة المنزلق، وأطل علينا قائلا:

ـ معقول افتح البوابة، وأروح فى داهية؟.

لم يرد عليه أحد، كان يريد أن يقنع نفسه بالشجاعة، وقال:

ـ الروح ماياخدها إلا خالقها.

وبدأت أنوار القطار تسطع من الجنوب، وهى تقترب ببطء، وبدأ الركاب يستعدون، وبعضهم حمل أمتعته على كتفه.

اقترب القطار من المحطة وظل يزحف حتى أصبحت العربات على طول الرصيف.

جاء أمامى باب فتحته ودخلت، وجدت نفسى فى الدرجة الثانية المكيفة، مشيت بين العربات حتى وصلت للدرجة الأولى، الركاب بعضهم غطى عينيه بقماش أسود على شكل نظارة ورفع وجهه لأعلى وراح فى نوم عميق، وبعضهم كان يصدر من أنفه شخيرا مزعجا، سيدة جميلة فى منتصف

العمر مستيقظة أخرجت ثديا وافرا من فتحة ثوبها وراحت تلقمه لطفلها الصغير وزوجها بجوارها أزعجته أعين الركاب المتلصصة، كان هناك عدد كبير من الكراسى الفارغة التى حجزها أصحابها فى المحطات التالية.

وصلت إلى رقم الكرسى الذى حجزته، وجدت شخصاً نائماً فى الكرسى الذى حجزته يرتدى الملابس البلدية ويغطى وجهه وعينيه بكوفية من الصوف.

لمست كتفه مرتين متتاليتين، لم يتحرك، مما أجبرنى على أن أهزه، أزاح الكوفية من فوق عينيه قليلا، ورمقنى بنظرة قاسية، ولم يتكلم، أعاد الكوفية إلى عينيه ثم تدلت رأسه واستمر في النوم، لمسته مرة ثانية، وعندما أزاح الكوفية وفتح عينيه أخبرته أننى حجزت هذا الكرسى، قال وهو يغالب النوم:

- يا أخى الكراسى كثيرة وفاضية، شوف أى كرسى.

- أنا حجزت الكرسى.

نظر إلى نظرة خاصة، لاشك فى أنه كان يقيمنى فيها، كان الغيظ يهيمن عليه، ولكنه لملم أطراف جلبابه وشرع فى الوقوف بتثاقل غريب، وجلس فى الكرسى المقابل لى، وبعد أن ترك الكرسى وضعت حقيبتى الصغيرة بجوارى وجلست، حركت مسند الكرسى للأمام والخلف مستعينا بيد معدنية بجوارى، جعلت المسند يروح قليلا للخلف، وجلست، أزحت الستارة عن زجاج النافذة وأسندت ظهرى للخلف وعينى على النافذة أرقب السيارات التى تجرى على الطريق الإسفلتى (مصر - أسوان) عن يسار السكة الحديد، الطريق الإسفلتى يفصله عن شريط السكة الحديد ترعة الإبراهيمية التى بدا ماؤها فى الظلام كسطح معدنى يلمع، كنت أشعر بسعادة وأنا أرى قطارنا يسبق السيارات ويتركها خلفه، حاولت أن أنام، ضجيج ارتطام العجلات الفولاذية للقطار بالقضبان حرمنى من النوم، ظل إيقاع العجلات

يلازمنى مدة لا أعرفها حتى تلاشى تماما.

★★★

شعرت بلمسات خفيفة على كتفى، فتحت عينى، رأيت رجلاً يرتدى ملابس زرقاء ويتدلى من رقبته جهاز كبير يشبه الآلة الحاسبة، كان الجهاز فى حجم جهاز التسجيل (راديو كاسيت) المتوسط وتبرز منه ورقة بيضاء مستطيلة مثل أوراق ماكينات الحساب فى محلات السوبر ماركت، أمسك الرجل بالجهاز فى يده وقال:

ـ تذاكر.

أخرجت له التذكرة وأعطيتها له، لم ينظر فيها وأجرى قلمه عليها ثم ناولها لى وقال:

ـ مع السلامة.

لم أتمكن من النوم، كان القطار قد خرج لتوه من إحدى المحطات الكثيرة التى يتوقف عندها، ثم بدأت عجلاته تتسارع محدثة ضوضاء رتيبة.

سمعت صوت الكمسارى بدأ يعلو مع أحد الركاب، لم تكن مع الراكب تذكرة، سأله الكمسارى عن المحطة التى سينزل فيها، أخبره الرجل أنه سينزل فى القاهرة، بدأ الكمسارى يضغط بأصابعه على الجهاز، برزت منه ورقة صغيرة، نزعها الكمسارى، وقال له:

ـ خمسة وعشرون جنيه.

قال الراكب ببرود:

ـ مصلحة.

قال الكمسارى بغيظ:

ـ الكرنيه.

أخرج الراكب من جيبه ورقة وقربها من وجه الكمسارى، تناولها الأخير وبدأ يقرأ فيها، وقال:

ـ ماينفعش.

ـ خلاص سلمنى.

بحث الكمسارى فى جيبه عن الصفارة ليستدعى رجال الشرطة، وعندما لم تسعفه صاح بصوت عال:

ـ ياشرطة، يا حكمدارية.

وسرعان ما استيقظ الرجل الذى كان نائما فى الكرسى الخاص بى، كان مخبرا، قبل أن ينهض واقفا هز رأسه عدة مرات، وسار وهو يهرش ذراعيه وصدره حتى وصل إلى الكمسارى، سمعت الكمسارى يقول للمخبر:

ـ سلمه فى محطة بنى سويف.

لم يذعن الراكب، وأعلن أنه ذاهب إلى القاهرة فى مهمة مصلحية، لم يفصح عنها، وقال إنه يعمل فى السكة الحديد منذ أن كان هذا الكمسارى طفلا فى اللفة، عندها قال الكمسارى بحزم:

ـ احترم نفسك، هتدفع التمن غالى.

الحق أننى كنت أريد أن أنام الساعة الباقية على الرحلة، وكانت تلك الساعة التى سأقضيها نائما ستجعلنى مستريحا طوال اليوم أثناء تجوالى فى القاهرة، ولكن الكمسارى بصوته المرتفع أطار النوم منى وغيرى من الركاب يتوقون إلى ساعة نوم واحدة يستريحون فيها.

احتكم الراكب إلى أحد الركاب، وكان كبيرا فى السن، يبدو أنه كان نائما مثلى واستيقظ على الصياح، كان صوت الرجل عاليا، يبدو أنه يعرفه قائلا:

ـ شايف يا عبدالحفيظ بيه الأيام السودة، على آخر الزمن ندفع أجرة

فى السكة الحديد.

قال عبدالحفيظ:

ـ إيه الحكاية؟.

ـ أنا مسافر مأمورية مصلحية، والكمسارى رأسه وألف سيف يقطع لى تذكرة.

أشار عبدالحفيظ إلى الكمسارى، حضر إليه الكمسارى وهو جالس فى مكانه ـ يبدو أن عبدالحفيظ شخص مهم في السكة الحديد لأن الكمسارى ذهب إليه دون أن ينبس بكلمة واحدة ـ قال الكمسارى وهو يشير إلى الراكب:

ـ لو كان مؤدب كان على رأسى من فوق.

انفعل الراكب وقال:

ـ أنا مؤدب ومحترم قبل انت ما تتولد.

قال الكمسارى لعبدالحفيظ:

ـ شايف الأدب والزمالة؟.

قال عبدالحفيظ للكمسارى:

ـ خليك أنت الكبير، لازم تتحمل الرذالة من كل الخلق.

لانت تقاطيع الكمسارى، وأصبحت الورقة التى خرجت من الجهاز عديمة الفائدة والجدوى، وعم الهدوء دخل عربة القطار، وطار النوم من عينى.

★★★

عندما نزلت فى محطة القاهرة حجزت تذكرة للعودة بها فى القطار الذى يتحرك فى الساعة الرابعة بعد صلاة العصر فى اليوم نفسه.. واشتريت الجرائد اليومية.

لا أعرف طبيب يمكننى استشارته، وليس من المعقول أن أرفع رأسى

ناظرا إلى كل عمارات القاهرة بحثا عن طبيب.

فكرت في الذهاب إلى مستشفى الشرطة لعلاج حالة ضيق التنفس التى بدأت أشعر بها خصوصا بعد استيقاظى من النوم، وبعد صعود درجات معدودة من أى سلم، كما كانت تلك الحالات من ضيق التنفس تداهمنى فى الليل وتمنعنى من النوم المريح.

تناولت طعام الإفطار في مطعم فول فى ميدان باب اللوق، وبعد أن أكلت دخلت المقهى الذى تعودت الجلوس عليه، طلبت كوب شاى «فتلة» و«شيشة»، جاء الشاى فى كوب نظيف بجواره كوب من الماء، وإناء صغير فيه سكر، وضعت ملعقتين فى السكر فى كوب الشاى، حركته قليلا، بدا اللون البنى يتسرب من ورقة الشاى المغمورة فى الماء الساخن، عصرتها بلف الخيط على الملعقة عدة مرات وأخرجتها ووضعتها فى الصينية، جاء عامل المقهى بالشيشة، عليها الجمرات الحمراء تعلوها طبقة خفيفة من الرماد، سحبت أول نفس منها، لم يخرج الدخان، وفى النفس الثانى شعرت بالتهاب فى الحلق وبدأت أسعل، وفى النفس الثالث بدا وكأننى أدخن الشيشة منذ عشرات السنين.

★★★

فى المستشفى سألتنى طبيبة الأمراض الصدرية عما أشكو منه، قلت لها إننى أعانى من حالات ضيق فى التنفس متكررة على فترات متقاربة قالت:

ـ منذ متى؟.

ـ من ثلاثة أو أربعة شهور.

ـ وقبل ذلك؟.

ـ لم يحدث.

ورينى صدرك.

حاولت أن أفك أزرار القميص وأنا جالس أمامها، ولكنها أشارت إلى منضدة الكشف وقالت:

ـ اخلع القميص.

صعدت على منضدة الكشف، وخلعت الحذاء وتركته على الأرض، خلعت القميص وعلقته على الكرافان الذى يستر منضدة الكشف، رفعت الفانلة عن صدرى، كانت الطبيبة شابة ولها شعر يتدلى حتى يلامس صدرها.. شعرها ناعم ولونه عسلى، كانت ترتدى بالطو أبيض، وضعت السماعة على صدرى، أزاحت شعرها الذى لامس بطنى، انتظرت برهة والسماعة ملتصقة بصدرى، ثم حركتها إلى موضع آخر عند جانبى الأيمن، ثم جانبى الأيسر، وفوق قلبى، وقالت:

ـ ورينى ظهرك، وخد نفس عميق.

استدرت، كانت الفانلة تغطى ظهرى، أزاحتها قليلا، وضعت السماعة على ظهرى فى عدة مواضع، وقالت:

ـ كح.

كحيت.

قالت:

ـ كح جامد شوية.

سألتنى:

ـ فيه بلغم؟.

ـ لا.

خلعت السماعة من أذنيها وذهبت إلى مكتبها، نزلت من على منضدة الكشف، لبست القميص، أدخلت قدمى فى الحذاء، لبست القميص على استعجال وجلست أمامها على المكتب، قالت:

ـ صدرك تعبان شوية، إنت بتدخن؟.

قلت لها إنني أدخن الشيشة على فترات متقطعة، نظرت إلى نظرة سريعة، وقالت:

ـ طبعا يستحسن عدم التدخين.

بدأت تكتب فى التذكرة التى أمامها، وبعد أن فرغت قالت وهي تشير إلى ماكتبته:

ـ قرص واحد عند اللزوم، يعنى كل ما تشعر بتعب، وبخاخة صباحا ومساء في كل مرة بخة واحدة، وملعقة صغيرة من الدوا بعد الأكل.

كنت أود أن أسألها عن ما أعانى منه فى الحقيقة، ولكننى تراجعت.

★★★

فى قسم الأمراض الجلدية أخبرتنى الممرضة وهى تسجل تذكرتى في دفتر كبير أمامها أن الطبيب غير موجود، توجد طبيبة استشارية للأمراض الجلدية والتناسلية.

دخلت.

كانت الاستشارية تجلس على كرسى وهى تبتسم، قدمت لها التذكرة وألقيت عليها تحية الصباح، أجابت وهى تبتسم أيضا، مرت فترة صمت، كنت خلالها أفكر فى مدخل مناسب لعرض مشكلتى، ولكنها بادرتنى بالسؤال قائلة:

ـ بتشتكى من إيه؟.

نظرت إليها خجلا وقلت:

ـ موضوع حساس شوية.

ـ تحت أمرك فى الطب مفيش حساسية، اتفضل بتشتكى من إيه؟.

ـ أبدا، مع زوجتى فيه مشاكل.

ـ مشاكل من نوع إيه؟.

لم أجـد عندى الجـرأة الكافـيـة للكلام، غـيـر أننى أيقنت أنـهـا بلا شك متـخـصـصـة فى هذا النوع من المشكلات الطبيـة، كمـا كانت تلك هى المرة الأولى التى أتكلم فيها عن مشكلتى بصراحة أمام أحد، الطبيبة التى تكلمنى تجاوزت الخمسين، وجهـا تكسوه البقع السـوداء البارزة، وهو ما يوحى بعدم قدرتها على مـعالجة نفسـها، كما أن ابتسامتـها تخفى تجهما سرعان ما بدا عليها عندما تكلمت، كانت تقاطيع وجهها صـارمـة، مرت فـتـرة صـمـت أصبح موقفى مـحرجا فيها، شجعتنى على الكلام بنظرتها الحيادية وقلت:

ـ مش قادر.

ـ يعنى من ناحية العلاقة الزوجية بينك وبينها؟.

ـ يعنى.

مـدت يدها إلى أجندة وبدأت تكتب فـيـهـا بعد أن نقلت اسـمـى من التذكرة وسـألتنى بعد أن فرغت من الكتابة:

ـ سنك كام؟!.

ـ واحد وخمسين.

رمقتنى بنظرة خاصـة لم أفهـمـهـا، ربما اعتقدت أننى أكبر من هذا السن، وأننى مثل السيدات لا أذكر حقيقة عمرى، وقالت:

ـ عندك سكر أو ضغط، أو أى أمراض من ناحية القلب.

ـ لا.

ـ من إمتى الحالة دى؟.

ـ من حوالى خمسة شهور.

ـ يعنى عدم وجود رغبة، أو رغبة وعدم قدرة؟.

ـ عدم رغبة.

ـ المدام موظفة؟.

ـ نعم.

ـ أكبر منك ولا أصغر؟.

ـ أصغر بكثير.

ـ قريبتك؟.

ـ أيوه.

ـ معاك فى البيت ولا منفصلين؟.

ـ معاى فى البيت.

ـ عندك أولاد؟.

ـ ثلاثة.

ـ ثلاثة؟.

ـ ايوه.

ـ حضرتك بتشرب؟.

ـ اشرب إيه؟.

ـ مشروبات روحية، منكر يعنى.

ـ لا.

ـ بتدخن؟.

ـ بسيط جدا.

ـ آخر محاولة كانت إمتى؟.

ـ من أربع شهور.

ـ فى الصباح وأنت صاحى من النوم بتحس إنك كويس؟.

ـ مش فاهم؟.

ـ يعنى بتشعر أنك طبيعى زى ما كنت من عشر سنين؟.

ـ أيوه.

أخبرتها عن حالة ضيق التنفس وآلام الظهر التى تنتابنى بين آن وآخر، كما أخبرتها أننى أقيم فى الصعيد، لاحظت أن تقاطيعها لانت قليلا، وكانت تستمع إلى بإنصات، وبدا عليها نوع من الارتياح، وأمسكت بالقلم ووضعته عند شفتيها وسرحت قليلا، وقالت دون أن تنظر إلى:

ـ يمكن الحالة نفسية.

ـ يمكن.

ـ أنت أخذت علاج فيه كورتيزون.

ـ لا.

كانت الاستشارية حيادية، ولم تبد أى تعاطف معى، وشعرت أنها ربما كانت تعانى من نفس المشكلة مع زوجها، فقد كانت ملامحها بالغة الصرامة، ولاحظت أن هناك زغب خفيف ينمو فوق شفتها العليا، شعرت بالتقزز منها، وأشفقت على زوجها إن كانت متزوجة، وكانت فى تلك اللحظة تكتب فى التذكرة، وبعد أن فرغت نظرت فى التذكرة وقالت:

حقنة كل أسبوع، ممكن تأخذ واحدة فى الاستقبال دلوقتي، وقرص بعد العشاء تستمر عليه لمدة شهر، وسكتت لحظة وسألتنى:

ـ جربت الفياجرا؟.

ـ لا.

ـ على العموم العلاج المكتوب مفيد، ونشوفك ومعاك تحليل دم لمعرفة نسبة التوستيرون.

ـ لكن لازم نجرب العلاج.

كتبت فى ورقة أمامها نوع التحاليل المطلوبة، وطلبت منى أن أحضر لها التحليل لتطلع عليه.

ناولتنى التذكرة والورقة، كانت تنظر إلى، حتى بعد أن خرجت وحاولت أن أغلق الباب خلفى رأيتها لاتزال تنظر إلى.

★★★

وذهبت إلى المعمل، أعطيتهم الورقة، طلبت منى الطبيبة أن أكشف ذراعى كله، أزحت كم القميص عن الذراع، نظرت فيه لم تجد أى أوردة ظاهرة، ضغطت قليلا ولم تظهر الأوردة، كانت تمسك فى يدها بسرنجة لها أبرة مشرعة شعرت بالخوف، عندى خوف غريزى من الحقن، تركت السرنجة، ربطت ذراعى من فوق الكوع برباط ضاغط حتى ظهرت الأوردة غليظة ومنتفخة، مسحت بقطعة قطن مبللة بمطهر المكان الذى ستدخل الإبرة فيه، أدخلت الإبرة وسحبت كمية من الدم، أخرجت الإبرة ومسحت مكانها بالقطنة مرة ثانية وتركتها مكانها وطويت ذراعى عليها، أفرغت السرنجة فى أنبوبة اختبار، ولفت عليها شريط لاصق بعد أن كتبت عليه اسمى، طلبت منى أن أعود بعد ساعة لاستلام التقرير.

عندما عدت سلمتنى التقرير بعد أن سحبته من طابعة الكمبيوتر ووقعت عليه.

★★★

ذهبت إلى الطبيبة التى طلبت منى التقرير، كانت جالسة بمفردها، دخلت المرضة، أشارت إليها بالخروج، ناولتها التحليل، أطلعت عليه، وضعته أمامها ونظرت إلى وقالت:

ـ نسبة التوستيرون طبيعية وفى المعدل المعتاد، ومفيش حاجة مش طبيعية.

سكتت لحظة وقالت:

ـ أنت حضرتك قلت لى بتشتغل إيه؟.

ـ أنا فى المعاش.

ـ يعنى حضرتك مش بتشتغل حاجة أبدا؟.
ـ لا.
ـ عموما احتمال يكون حاجة نفسية بسبب مشكلات فى البيت.
ـ الحقيقة مفيش مشكلات فى البيت.
زمت شفتيها وقالت:
ـ عموما جرب العلاج ونشوفك بعد شهر.

★★★

عدت إلى محطة السكة الحديد، ركبت القطار المتجه إلى الجنوب.
استلقيت فى الكرسي.. بدأت أفكر فى كلمات الدكتورة، شعرت بالخوف، هل سأطوف على الأطباء النفسيين أيضا.
فكرت فى زوجتي، شعرت أن رغبتى متأججة.
شعرت أننى فى حاجة إلى دفئها وحنانها وتلقائيتها، أحسست أننى أفتقدها منذ زمن طويل.
تمنيت أن يطير القطار.
الآن توقف القطار.
طال الانتظار، نزل الركاب يستفسرون، ثمة عطل فى القطار، سألنا أحد عمال السكة الحديد، قال:
ـ عطل فى خط النازل.
لم نفهم، شرح لنا أحد الركاب من المسئولين فى الهيئة قائلا:
ـ خط النازل يعنى الخط المتجه إلى الجنوب.
سألناه:
ـ هل سيطول العطل.
ـ الله أعلم.

عدت إلى الكرسى جلسنا فى انتظار الفرج، أخرجت الجرائد التى معى، كنت أشعر بالضيق والملل، الجرائد لاشيء فيها يقرأ، فى الصفحة الأولى خبر عن تعيين حكومة عراقية مؤقتة.

تروقنى صفحة الحوادث، فتحت الصفحة وقرأت:

ـ القبض على قائد الجناح العسكرى للجماعة الإرهابية، تمت مساء أمس أخطر عملية قام بها رجال الأمن، فقد دلت التحريات على قيام مجموعة من أخطر الجماعات المسلحة بالتواجد داخل وكر على أطراف الصحراء الغربية، وعلى الفور تم إعداد خطة أشترك فيها مساعد الوزير ومدير الأمن ومدير المباحث ورئيس الفرع، وتمت مهاجمة الوكر فى الساعات الأولى من فجر أمس الأول، وعثرت قوات الأمن على كمية من الأسلحة الآلية والذخائر بأنواع مختلفة، كما وجدت وسائل إعاشة عبارة عن بطاطين ومعلبات، كما عثر معهم على أوراق تنظيمية ونقود، وقد تبادل أفراد الجماعة إطلاق النار مع رجال الأمن، وقد أمكن السيطرة على الموقف والقبض على قائد الجناح العسكرى للجماعة، كما عثر معه على أوراق تنظيمية ووسائل إعاشة، وأصيب أحد الجنود.. والحالة الآن هادئة فى الجنوب.

«تمت»

حمدي البطران

ديروط ـ ٢٠٠٤

أحـــدث إصـــدارات روايات الهـــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٦٧	أيام القبوطى	سهام بيومى	يوليو ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٦٨	ربيع حار	سحر خليفة	أغسطس ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٦٩	الخالدية	محمد البساطى	سبتمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٠	الرواية	د. نوال السعداوى	أكتوبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧١	مواعيد الذهاب إلى آخر الزمان	عبده جبير	نوفمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٢	قمر على سمرقند	محمد المنسى قنديل	ديسمبر ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٧٣	غواية الإسكندر	محمد جبريل	يناير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٤	عاشق الحى	يوسف أبو رية	فبراير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٥	يا قلبى لا تحزن	منال القاضى	مارس ٢٠٠٥	٥,٠٠
٦٧٦	أبقى الباب مفتوحا	فؤاد قنديل	أبريل ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٧	لو لم يكن اسمها فاطمة	خيرى الذهبى	مايو ٢٠٠٥	٧,٠٠
٦٧٨	محمد يا صفوى	بشار كمال	يونيه ٢٠٠٥	٨,٠٠

رقم الايداع : ١٣٣٨٦ / ٢٠٠٥
I.S.B-N
977-07- 1146- 2



حمدى البطران

* من مواليد أسيوط فى فبراير ١٩٥٠.
* حاصل على ليسانس الحقوق (جامعة أسيوط) وبكالوريس الهندسة (جامعة المنيا).
* عمل ضابطا بهيئة الشرطة فى مصر منذ سنة ١٩٧٣ حتى سنة ٢٠٠١.
* صدرت له ثلاث روايات هى : ضوضاء الذاكرة (الهيئة العامة لقصور الثقافة) واغتيال مدينة (الهيئة العامة للكتاب) ويوميات ضابط فى الأرياف (روايات الهلال) وله مجموعة «المصعقون (هيئة الكتاب) .
* عضو اتحاد الكتاب وعضو نادى القصة.

– له تحت الطبع «تأديب الأبرياء» و «محاكمة الرواية».

هذه الرواية

يتناول الأديب حمدى البطران صفحات من حياة ضابط شرطة سابق بعد إحالته للتقاعد وذلك فى لمحات إنسانية توضح معاناة كل موظف يحال إلى التقاعد من الوحدة والفراغ وزوال هيبة المنصب وخلال ذلك كله يعرض لنا ممارسات البعض من خلال سلطته ووظيفته سواء من زملاء المهنة أو فى مختلف الوظائف والقطاعات التى احتك بها الكاتب اثناء عمله أو بعد إحالته للتقاعد.

هى رواية تعبر عن جانب إنسانى هام جداً لم يطرحه الكثير من كتابنا وهى معاناة من يحال إلى التقاعد ،، خاصة إذا كان يشغل منصباً هاماً أو وظيفة ذات هيبة وسطوة.

وقد استخدم الكاتب اسلوب القص على لسان بطل الرواية مما أكسبها صدقا وواقعية فيخيل إليك أنها تجربة الكاتب نفسه رغم أبعادها الفنية البحتة.



يوسف أبو رية
عاشق الحي

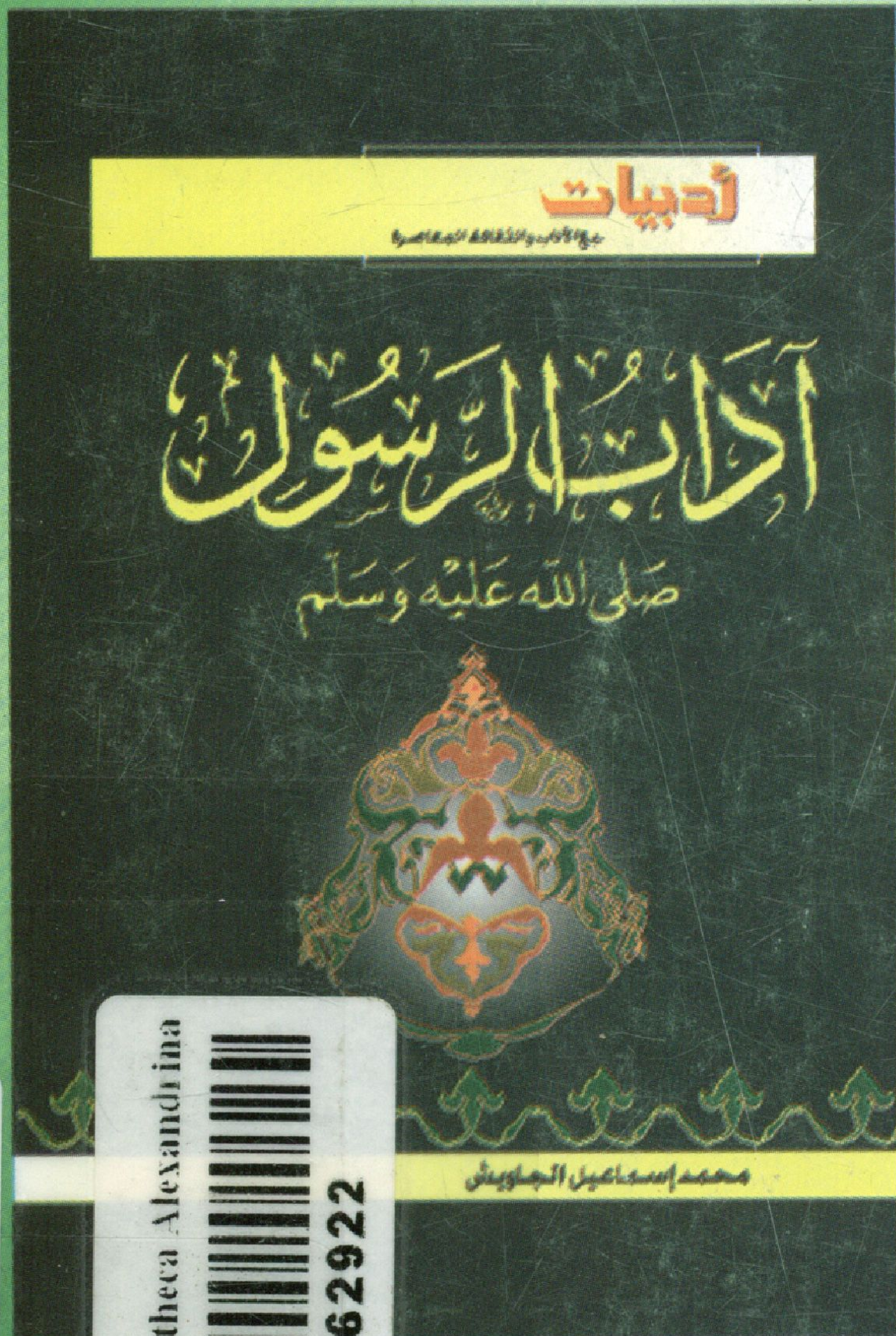


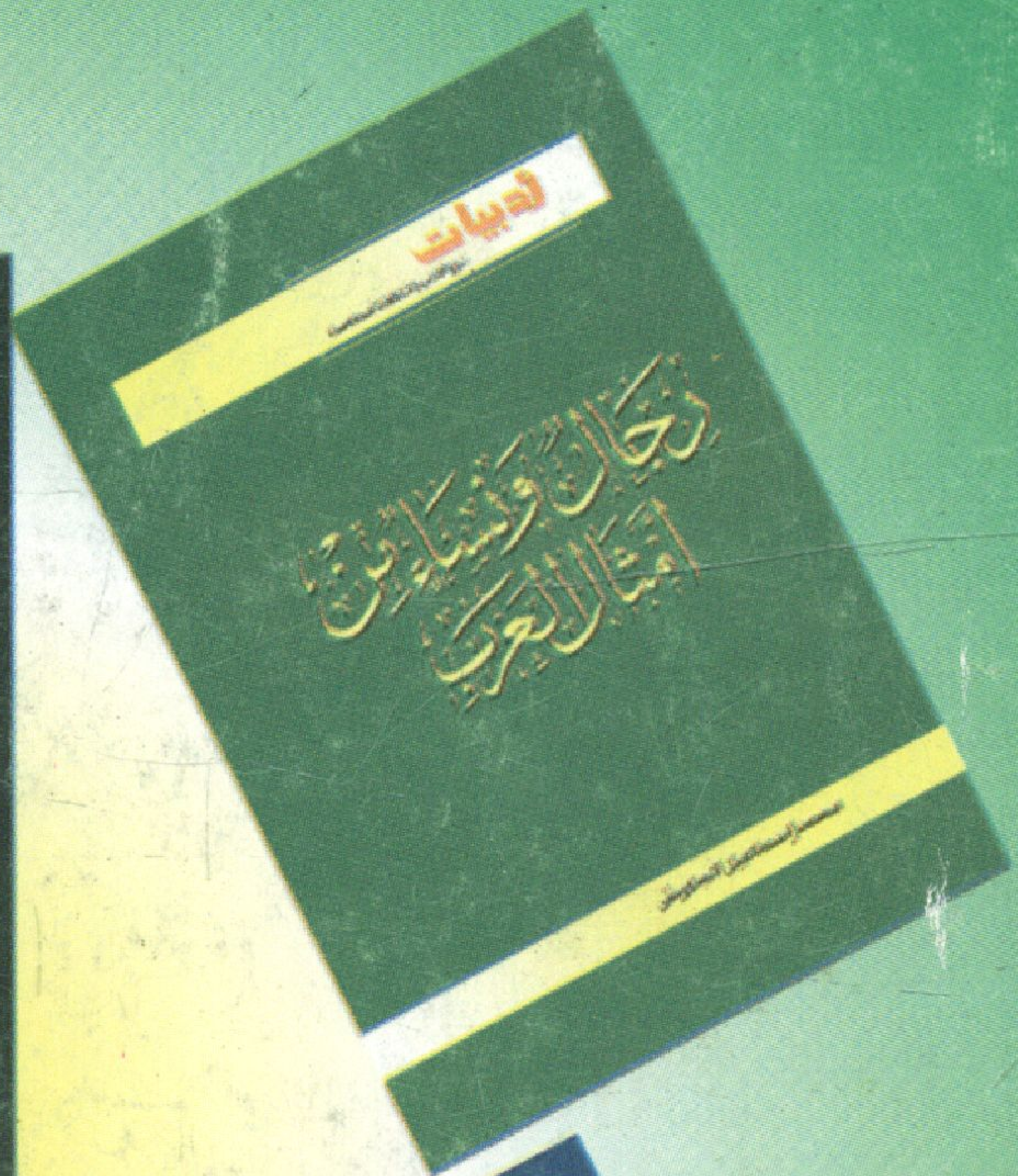


فؤاد قنديل
أبقى الباب مفتوحا

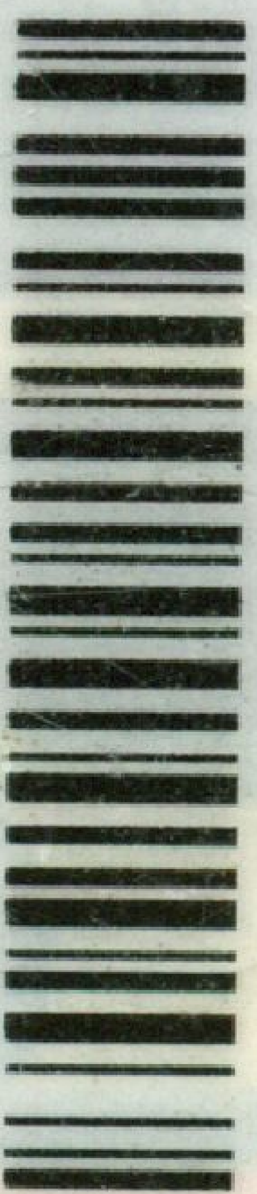
أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة









طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .